كتاب

الإشراق الإسلامي

الجزء الأول

الشيخ محمد الجيلاني

الشيخ محمد الجيلاني حمزة
الواعظ بجامع الحنفية بالمهدية

كتاب

الإشراق الإسلامي

الجزء الأول

تقديم
فضيلة الشيخ محمد الفاضل بن عاشور

الشركة التونسية للتوزيع

الإهداء

إلى رُوح أبي ..

أهدي كتابي هذا إلى روح أبي الذي علمني الاعتزاز بالإسلام وأنشأني على حب الدين والتمسك بآداب سيد المرسلين وبث في نفسي الأخلاق الكريمة من الصدق في القول والإخلاص في العمل، وروضني على الشجاعة والإقدام وحب الخير لجميع الأنام.

وحبب إلى نفسي تلاوة القرآن الذي كان يقول لي في شأنه إنه خير جليس للإنسان.

وكثيرا ما كنت أشهد جماعة من أصحابه يجتمعون في بيتنا كل ليلة يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم فكانت الغبطة تملؤني كلما فهمت تفسير آية من آيات تنير لي طريق الرشاد وتهديني سواء السبيل.

فهل يا والدي العزيز ترضى عن هذا الجهد الذي بذلته خدمة لوطني وإرضاء لربي والله يعلم حسن قصدي وسلامة نيتي فإلى روحك الطاهرة في جنة الخلد أهدي هذا الكتاب ؟

المؤلف

الحمد لله   صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

هجمت الحياة الغربية على بلاد الإسلام، بالصناعة والثقافة، والنظم الاجتماعية، وطرائف الحكم والإدارة، بعد ما مني المسلمون بانحلال في الوازع الديني، وركود في الحضارة، وجمود في الثقافة، وكان لذلك أثر سيء على الحياة الدينية. فقد أقبل المسلمون على الحياة الغربية، يمارسون أوضاعها، ويتأثرون بمذاهبها الفكرية والعملية، ويندفعون في السير عليها: في أحكامهم ومعاملاتهم، وآدابهم، على ما في الكثير من ذلك من اختلاف عن أحكام دينهم الحنيف، وبعد عما تعبدهم به في المعاملات والآداب. فبها فتنوا على الحياة التي هجمت عليهم، بلا هدى ولا كتاب منير. لا يكادون يتبينون حكم الله فيما يتعاطون، ولا يلتزمون خلقا إسلاميا فيما يسلكون، ولا يفهمون حدود ما أنزل الله فيما

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

كلمة المرحوم فضيلة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور

هجمت الحياة الغربية على بلاد الاسلام ، بالصناعة والثقافة ، والنظم الاجتماعية وطرائق الحكم والادارة بعدما مني المسلمون بانحلال في الوازع الديني وركود في الحضارة وجمود في الثقافة ، فكان لذلك اثر سيء على الحياة الدينية . منذ اقبل المسلمون على الحياة الغربية يمارسون اوضاعها ، ويتأثرون بمذاهبها الفكرية والعملية ويندفعون في السير عليها في احكامهم ، ومعاملاتهم وآدابهم على ما في الكثير من ذلك من اختلاف عن احكام دينهم الحنيف وبعد عما تجدهم به في المعاملات والآداب . فتهافتوا على الحياة التي هجمت عليهم بلا هدى ولا كتاب منير . لا يكادون يتبينون حكماً شرعياً فيما يتعاطون ، ولا يلتزمون خلقاً اسلامياً فيما يسلكون ، ولا يقيمون حدود ما انزل الله فيما اليه يتحاكمون ، ولا ما به يحكمون ، حتى اصبحت سيرة الحياة متجافية عن مناهج الدين ، وصار الدين معزولاً عما ينبغي له من سلطان على توجيه مسالك الحياة .

فسادت بين المسلمين تلك الفتنة النفسية المنكرة التي ابعدتهم عن تطبيق الدين الذي به يؤمنون ، على اوضاع الحياة التي فيها يعيشون . حتى ان كثيراً منهم اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وصاروا هملا يسيمون في الحياة المادية كما تسيم الانعام . وبقيت منهم قلة ، هي الامثل حالاً والارجى للخير ، حافظت على الصلاة وتمسكت بكلمة الدين ما استطاعت وهي تلك القلة المباركة التي تغشى المساجد وتصغي الى المواعظ ، وتستمع الى التلاوة فتقشعر جلودهـا ، وتفيض عيونها وتتحرك في انفسهـا دواعي قوية للانابة ، وحوافز بليغة للسير على ما يرضي الله . ولكنها اذا فارقت المسجد ورجعت الى الحياة الاجتماعية ، التي تحكمها المادة ، وتعبث بها الفتنة وتتخبطها الشهوة ، وجدت نفسها قاصرة عن ان تقوم المنحرفين وتهدي الضالين وتطمن المفتونين اذ لا تكاد تعرف الطريق

الذي يمكن لهداية المسجد : التي ملات نفوسها ان تصل منهـا الى الحياة الاجتماعية ، حتى تنيرها وتصلحها . وكذلك تاخذ تلك الفئة المرجوة للخير في الانطواء على نفسها والتراجع عن طريق دعوة الحق حتى تصبح عاجزة ، امام تيار الفتنة المادية عن ان تستقيم هي بنفسها على طريقة الهدى وان تجنب نفسها مهاوي الفساد ، ومتاهات الضلال ، فتأخذ في الانزلاف ، شيئا فشيئا في صعيد الفتنة ، وقد فقدت القوة التي تثبت اقدامها ولم تجد فيما حولها ما تتوكأ عليه ، او تتعلق به حتى لا تزل بها القدم في مزالق الندم .

ومن هنا ادرك اهل النظر السديد من دعاة النهضة الاسلامية في اوائل هذا القرن ان من اقرب الوسائل وانجعها لبعث الاسلام ، معمولاً به في الحياة ونشره مطبقا على اخلاق المسلمين ونظمهم ومعاملاتهم وسيلة الاخذ بيد الطائفة الخيرة التي بقيت تغشى المسجد وتستمع الى الموعظة اخذاً يثبت خطاها ويبصرهـا بمسالك الاتصال بين احكام الدين ، ووقائع الحيـاة ويسدد سواعدها في حسن وضع الاحكام والآداب الدينية مواضعها من تلك المجاري وحسن توجيه تيارها الى الانصباب في مهيع الشريعة اللاحب وسبيلها الواضح. وبذلك تتحرك المعاني الدينية التي في نفوسهم فتتولد منها عزائم العمل ويخرج الدين عن عزلته حتى يصبح ذا اثر فعال في اصلاحهم واصلاح غيرهم، ويصبحوا به مهتدين بالحق هداة اليه قائمين على الخير ادلة عليه .

ذلك ما تداعى به ايمة الحركة الاصلاحية في العالم الاسلامي شرقاً وغرباً، وعلى ذلك خططوا الخطط لاصلاح مناهج الخطابة الدينيـة واعداد الخطيب لان يتولى بخطبته شؤون الحياة العملية بهدى الدين فكان **الشيخ محمد رشيد رضى** يدعو الى احيـاء الخطابة الدينيـة ، ويسعى لانشاء دار الدعوة والارشاد التي اوشكت ان توتي ثمارها لو لم تعالجها الفوائل و**الشيخ محمد الخضر حسين** يحث على الخروج بالخطبة عن الاساليب التي عكف الخطباء عليها تقليداً في غير محل التقليد وامام الجيل **الشيخ سالم بوحاجب** يضرب في خطبه المثل الاولى للصورة التي يتطلع اليها المصلحون ويقفي على سبيله تلاميذه حتى شاعت هذه الدعوة

في اصول التربية العلمية الاسلامية بجامع الزيتونة الاعظم في الربع الثاني من هذا القرن الهجري .

وتلك هي التربية التي اثمرت واعظاً دينياً وخطيباً جمعياً ، آتاه الله من التوفيق في الخطابة والوعظ ما جعله بحمد الله مثالاً سامياً في الدعوة الى الله ، ومذكراً بارعاً بما ينبغي ان يكون للدين عند المتمسكين به من تقويم للحياة العملية وتمكين لوسائل النجاح فيها .

ذلك هو اخونا المفضال العالم المدرس الخطيب **الشيخ محمد الجيلاني حمزة** المهدوي كتبه الله في الهادين المهديين .

فلقد اخذ منذ اول ما تخرج من الكلية الزيتونية يعالج الخطابة الجمعية والمجالس التذكيرية الوعظية بروح حية يقظة واسلوب حكيم بديع وبدأ الناس شيباً وكهولاً وشباناً يجدون في موعظته وتذكيره ما يقربهم من ادراك اسرار الدين ويصل بين ارواحهم وروح الحكمة الاسلامية ويرفع من امام وجوههم الحواجز التي كانت تحول بينهم وبين مسالك اصلاح الدنيا بالدين او كما قال الامام الشاطبي : المصالح المجتلبة شرعاً والمفاسد المستدفعة التي انما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الاخرى .

ولقد كنت لما عملت على انشاء شعبة الوعظ والارشاد في الكلية الزيتونية وخططت مناهجها وتوليت طلبتها انا وأصحابي الجلة شيوخ الكلية بالتعليم والتبصير والتدريب الاحظ ان من الخطباء الفضلاء في بلادنا من يصلح لان يتخذ لهم مثالاً فكان **الاخ الشيخ الجيلاني** اول المبادرين الى ذكري من هؤلاء لما كنت عرفت فيه من حكمة في تناول الموعظة الدينية على وجهها الصالح المرجو .

حتى زفت الي البشرى بأنه قد جمع طائفة من خطبه وهيأها للنشر ثم اكتملت عندي البهجة حين اطلعت على هذا السفر القيم الذي يضم خطبه النافعة ، فحمدت الله تعالى على النعمة التي افاءها على هذا الاخ الحميم ورجوت أن يكون لي منها نصيب من نوه بالخير واثنى على فاعله فأعان على ايصال الخير الى قلوب المؤمنين .

ربيع في الانور سنة 1389 — **محمد الفاضل ابن عاشور**

ترجمة المؤلف

ولد بالمهدية سنة 1900 وحفظ القرآن الكريم دون ان يبلغ العاشرة من عمره ثم أقبل على مزاولة التعليم بالمدرسة العربية الفرنسية فاحرز على الشهادة الابتدائية وكان ذلك في سنة 1913 م وبعد ذلك ارسله ابوه الى الكلية الزيتونية فمكث بها سبع سنوات الى ان تحصل على شهادة التطويع سنة 1920 ثم رجع الى مسقط راسه وتولى التدريس بجامع جده **الحاج مصطفى حمزة** وكان يحضر درسه مئات من الناس والطلبة وفي اثناء تلك المدة كان لا يصرف لسانه ولا قلمه عن العمل فطوراً يحاضر الناس في المجتمعات وانا يكتب في المجلات كمجلة **شمس الاسلام والمجلة الزيتونية** وفي الصحف كجريدة **الزهرة والنهضة والصباح** وفي سنة 21 شوال 1343 هـ الموافق 15 ماي 1925 م انتخب من طرف الاهالي اماما خطيبا بجامع جده **الحاج مصطفى حمزة** .

وفي شهر اكتوبر 1929 م اسس مدرسة قرآنية وسماها المدرسة الاهلية واتشامن ماله الخاص وخصص لها داراً على ملكه وباشر التعليم فيها فتخرج على يديه نوابغ يعتز بهم الوطن الآن .

وفي اثناء قيامه بالتدريس في المدرسة المذكورة انصرفت همته الى ناحية التأليف فألف كتابه « **السعادة الابدية** » وقد حدا به تاليفه ما شاهده من النقص في اخلاق الناشئة عند عمله في الحقل الدراسي وقد اطلعت عليه مشيخة الجامع الاعظم وألفت لجنة للنظر فيه فقررت تدريسه ضمن الكتب التدريسية وكان ذلك في سنة 1367 هـ الموافق 1948 م .

وفي سنة 1356 الموافق 1937 عاضد المرحوم المرشد **الشيخ عبدالعزيز**

الباوندي مؤسس الاملاءات القرآنية فطـاف معه معظم المدن والقرى التونسية التي اسس فيهـــا تلك الاملاءات ولم يبق له إلا جهـــة قابس ومـا حولهـــا حيث عاجلته المنية قبل ان يتمم زيارته لتلك الجهات رحمه الله رحمة واسعة وجعل مأواه الجنة وكان من عادته رحمة الله اذا فرغ من موعظته يسند الكلمـة للؤلف ليقوم مقامه في القاء موعظة اخرى تناسب المقام :

وفي سنة 1380 الموافق 1961 انتدب الى شقيقتنا ليبيا بطلب من حكومتها ليقوم بمهمته الوعظ والارشاد في مدينة طرابلس فلبى الدعوة ومكث بها سنتين كان فيهما محل الحفاوة والاكرام وفي اكتوبر سنة 1964 احرز على التقـاعد فتفرغ للتأليف بعد قدومه من اداء فريضة الحج مساهمة منه في ايقـــاظ الوعي الخلقي والديني ومقاومة الفقر العقلي فألف كتابه هذا اسماه **«الاشراق الاسلامي»**

المقدمة

مرت التربية بادوار شتى قديماً وحديثاً واختلفت طرقها باختلاف الامم جاهلها ومتعلمها واول ميدان للتربية هي البيت فمنهـا يخرج الطفل الى الوجود وفيهـا يحصل على نصيبه من التربية صحيحها او فاسدها ويكتسب من اصول الاخلاق مـا يلازمه ايام الرجولة وينتهي إلا بانتهاء اجله ثم يأتي بعده دور الطفولة المدرسة والوسط الادبي ومن يخالطهم الطفل من شباب و كهول وشيوخ ومن يقرأ عنهم ويكونون قدوة له يأخذ عنهم مـا يوحون اليه من افعالهم وافكارهم ساءت او حسنت .

واذا انتقلنا من دور الطفولة الى دور الرشد والعقل واصبح الإنسان قادراً على التمييز بين الخير والشر يبدأ تربيته بنفسه والاخذ بأسباب رقيها عن طريق وحي العلم والتفكير الصحيح فالعلم يكشف للشخص عن حقائق الاشياء ويريه وجوه النفع والضرر فيساعده على مصاحبة الحسن ومجانبة القبيح لان العلم سلاح ان استعمل في تدريب النفس على الفضيلة افاد وقد يكون معوانا لها على الرديلة احيانا وفي هذا المعنى يقول حافظ ابراهيم :

والعلم اذ لم تكتنفه شمائل ... فعلية كان مطية الاخفاق
لا تحسبن العلم ينفع وحده ... مـا لن يتوج ربه بخلاق
كم عـالم مد العلوم حبائلا ... لوقيعة وقطيعة وفـراق

ومن هنا يتبين ان العلم اذا لم يكن مقرونا بالاخلاق الكريمة كان ضرره اكثر من نفعه وقد استعاذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم اني اعوذ بك من علم لا ينفع » وفي المثل علم بلا ادب كشجر بلا ثمر .

اذا تقرر هذا امكننا القول باننا وان كنا تقدمنا علميا لا بأس به وخطونا الى الرقي العلمي خطوات في هذه السنين العشر التي نلنا فيها استقلالنا وحريتنا إلا اننا نلاحظ انحطاطاً في المستوى الخلقي يشمل معظم طبقات الامة فقد اشتد تيار الخلاعة والتهتك واولع بهما الشبان والشابات في الشارع والشواطيء والمتنزهات وكان لكل هذا اثره في فشو روح الاباحية والاستهتار بالقيم الاخلاقية والتهاون بالواجبات الدينية والادبية كالاحترام والوقار بين الوالد والولد .

ولا شك ان هذا نتيجة لعصر الانتقال الذي تجتازه تونس إلا ان وهو من اخطر الادوار في حياة الامم واثر من آثار المدنية الحديثة التي نكرع من بحرها فكان لا بد ان يصحب الانتقال والمدنية تغيير شديد في سلوك المرء واخلاقه فتتلاشى تلك الاخلاق المؤسسة على النظام والعادات الموروثة والعقائد الدينية ويحل محلها نوع آخر من الاخلاق عماده المصلحة الذاتية .

وانت لو قارنت بين البدوي والمدني وجدت من الاول خلقاً متيناً اساسه الوجدان والحرية ولوجدت من الثاني خلقاً متكلفاً اساسه التصنع والرياء .

يحدثنا التاريخ بلسان الكاتب اليوناني « **ارستوفانس** » عن اثينا بعد الحروب الفارسية ان الالحاد قد فشا والآداب قد فسدت وصار الناس احراراً في سلوكهم لا يحتشمون ولا يتقيدون بنظام او قانون واصبح الاطفال ذوي خبث ودهاء قد فسدت اخلاقهم ونضب ماء الحياء من وجوههم واصبحت الحلائل جامحات عاصيات مبذرات غير عفيفات واصبح البعول وقد اهملوا منازلهم واغفلوا حقوق الزوجية وعاشوا لانفسهم لا غير اما رجال الوطن فقد تحولت وجهتهم الى جمع المال وكسبه من الطرق الشريفة وغير الشريفة لايبالون بما نالهم من عار وسمعة سيئة واما الموالي فقد تعودو العصيان والكسل وقل فيهم الولاء والاخلاص وان اردت الاجمال فقل فسدت شخصية الانسان وتمشت في طريق الغواية والضلال .

هذا ما يحدثنا به التاريخ عن اثينا في دور انتقالها وهو ما نكاد نراه بعينه فاشيا بيننا وطبائع الامم وان تقادم عهدها متشابهة .

فالواجب يقضي على المصلحين ان يتداركوا هذا الامر بالعلاج المفيد والدواء الحاسم وأن يقفوا من الآن في تهذيب اخلاق الامة موقف المرشد الحكيم والسبيل الموصل في الإصلاح الخلقي هو الرجوع بالناس إلى تمسكهم بدينهم وتقوية روح العقيدة السماوية في نفوسهم ولن يؤثر في النفوس الإنسانية شيء كالعقيدة ولن يصلح اخلاق الامم كالدين ومحال ان تقوم القوانين الوضعية أو الفلسفة البشرية أو العلوم الإنسانية مقام العقيدة السماوية التي تهبط على النفس المجدبة فتثمر بها روحا وريحاناً وتحل بالفؤاد الخاوي فتملؤه تقى وإيماناً ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده وهناك وسائل أخرى للتربية والتهذيب العام ومن أهم هذه الوسائل عندنا المساجد والاندية والجمعيات الرياضية ودور الكتب والتاليف والنشر .

ويسرنا ان النهضة الحديثة شملت هذه الوسائل كلها وان كان شمولاً قاصراً إلا أننا نرجو له بالمثابرة والزمن الكمال والوصول الى الغاية المرجوة فأما المساجد فقد كانت الى عهد قريب مهملة فاهتم **فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة** حفظه الله باصلاحها وترميمها كما اهتم بتعيين الوعاظ الرسميين الذين يشملون المراكز والبلاد بوعظهم وارشادهم ولا شك ان أثرهم في تهذيب أخلاق الامة سيكون واضحاً قريبا بحول الله .

واما الاندية فقد انتشرت في انحاء البلاد وكان من آثار وجودها ان اقبل الناس عليها لسماع المحاضرات والمسامرات القيمة التي تلقى فيها في مختلف الشؤون سواء منها الدينية أو الاخلاقية أو الاجتماعية أو الإقتصادية مما يتناول الحياة الفردية وحياة الجماعة من اطرافها الكثيرة .

وتعمل الحكومة في الوقت الحاضر على زيادة رفاهية الشعب وذلك بإيجاد وسائل التسلية والمرح لقضاء أوقات فراغ الافراد فاخذت تنشيء المتنزهات والمسارح وتشجع على تأليف الروايات المفيدة التي تهذب العقول .

واما الرياضة فهي من انجع الوسائل واقواها لتقويم أخلاق الشبان فالتلميذ في المدرسة مثلا إذا أتيحت له فرصة الاندماج في فرقة كرة القدم كان أول

درس يتعلمه ضبط النفس والصبر كما يتعلم من الرياضة الطاعة وحب النظام والتضحية وغير ذلك من الاخلاق الطيبة .

هذا فضلا عما يكسبه المشتغلون بالرياضة من صحة في الجسم يدفع عنهم غائلة المرض ويجعلهم اقدر على القيام بواجباتهم ليكونوا عدة تونس في نهضتها وكفاحها وتبعدهم عن كل ما يفسد صحتهم واخلاقهم وتزرع في قلوبهم المحبة والمودة لبعضهم بعضا وتعلمهم الصدق والإخلاص والامانة .

واما دور الكتب فهي وسيلة ناجعة ومهمة كل الاهمية لشغل اوقات الفراغ وقد اهتمت الدولة بإنشاء المكتبات العامة في المدن والقرى ليغشاها الجمهور للقراءة والاستعارة وتحشد فيها المئات من الكتب لينتفع بها الجمهور بالمجان ، ويلحق بالكتب والمطالعة مسألة الإنتاج الفكري والادبي ونشر التآليف المفيدة ولكن بكل الاسف نصرح باننا في هذه الناحية لا زلنا مقصرين تقصيراً جعلنا في اعين بني جلدتنا جامدين لا نحرك قلماً ولا نشحذ قريحة لاجل ذلك يجب على العلماء والادباء ان يتحركوا لاداء هذا الواجب عليهم الواجب المفروض فرضاً عينياً لا فرض كفاية .

فمن اقدس الواجبات على السادة المفكرين ان يخرجوا عن صمتهم وتقاعسهم ويوجهوا جهودهم لنشر التآليف المفيدة لإيقاظ الوعي القومي والخلقي والديني والاقتصادي في نفوس الجماهير حتى يتجه كل واحد منهم الى ان يجند نفسه لإصلاح مجتمعه بمشاركة الآخرين في الاصلاح بكل ما يستطيع لان من العلائم التي يتخذها العارفون أدلة قاطعة على نهضة الامة من رقادها وجود حركة فكرية فيها تحقق للشعب الرفاهية في القراءة الممتعة والثقافة الممتازة والافكار الناضجة واستثارة العقول في الشعب ليعمل وينتج .

فنحن في وقت تقدمت فيه الامم وترقت فيه الشعوب بحيث ان لم نفق من غفلتنا ونتفق على تحسين حالتنا داستنا الارجل ووطئتنا أقدام الغير من أصحاب الجد والحزم فتسوء حالنا وتصير الى ما لا تحمد عقباه لا قدر الله .

فعلى الادباء والمثقفين أن يعاونوا الدولة في مهمتها وذلك بنشر التآليف المفيدة المؤدية الى سعادة الامة .

يقولون ان الاحسان الى المعوزين وسد حاجة الفقراء والمساكين مما تقضي به واجبات الانسانية وتدعو إليه عواطف الشفقة والحنان ونحن لا ننكر ذلك بل نعترف انه سعي حميد وفعل مشكور ولكن لا بد لنا ان نذكر القوم وقد جاء وقت الإفصاح والبيان ان للفقر الادبي والفقر العقلي نتائج ادعى الى الحزن والأسى من عواقب الفقر المادي لأن تأثيرهما اكثر ضررا واشد وطأة على المجتمع الإنساني لو يفطن العارفون ، فاذا وجب علينا السعي في تخفيف ويلات المسكين واعانة الفقير ومواساة العليل فان التعاون والتعاضد على مقاومة آفات الفقر العقلي لمن اشرف الواجبات واسماها في عرف المخلصين وكل فوز في هذا السبيل يعد نصراً مبيناً للانسانية لأنه يدفع بالامة الى النشاط وتهذيب النفوس وبذلك تترقى الأفكار وترتقي المدارك وتخرج الامة من التخلف الذهني الى نور العقل .

فلنبرهن للامم ولنظهر للعالم اننا أمة مجيدة جديرة بكل حرية واستقلال وهذا ما يرجوه كل مواطن في هذا العهد الجديد عهد النور والحرية ، فنحن نعمل اليوم جادين على ان تحيا أمتنا التونسية حياة الشرف والعزة والكرامة فالواجب علينا أن نقيم صرح هذا الاستقلال على اساس متين من الفضائل الخلقية والآداب الإسلامية حتى تنعم بثمرة هذه الحرية .

فالامة التي تسود فيها الفضائل النفيسة التي تجعل الناس يؤثرون الإخاء والمحبة والصدق والامانة والعطف والبذل والعمل للمصلحة العامة هي الامة الصالحة لأن يورثها الله الأرض والعاقبة للمتقين **« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون »** اي الصالحون لعمارتها .

فاذا كنا نحب وطننا فما علينا الا أن نشمر عن ساعد الجد ونسعى للعمل على رفعته وأن يقدم كل واحد منا لهذا الوطن قليلا من وقته وقليلا من ماله وقليلا من تفكيره ومن هذا القليل من كل فرد يجتمع الكثير وتجتمع القوة لان الإنسان منفرد لا يحس بالقوة التي يحس بها من نفسه اذا اجتمع بأخيه وصاحبه .

ومن قواعد علم الاقتصاد ان ما لا يستطيع الفرد عمله كان من عمل

الجماعات فالفرد مهما كبرت قوتـه وعظمت لا يستطيع أن يقوم بعمـل عظيم وإذا عول على قواه الخصوصية دون غيرها يبقى مهدداً في ماله وراحته ووجوده، ففي عدم التضامن الطبيعي المرض فالانحلال فالعدم والعياذ بالله . اما التضامن الاجتماعي فالداعي إليـه الشعور بالإشتراك في المنفعة العمومية وهو دليل على الارتقاء العقلي والادبي لان الانسان كلمـا ارتقت احساساته الاجتماعية كلما شعر بخطورة ما عليه من الواجبات نحو إخوانه وأبناء عشيرته .

فليكن الاخلاص رائدنا وحب التضامن قائدنا والمنفعة العمومية وجهتنا اننا اذا فعلنا ذلك زالت أوهامنا وارتقت احساساتنا وصلح حالنا ونلنا السعادة بكل معانيها .

انه لا يحق للتونسي في حالتـه الراهنة أن ينتظر الاصلاح والانتشال من وهدة التخلف المحدق به إلا اذا حك جلده بظفره وعمل على تقويم خلله بيده وكان مغرورا والغرور مرض يتولد منه كثيراً من أمراض الحيـاة وهيهات أن تستقيم حياة مع أمراض .

ان ما أصاب الامم الاسلامية في حياتها الراهنة من الخلل وما طرأ عليها من الضعف والوهن يدعـو كل مفكر أن يكتب ويحاضر ويؤلف للبحث عن انجع الوسائل لعلاج هذه الحالة قبل استفحال الأمر وفوات الفرص .

لقد هيأ الله للامة التونسية ان تتخلص من الاستعمار لتقيم معوجها وتقضي على الفساد الذي خلفه المستعمر في ربوعها حتى تعيش هانئة سعيدة فعليها حينئذ ان تقيم هذا الاستقلال على اساس متين من الخلق وتقوى الله ومراقبته فلا غش ولا حقد ولا غدر ولا نزاع ولا شقاق ولكنه الكمال في كل شيء والجمـال في جميع الاعمال والاخوة والائتلاف والمحبة والاتحاد والصدق والإخلاص والامانة كل يقوم بما عهد الله خير قيام ويؤدي عمله بحذق واتقان وبهذه الفضائل تحيـا الامة وتبقى فلا تغلب ولا تقهر ولا تهـان **« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتـوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور »** .

هذا وخدمة للدين والوطن وتمشيا مع نهضة تونس التي سرت في كل شؤون الحياة رأيت لزامــــاً علي أن أساهم في نهضتنا المباركة بوضع كتاب في التربية الاسلامية يستعين به الاساتذة والمعلمون والتلاميذ وسائر أبناء الامة الاسلامية على تهذيب النفوس وتقويم الطبـــاع وقد نهجت فيه نهجاً مناسباً وسلكت فيـــه سبيلا واضحــــاً على الطراز الذي كنت سلكته في التأليف السابق « **السعادة الابدية** » وقد ظفر باقبال عظيم من أمتنا التونسية فقد طبع مرتين في عام واحد مع ما هو معروف من انه كتـــاب صغير متواضـــع وقد بحثت عن الكتب التي ألفت في علم الاخلاق فلم نجد منها سوى كتاب «**تهذيب الاخلاق**» لابن مسكويه و« **ادب الدنيا والدين** » للباروردي والجزء الرابـــع من « **احياء العلوم** » للغزالي وكل هذه الكتب ألفت بلسان إصطلاحي لا يفهمه الا طبقة خاصة من العلمـــــاء واما الكتب الحديثة المتداولة بيننا اليوم فهي غير وافية بغرض أمتنـــا العربية التي شعرت بمبلغ الحاجة الى تهذيب أخلاق ناشئتنا على مبدإ ديني قويم مراعي فيــــه تغييرات وتطورات العمران .

لاجل ذلك استخرت الله وبدأت في جمع هذه الدروس التي كنت القيتها في مسجد جدي **الحاج مصطفى حمزة** بالمهدية الذي أخطب فيه على أمل أن أضعها في كتاب مخصوص ينتفع به سائر أبنـــاء الامة الاسلامية فكنت اذا شرعت في درس اصدره بآية قرآنية او حديث نبوي يفهمه العالم والعامي واجتهد ان يكـــون كل درس تتخلله نكت ظريفة او حكايات طريفة مفيدة في الآداب الاسلامية اقتبستها من سيرة الخلفاء الراشدين وإجلاء المسلمين وجعلتهـــا ملائمة لكل موضوع أطرقه فكان من نتيجة ذلك ان اعجب الناس باسلوب هذه الدروس وأقبلوا عليها إقبـــالاً عظيماً سواء في مسقط رأسي المهدية او في شقيقتنا ليبيا حينما كنت انتدبت اليهـــا بطلب من حكومتها لنقوم بمهمة الوعظ والارشاد هنـــاك وقد كلفتني إدارة الوعظ التي يديرهـــا فضيلة الشيخ **مصطفى التريكي** بأن أخصص يومين في الاسبوع القي فيهمـــا المواعظ في سوق مدينتي الزاوية وغريان زيادة على الدروس التي كلفت بالقائهـــا في مساجد مدينة طرابلس كمسجد الباشا ومسجد سيدي حمودة وكنت

إذا وصلت الى أحد المدينتين واتى الوقت المحدد لإلقاء الدرس رأيت القوم يزاحمون على سمـــاع هذه الدروس وكلهم قد التفوا حولي وتهللت وجوههم بشراً وافعمت نفوسهم فرحاً وسروراً وهذا يدل دلالة واضحة على ان هذه الدروس قد نفذت الى سويداء قلوبهم فاقبلوا عليهـا وتأثروا لسماعهـا والموعظة اذا خرجت من القلب نفذت الى القلب .

وأتذكر ان فضيلة شيخ الجامعة طلب مني القاء محاضرة يكون موضوعها « **التفالي في المهور** » وكان موعد القائها الساعة الخامسة مساء وصادف ان هطلت الامطار في ذلك اليوم بغزارة لم تعهدها مدينة طرابلس من قبل ومكثنا نترقب انقطاع المطر حتى ذهب من الوقت اكثر من ساعة والسماء لا تزال تمطر وظننت ان هذا المطر سيعوق النـاس عن الحضور لسماع المحـاضرة ولكني دهشت حين رأيت القوم يفدون الى الجامعة غير مبالين برداءة الطقس ولا بالبلل الذي يصيبهم واخذت قاعة الجامعة الفسيحة تزدحم بهم وعدد الحاضرين يتزايد حتى لم يبق في المـكان موضع لمستمع .

من هذا يتضح لنـــا حرص اخواني الليبين على سمـاع المحاضرات النافعة وحبهم الشديد للدين ورجاله والإنصات لإرشاداته .

هذا وان نسيت فلا ننسى ابداً ما حييت الحفاوة التي لقيتها من هذا الشعب الطيب الكريم الذي لا زلت احفظ له في قلبي عظيم الود والاخلاص سائلا الله تعالى ان يحفظه من كل سوء ويجمعني به في اسعد الاوقات انـــه سميـع قريب مجيب الدعاء .

هذا وبسبب عملي كمرشد كلفتني لجنة التوعية بالسفر الى بعض البلدان المجاورة لمسقط رأسي المهدية لعقد مجالس في التوعية والتذكير تتناسب والعصر وتليـــق بالجمهورية فلبيت الدعوة وكنت عندما أحل بالبلدة التي ستقام فيها الموعظة ينادي المنادي في البلدة ان فلاناً سيقوم بموعظة فهلموا لاستماعها فيهرعون جميعـاً شباباً ونسـاء كهولاً وشيوخاً وعند بدء القاء الموعظة تراهم كلهم آذانـاً صاغية وقلوبـاً واعية وهذا مما زاد في تشجيعي وعند انتهاء الموعظة تراهم يقولون يا سيدي نحن

نطلب الاستزادة من المواعظ فموعظتك حركت جوارحنا وزادت في إيماننا ومن شدة التأثير وجلت قلوبنا ودمعت عيوننا فبارك الله في انفاسك وانا نرجو منك أن تتعهدنا بالموعظة من حين الى آخر ولا تغفل عنا كما يقطعون العهود على أنفسهم بتنفيذ ما سمعوه مهما لاقوا في سبيل ذلك من نصيحة .

من هذا يتضح لنا ان الامة التونسية أمة طيبة كريمة ومتهيئة لكل خير ومنقادة لكل من يتولى ارشادها وهدايتها وان الدين والحمدلله متأصل في نفوس ابنائنا .

ثم قبل مفارقتي لهم تراهم يلحون علي ان أجمع هذه المواعظ في كتاب رغبة في عموم نفعها وأنا في كل اجتماع أبدي لهم اعذاراً وفي آخر الامر لم أجد من الإجابة فراراً وقلت في نفسي لعل موعظة واحدة من مواعظ هذه الدروس تصل الى قلب غافل عن الله فيستيقظ من غفلته ويسارع الى مرضاة ربه .

لذلك عزمت على طبعها ونشرها هداية للضال وتبصرة للمؤمن وتذكرة للشباب وسعياً للعمل في المنفعة العامة لان الاشخاص زائلة والمنفعة الشخصية لا تدوم والعمل للمصلحة العامة باق لا يفنى وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول: اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث: **صدقة جارية وولد صالح يدعو له بخير وعلم بثه في صدور الرجال**، وهذا ما قصدته من وضع هذا الكتاب ولا غاية لي الا الدعوة الى الله والثواب منه وحده راجياً من سيطلع عليه من اصحاب الفضائل والكمالات ان يسبلوا ذيل الاستار على ما يرونه فيه من الهفوات .

هذا واني ارجو ان اكون قد قمت ببعض ما يجب علي من خدمة وطني مرضاة لحزبي وان اكون قد قدمت ما وفقني الله اليه من إصلاح في عهد فخامة رئيسنا وباعث نهضتنا الحبيب بورقيبة حفظه الله ورعاه فان فخامته قد بعث في أمته روح التنافس في الاصلاح وعمل على سعادة شعبه في جميع الميادين سواء منها العلمية او الادبية او الإقتصادية خصوصاً ما يتعلق منها بتهذيب النفوس ومكارم

الاخلاق ومحاربة التهتك والمجون فجزاه الله عن الفضيلة الجزاء الاوفى وابقاه ذخراً لشعبه مؤيداً منصوراً انه سميع قريب مجيب الدعاء.

وفي الختام أرجو من الله الكريم المنان أن تكون لهذه الدروس الوعظية التأثير الحسن في تهذيب أخلاق الامة وأن يجعلها مقرونة بالقبول والاقبال معدودة عنده من صالح الاعمال وأن ينفع بها جميع المسلمين ويثيبني عليها في جنات النعيم ويجعلها لسان صدق في الآخرين انه سميع قريب مجيب الدعاء.

المؤلف

الجيلاني بن احمد حمزة

المهدية في شهر ربيع الاول سنة 1388

جوان سنة 1968

حيران دلوني على الطريق

إن الانسان عندما يقرأ في تاريخ السلف الصالح رضى الله منهم يتعجب ما يراه منهم من صدق اللهجة وأمانة النصح لا عن طريق الكلام فهذا سهل هين وإنما الأداء الحق لا يكون إلا عن طريق العمل طريق القدوة الحسنة والمثل الصالح وذلك يتخلى في حركاتهم وسكناتهم وإنهم لا يقولون إلا ما يفعلون فاذا رأوا المنكر أنكروه وإذا التقوا مع الجاهل نصحوه وإذا ابتلوا بالظالم وقفوا في وجهه ليردوه وما عداهم فهم عبيد الشهوات ولعلكم تدركون هذا مما سأقصه عليكم أيها الأخوان الكرام من نبئهم وأخبارهم .

قال الفضل بن الربيع : حج هارون الرشيد فبينما أنا نائم اذ سمعت قرع الباب فقلت من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين فقلت له يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم انظر لى رجلا أسأله فقلت هاهنا سفيان بن عيينة فقال امض بنا إليه فأتيناه فقرعت الباب فقال من هذا ؟ فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا وقال يا أمير المؤمنين لو ارسلت الى أتيتك فحادثه ساعة ثم قال له هل عليك دين ؟ قال نعم ، فقال لى يا فضل اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عنى صاحبك شيئا فانظر لى رجلا آخر نسأله فقلت ها هنا

عبد الرزاق فذهبنا اليه فحادثه ساعة ثم قال له : هل عليك دين؟ قال نعم ، فقال اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عنى صاحبك شيئا فانظر لى رجلا آخر فقلت له هـا هنا الفضيـل بن عياض فأتيناه وإذا هو قائم يتلو آيات من كتاب الله ويكررها فقلت له حضر معي أمير المؤمنين فقال لى : مالى ولامير المؤمنين فقلت له سبحان الله أما عليك طاعته فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام تقي من قلب نقي فسلم عليه أمير المؤمنين فرد عليه السلام وقال له فيما جئت يا أمير المؤمنين ؟ قال : انى ابتليت بهذه الخلافة فاشر على فقال له : إذا أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين لك أبا واوسطهم عندك أخا وأصغرهم ولدا فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك وأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهـم ما تكرهه فهل بطانتـك تأمرك بهذا فبكـى هارون الرشيد وقال له : زدني فقال يا أمير المؤمنين ان أسعـد الرعاة عند الله راع سعدت به رعيته فاتـق الله فيما حولك مـن هذه الامة فان الله سائلك عن النقير والقطمير قال تعالى :﴿فوربك لنسألنكم أجمعين عما كانوا يعملون﴾واعلم ان الله سخر الدنيا لسليمان ابن داود عليهما السلام فسخر له الانس والجن والريح تجرى بامره رخاء وسخر له الطير وعلمه منطقها وفهمه حديث النملة ومنحه من جلال الملك ومظاهر النعمة وأسباب الثراء وأبهة الحكم مما جعل ملكة سبأ تحتقر ملكها أمامه وتستصغر نفسها عنده فوالله ما اعدها نعمة كمـا عددتموها ولا حسبهـا كرامة كمـا حسبتموها بل خاف أن تكون استدراجا من الله ومكرا ؟ فقال : هذا من فضل ربى ليبلونى (أأشكر أم أكفر ومن شكر فانمـا يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم) فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم أعانك الله على ما قلدت وجعلك أمانـا للخائف • وعندما سمع هارون الرشيد هذه المواعظ القيمة بكى بكاء شديدا وقال له يا فضيل أحييتنى أحياك الله أحييتنى احياك الله ثم قال له هل عليك دين ؟ قال نعم دين لربى لم يحاسبنى عليه فالويل لى ان سألنى والويل لى ان ناقشنى الحساب والويل لى ان لم يلهمنى حجتى فبكى الرشيد فقال له اعنى دين العباد قال : ان

ربي لم يامرني بهذا وامرني ان أصدق وعده وأطيع امره فقال « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » فقال له الرشيد هذه ألف دينار انفقها على عيالك فقال له سبحان الله انا ادلك على الخير وتكافئني بمثل هذا وامتنع عن قبولها وعندما انصرفنا قال لى الرشيد اذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين اليوم •

يتبين لنا من هذه القصة ان السلف الصالح من المسلمين رضى الله عنهم كانوا رجالا قد صدقوا ما عاهدوا الله عليه لذلك دان لهم المشرقان ورفرفت رايه الاسلام في ربوع الدنيا فبمثل هذا الورع وهذه التقوى التي صدرت من هذا العالم الجليل اعتزت الامة الاسلامية وفاقت غيرها من الأمم لانها كانت تسترشد بعلمائها العاملين الذين كانوا لا يبغون وراء وعظهم المال ولا الجاه ولا السلطان ونحن اليوم ما اشد حاجتنا الى مثل هذا العالم ينصحنا برفق وحكمة ويكون أجره على الله الذى يدعو اليه « **ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين** »

الدين والأخلاق

لقد كان من فضل الله على هذه الأمة أن اصطفى لها قائـدا يقظا وراعيا حكيما أمينا قادها الى النصر وحررها من الـذل والاستعباد والبغى والفساد ولم يكتف المجاهد الاكبر الحبيـب بورقيبة بما حققه للبلاد من نهضة شاملة سرت فى جميع المرافق بالتجديد والتعمير ولم يقتصر على هذه النهضة التى بلغـت شأوا كبيرا من الازدهار تنافس به أمـم الأرض هيبة وعـزة وكرامة بل آمن بأن هذه النهضـة لا تتم ولا يكتب لهـا النصر والخلود إلا بالتمسك بالدين وبث العقيدة فى نفـوس الشباب لأجل هذا الأمر الخطير وخوفا من انهيار هذه النهضة المباركـة عزم فخامته أن يتدارك الأمر قبل استحفاله فأعلن فى خطابـه الذهبى الذى استمعنا اليه من أعلى منبر جامع عبيد الله المهدى عند تدشينه فى تلك الليلة المشرقة ليلة المولد النبوى الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليـم بتاريخ 12 ربيـع الأول سنة 1384 الموافق 21 جويلية 1964 انه أوصى كاتب الدولة للتربية القومية بالعمل على تحوير برامج التعليم الدينى مـع الزيادة فى حصصه وأن يجعله مادة أساسية يتوقف عليها نجاح الطالب أن أقبل عليها ورسوبه أن أهملها كما حرض الاساتذة والتلاميذ على اقامة الصلاة لما فيها من الاثر الطيب فى النفوس فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر ووعد فى خطابه أن يختار جماعة

يتأثرون بارائهم ينشرون محاسن الدين في كل مكان من أرض

وقد استبشرت الأمة بهذا الخطاب وفرحت به مما جعل كل من سمعه أو قراه يلهج لسانه بذكر هذا الرئيس الجليل ويثني على خدماته الصادقة للامة وحق لنا أن نسر ونفرح بهذه المشاريع الجديدة لان جعل مادة الدين مادة أساسية في جميع مراحل التعليم تجعل التلميذ يعتني بهذة المادة ويواظب عليها ويتابع حفظ بعض الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وبذلك يكون قد اخذ نصيبه الوافر من الدين فيصبح متينا فى أخلاقه عزيزا في نفسه قادرا على القيام بواجبه نحو خالقه ووطنه ونفسه •

كما أعتقد أن هذه الجماعة للتوعية الدينية التي وعد الرئيس الجليل بانتخابها سيكون لها أعظم الاثر في نفوس الامة فتتحسن أخلاقها وتتهذب أرواحها وكلما نجحت هذه اللجان في مهمتها صلحت الأمة وصلاح الأمة يساعد الحكومة في مهمتها ويوفر عليها جل عنائها لان الامة التي يوجد فيها من يويد الفضيلة ويحارب الرذيلة فلا يسمحون لمجرم أن يجاهر بجريمته ولا يرضون لفاجر أن ينشر بينهم عصيانه لا بد أن تعيش عيشة مرضية وتحيا حياة سعيدة في الدنيا والاخرة أما الامة التي تفشو فيها المنكرات وتنتشر فيها المعاصي وهي راضية بها مطمئنة اليها لا تحاربها بقول ولا بفعل لا بد أن يمسها عقاب الله تعالى وتكون من الهالكين ـ قال الله تعالى : « **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أن القوم إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بعقاب» وورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فكان بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو

أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا

فهذا الحديث الشريف يفسر لنا ان الرسول صلى الله عليه وسلم نبهنا في هذه الصورة التي رسمها في هذا الحديث صورة السفينه التي تمخر عباب الماء وفيها ركاب كثيرون اراد بعضهم ان يمارس الاثم والشرور بدعوى أن له الحرية في فعل ما يريد وذلك بان يخرق في السفينة خرقا فاذا ترك وشأنه غرقت السفينة وغرقوا جميعا وان منعوه نجا ونجوا جميعا لانه ليس من الحرية ان نترك السارق يسرق وان نترك الفاسق يفسق والملحد يفتك بعقائد الناس بل يجب أن ننهاه عن المنكر ونضرب على يديه فاذا ابى واسترسل في شهواته فمن الواجب أن ننهى امره الى الحاكم حتى يرتدع ويرجع عن غيه .

فالحرية الصحيحة هي ان تستمتع بحقك من غير أن تعتدى على حقوق الناس ولكن الكمال المطلق لله وحده ولكل انسان خصال من الخير وغرائز من الشر ولكن النفس تميل في الغالب الى جانب الشر فاذا تركت صديقك وخطأه وأقررته على ما فيه من عيب وعاملك هو بمثل ذلك كنتما اقرب الى الشر منكما الى الخير اما اذا تواصيتما بالمعروف وتناهيتما عن المنكر فانتما الى الخير والكمال ادنى من الشر والنقص ابعد وهذه أهم مزايا الاخوة والمحبة ويصدق هذا ما روى ان عائشة رضى الله عنها سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : انهلك وفينا الصالحون فقال عليه السلام : « نعم اذا كثر الخبث » يعنى اذا كثرت المعاصي والذنوب قال تعالى : « **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب** » .

هل الإسلام دين تأخر وجمود

يزعم البعض من الاوربين الذين لا يعرفون من الاسلام إلا اسمه يرون المسلمين أصبحت حالتهم في انحطاط وتأخر فيظنون أن السبب في تلك هو أن السبب في ذلك هو أن الاسلام دين تأخر وجمود ويزعمون أنه لا صلاح لأهله إلا باتخاذ النصرانية دينا وما علموا أن تأخر المسلمين لا ذنب فيه للاسلام وإنما الذنب فيه للاسلام وإنما الذنب فقد تركوا تعاليمه وهجروا فضائله وتواكلوا وتخاذلوا وتفرقوا فحل بهم الضعف والانحلال وضربت عليهم الذلة والمسكنة « **والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** » .

كما يزعمون أن دين محمد كان قائما على تعاليم روحانية لا شأن لها بالحياة الاجتماعية وتنظيمها . وهذا أيضا زعم باطل لان من نظر الى العالم الانساني وقت شروق الاسلام يعرف أنه كان في حالة مضطربة والفوضى منتشرة في كافة مرافق الحياة الأدبية والاخلاقية والناس يتطلمون الى مصلح يدير شؤونهم ويرعى زمامهم ويصلح أمرهم ــ فظهر محمد صلى الله عليه وسلم وحيدا كسفينة في بحر هائج تتجاذبها الرياح كما اقتربت من الشاطىء فأعمل الفكر والروية ليقود السفينة وسط الأمواج المتلاطمة والبحر المضطرب وكاد يستولى عليه اليأس لولا فضل الله الذى هداه الى الطريق الاقوم وعرفه أن يدعو الى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة فقام يدعو الناس إلى عبادة ربهم وأرشدهم أن يسرحوا عقولهم وينظروا في ملكوت السموات والارض ليعلموا فيهتدوا ويزداد ايمانهم كما طلب منهم ان لا يكونوا كالآلة الصماء في يد الأهواء تفعل بهم ما تشاء ثم اطلق لهم الحرية في القول والعمل ولم يمنعهم إلا من الشرك بالله والاضرار بالناس ثم علمهم مزايا الصدق والاخلاص والامانة والبر بالناس والعفو عند المقدرة والتعاون والاتحاد ورعاية الجوار والاستئذان عند الدخول والوفاء بالوعود واداء الحقوق

والبر بالعهود والتواصي بالحق والصبر والرفق واحترام لولدين وصلة الارحام وغير ذلك من الاخلاق الفاضلة ولهذا يعبر عن الدين الاسلامي بانه دين علم وهداية ونظام وعمل يصلح لكل عصر وجيل بما اشتمل عليه من الأحكام والوصايا التى في غاية الوضوح والجلاء بحيث يمكن لكل مطلع عليه أن يفهم تعاليمه بدون وسيط إذ هو الدين الذى يحث على التدبر والاجتهاد والرأى ولا أدل على ذلك من أن النبيء صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل عندما بعثه الى اليمن : بم تقضى يا يا معاذ ؟ قال بكتاب الله قال فان لم تجد قال بسنة رسول الله قال فان لم تجد قال فبرأيي فاقره الرسول على ذلك ودعا له بالتوفيق .

وعلى هذا جرى الصحابة والتابعون ومن بعدهم من الأئمة المجتهدين حتى كان عصر الانحطاط وانصرف الناس عن الدين كمقائد مقرونة بالأعمال وروحانية مقرونة بالبحث النظرى وتمسكوا بتقاليد جامدة وتعصب فريق منهم تعصبا أعمى لهذه التقاليد ببلاهة وجمود لا يصدقهما العقل وحمي وطيس الأراء والمذاهب فيهم حتى صاروا يتطاحنون ويتذابحون وتنهمر بينهم الدماء . ولقد روى أن أهل قرية منهم من الشوافعة قد آفنوا أهل قرية أخرى عن بكرة أبيهم لا لأنهم من عبدة الاوثان بل لانهم من الاحناف .

كما روى عن قرية من هؤلاء الأحناف أقوال لاذعة بالنسبة لاخوانهم الشوافعة منها أن من ارتحل الى مذهب الشافعي يعزر كما أولع فريق آخر بالجدل العقيم والمناظرات الفارغة فجمدت بهم الشريعة كما جمد غيرها من سائر العلوم والآداب حتى تقلص ظلها ودالت كل ممالك الاسلام وانتقلت السلطة الى غير العرب من الفرس والتتر والمماليك والأتراك وذلك بعد أن انغمس أولئك في بحر من الترف والنعيم وتاهوا في خضم من

المتع واللذات تحمر لذكراها وجنة التاريخ أسى وتدمع لها عينة لوعة وحسرة .

وكان طبيعيا أن تنحط الحياة الفكرية انحطاطا لا مثيل له في ربوع أرقى الأمم المتمدنة وفي الأقطار الاروبية والاميركية المدنية التي زهت في بغداد والأندلس وأزدهرت في دمشق .

ومن يبحث بعين الانصاف والحق في هذه المدنيات القائمة الآن في ربوع أرقى الأمم المتمدنة وفي الأقطار الاروبية والاميركية يجد ان هذه المدنيات كلها مدينة لمدينة الاسلام بما اقتبسته من حضارة المسلمين في الأندلس تلك الحضارة التي بلغت حد الكمال وتسربت الى جميع الممالك المتمدنة التي استولت عليها من خزائن الكتب النفسية وهي لا حصر لها في مختلف العلوم والفنون .

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما
في الكرى أو خلسة المختلس

نعم جادك الغيث يا زمان الحضارة في الأندلس فقد كنت المثل الأعلى في الحضارة والرقي وأصبحت اليوم مصدر ألم ومبعث هم لمن تعنيهم هذه الذكرى .

وقد عرف العرب الرياضيات فأخترعوا علم الجبر وطبقوه في علم الهندسة وبرعوا في علم الفلك فأقاموا المراصد في دمشق وسمرقند وطليطلة وقرطبة واول مرصد فلكي عرفته أوروبا ورسم الاقاليم عليها رسما بارزا يبين ما بها من انخفاض لتوضيح ما بها بل عمدوا الى صنع الكرات الارضية المجسمة

ولم يكتف علماء الجغرافية بالرسوم والمصورات في كتبهم من هؤلاء البيروني وابن بطوطة وابن جبير الاندلسي .

في التنقل بين الاقاليم المختلفة لمشاهــدة آثار الطبيعة فيهــا فيها وقد تملكت روح الكشف بعض رجالهم فلم يجدوا لــذة إلا اعتمدوا في كتابتهم على الرحلة في البلاد وتدوين مشاهداتهم

ولم تكن مؤلفاتهم أثرا من آثار الخيال أو نقلا من الكتب وانما الحديثة تسهيلا للقارئ ومساعدة له على فهم ما يصنفون •
القولى بل زودوا كتبهم بالرسوم والخطوط على نظام الكتــب وضمنوا كل هذا كتبا واسعة • والمهم أنهم لم يكتفوا بالوصف السكان وعاداتهم واخلاقهم ووصفوا الطرق البرية والبحريــة وصفوا الأقاليم الطبيعية وأثرها في حياة السكان كما وصفوا

أما براعتهم في العلوم الجغرافية فحدث عنها ولا حرج فقد الأوقات وأول من اتقنوا الساعة الشمسية •
بلادهم مصانعه وهم أول من استعمل الساعة الدقاقة لمعرفــة الرقوق وهي الجلود كانت العرب يستعملون الورق وتزدهر في السهل الانفجار وفي الوقت الذى كانت فيه أروبا تكتب علــى الكيماونة على التجربة • وهم الذين آخترعوا بارود المدافــع التجربة مع أنك تجد مئات من علماء العرب الذين قامت مباحثهم « غوستاف لوبون » انك لا تجد عالما يونانيا أستند في مباحث مناجم الكبريت والنحاس والحديد والذهب والكيمياء وقد قال : كان مرصد شبيلية كما عرفوا الفيزياء والميكانيك واستعملــوا وارتفاع •

ولنا ان نفتخر بأن أول كرة أرضية من هذا النوع هي التــي صنعها العرب ولا تزال باقيــة الى الآن بمتحــف (تــورينو) بايطاليا وقد صنعها أبو عبد الله الادريسي في القرن الثاني عشر الميلادي وهي مصنوعة من الفضــة الخالصة ووزنهــا 400 رطــل •

الى هنا نكتفي بهذا القدر وموعدنا ان شاء الله في الدرس المقبل •

هل الإسلام دين تأخر وجمود

حدثناكم في درسنا السابق أن المسلمين في عصورهم الزاهية قد فهموا روح الدين الإسلامي ورغبته في التزود من كل علم يفيد الإنسان فأقبلوا على هذه العلوم المدنية يحققون ما كان موجوداً منها ويزيدون عليها ويبتكرون علوماً وفنوناً أخرى لا تزال إلى الآن موضع إعجاب الباحثين .

وحين كانت النهضة العلمية في بلاد الإسلام في إبان آزدهارها وقوتها كانت الأمم الأوربية لا تزال تتخبط في ظلام القرون الوسطى . فلما أذن الله للغرب أن يستيقظ وجد المسلمين هم القابضون على أزمة السيادة في العالم فأكب على علومهم يدرسها طلابه في بغداد وقرطبة ودمشق ومصر فكان هذا الإقبال من أكبر العوامل في يقظة أوربا التي اتصلت بنهضتها الحديثة .

أول مدرسة للطب في اوربا

عنيت أمم الإفرنج بالبعوث العلمية عناية كبرى فكانوا يرسلون أبناءهم إلى الاندلس وبغداد ودمشق ليأخذوا عن أهلها صنوف المعارف وأنواع العلوم كما نفعل نحن اليوم ويرجعوا إلى بلادهم بشعاع من هذا النور الفياض الذي كان يسطع في البلاد الاسلامية .

وقد حدث التاريخ أن أحد أولئك المبعوثين وهو المسمى « **قسنطين** » الإيطالي قد مكث في بلاد المسلمين 29 سنة متنقلا في مدارس الطب بين مصر وسوريا والعراق ثم رجع إلى إيطاليا وأنشأ بساعدة بعض العظماء هناك أول

مدرسة للطب في أوربا وهي مدرسة « سلرينو » على طريق المدارس الإسلامية وعن هـذه المدرسة انتشرت مدارس الطب في أوربا .

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن مؤلفات العرب في الطب هي التي ظلت مصدرا ومرجعا تعتمد عليها هذه المدارس الأوربية في تدريسهـا نحو ستة قرون ومن بين هذه المؤلفات مؤلفات الرئيس إبن سينـا الذي نقلت كتبه إلى أكثر لغات العالم وظلت مرجعاً عاماً لهم وأساساً للمباحث الطبية في جامعات فرنسا وإيطاليـا ومن أطباء العرب البارزين « **ابو القاسم القرطبي** » أشهـر جراحي العرب الذي اخترع كثيراً من آلات الجراحة ورسمها في كتبـه والذي قال فيه العالم الطبيعي الكبير « **هالر** » كانت كتب **ابي القاسم القرطبي** المصدر العام الذي استقى منه جميـع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر .

ونبـغ في العرب أمثال **الامام الرازي** الذي بحث في الحميات ذات البثور كالحصبة والجدري وأمراض الأطفال وأنشأ الحدائق وزرع فيهـا من النباتات أندرها واستخدم الكثير منها في أغراض طبية كما عرف العرب علم الوقاية فأنشأوا المصحات وأقاموا المارستـانـات وبرعوا في فن الصيدلة وتحضير العقاقير ولم يهملوا الفنون فازدهرت الموسيقى في أيامهم . وحسبكم مـا كتبه **أبو الفرج الاصبهاني** في موسوعته الكبرى في صناعة الغنـاء فخرجت في أكثر من عشرين جزءاً وأن العرب هم مخترعوا آلة القانون وأن الفرقـة الموسيقية كانت تزيد على مائة نفس وكانت تتقدم بعض الخلفـاء في موكب رسمي عند خروجهم لصلاة الجمعة خلف فرق المشاة والفرسان التي كانت تسير في طليعة المواكب . وروى الولاة أن **الفارابي** حضر مجلس غناء لسيف الدولـة ولم يكن أحد من الحضور يعرفه فعـاب المغنين فسأله سيف الدولة هل يحسن الغنـاء ؟ ففتح خريطة واستخرج منها آلة وركبها ثم لعب بها فأضحك وأبهج ثم فكها وركبها تركيبـا آخر وضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضرباً آخر فنام كل من كان في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج .

كما ازدهر في أيامهم فن العمارة فشيدوا القصور الفخمـة وخططوا حولهـا

الحدائق ونسقو البحيرات والمتنزهات وقام النجارون يبتكرون الرسوم المدهشة لمناظر الأبواب والنوافذ والذي يزور الأندلس يبهره ما يراه في قرطبة وشبيلية وقصر الحمراء من مناظر أنيقة تخلب اللب وتصرف التفكير في مبلغ زخرفة تلك القصور .

وقصارى القول أن العالم لم يشهد قبل المسلمين أمة مثلهم أخلصت في طلب العلم وبلغت الغايات التي بلغوها وكشفت الحقائق التي كشفوها وأعظم شاهد على ذلك هذه الإنتصارات العلمية التي سجلها الإسلام في بداية عهده وهي خير دليل على أن الإسلام قد أوجد من العرب أمة تعرف رسالتها وتؤدي واجبها الذي ينحصر في كلمة واحدة هي « الدعوة إلى الله والنهوض بالعلم » فمن ينكر ذلك ويقول « إن الإسلام دين تأخر وجمود » فهو في عدد الجمادات التي لا تحس ولا تشعر وتحسبه إنساناً وما هو بإنسان أن هو كالأنعام بل أضل سبيلا . بالله أي دين سماوي يخاطب الإنسان بلسان العقل ويقول له إني لا أقبل منك أن تؤمن بالله إيماناً تقليديا أعمى بل أريد أن تؤمن إيماناً بصيراً كل الابصار وفي ذلك يقول الله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » ففي هذه الآية دعوة صريحة مطلقة للبحث وطلب العلم وعدم السير في موكب الجهل ويقول : « قل أنظروا ماذا في السموات والأرض » وطبيعي أن النظر المطلوب هنا إنما هو النظر العلمي المقرون بالسمو الخلقي ولكن هذا الشيء يختلف عما يصنعه طلاب العلم اليوم فهؤلاء لا يطلبون العلم بحقائق الدين ولا يستكملون مبادىء التعليم الأساسية التي تؤهلهم لفهم الدين والإيمان بالله عز وجل بل يقتحمون الغيبيات ويفتون في معظم المعظلات قبل أن يحفظوا الإبجاديات .

فعلى المسلمين أن يعرفوا أنفسهم ويذكروا ماضيهم ولا ينسوا الأمانة التي حملوها ليكونوا أئمة الناس في العلم النافع والعمل الصالح ولا يكونوا كما هم اليوم عالة على الغرب يأخذون ولا يعطون ناسين أن ما هم فيه تراثنا وبضاعتنا إن شاء الله ثم شئنا ردت إلينا . هذه كلمة مجملة تفصيلها يستغرق كتباً أجبت بها عن السؤال الذي في طالع هذا الدرس وهو : « هل الإسلام دين تأخر وجمود أم هو دين العقل الصحيح ؟ » .

فأرجو منكم أيها الشبان النجباء أن تعيروها أذناً صاغية وقلوباً واعية وتتقوا الله في دينكم ولا تصغوا لظلالات فرقة ظهرت بينكم تريد أن تظلكم عن سبيل الله باسم العلم العصري والمدنية الكاذبة .

وشمروا عن ساعد الجد للبحث عن أسباب الذل بعد العزة والإنحطاط بعد الرفعة حتى إذا اهتديتم إلى الأسباب سرتم بقدم ثابتة في سبيل الخلاص والفلاح وكل من سار على الدرب وصل .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » والله ولي الهداية والتوفيق .

لابد للإنسان من دين

نشأ الناس في هذا العالم فكان لهم دين وكان لهم إعتقاد راسخ في أن للعالم ذاتاً مقدسة عالية فوق ما يتصوره العقل ليس لصفاتها حد محدود ولا نعت موجود. ولم يكن في وسعهم أن يفروا من هذا الإعتقاد الذي حكمت به عقولهم ومباحثهم وكيف لا يعتقدون ولا يقرون بأن لهذا العالم البديع المتقن صانعاً لا تحيط به العقول والأفهام وهم يرون بأبصارهم أعمالا تجري فيه ليس لمخلوق فيها أثر ولا يد فقد رأوا سموات بغير عمد وقمراً منيراً ليس لأحد من سكان الأرض قدرة عليهما «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون» وكذلك وجدوا هواء لا يحصى مقداره وماء ينزل من السماء بقدر معلوم وفي كل منهما حياة الإنسان فلا حياة على الإطلاق بلا هواء ولا ماء وقد أحسوا برحمة الله وفضله على الناس جميعا لما وجدوا أن كمية هذين العنصرين الضروريين لا يخشى عليها النفاد وقد لطف الله تعالى بعباده فأرسل إلى سكان الأرض أفرادا من البشر اصطفاهم ليخلصوا الناس مما وقعوا فيه من شرك وينقذوهم مما تورطوا فيه من شر يبلغون إليهم رسالات ربهم ويهدونهم إلى الصراط المستقيم. فكان من هؤلاء المبعوثين موسى وعيسى عليهما السلام وبعدهما بعث محمد ﷺ فكان خاتم النبيين وآخرهم وقد جاء محمد والناس ملل متفرقة وطوائف مشتتة وأوامر الله قد حرفت وبدلت وطبائع البشر وعقولها قد تغيرت من أجل ذلك أنزل الله عليه كتاباً عربياً بلسان قومه الذين بعث فيهم ليهتدوا به ويفهموه ويبلغوه فكان لزاماً على كل ذي عقل سليم أن يتبع المتأخر ويعمل بما جاء به. ورحم الله موسى وعيسى فكلاهما بشر بنبي آخر الزمان قال الله تعالى: «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول

مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذالكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

ألا إن الله قد شهد لمحمد بالرسالة وقد سطرت هذة الشهادة الربانية في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد «والله خير الشاهدين « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » ومحمد لم يقل عن نفسه إنه نبي الله الوحيد بل قال أيضاً بنبوة **موسى والمسيح** .

وكان العرب قبل ظهور الإسلام وثنيين يعبدون آلهة متعددة وكانت أعتقداتهم الدينية مملوءة بالخرافات وديانتهم مبنية على القوة والإنتقام فقد عبدوا أرباباً وبالغوا في التقرب إليها وقدموا لهـا الضحايا المختلفة والذبائح البشرية من أسرى الحرب ومن أعدائهم أما **محمد** فقام يدعو أمته إلى الدين الذي رآه أنه الحق وقد دفعه عامل داخلي إلى اعتقاد أن الله أصطفاه بإرشاد أمته وعهد إليه في هدم ديانتهم الكاذبة وإنارة أبصـارهم بنور الحق فأخذ ينادي باسم الواحد الأحد منشيء الكـائنات وخالق الأرض والسموات وسوى بين جميع العرب أمام الله وحرم الإنتقام ومنع سفك الدماء . وهذه الأعمال التي قام بها **محمد** تدل على أنه حقيقة من المصلحين العظام وأن له في نفسه قوة فوق قوة البشر وكان أقاربه يحبونه محبة شديدة وكان المخالفون له في العقيدة يحترمونه إحتراماً عظيماً لما هو عليه من المبادىء القويمة والأخلاق الكريمة و شرف النفس والعفة والنزاهة وكان ذا فكر نير وبصيرة وقادة واشتهر بدماثة الأخلاق ولين العريكة والتواضع وحسن المعاملة . وكانت كل عواطفه تدفعه إلى إخراج أمته من دياجير الجهل وظلمات الخرافات فأعلم قومه أن مصير الإنسان النهائي متوقف على الإنسان نفسه فإذا سار حسب شريعة الله وأتم أوامره واجتنب نواهيه يسعد في الحياة الأخرى ويؤجر أجراً حسناً وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه فإنه يعاقب في الحياة الأخرى وهذا هو الخسران المبين . قال تعالى : « وقل الحق من ربكم » أي جاء الحق من ربكم «فمن شاء فاليؤمن ومن شاء فاليكفر

إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً ».

ومن الأشياء التي جاء بها الإسلام وسجلها التاريخ فلا يستطيع أحد في الشرق والغرب أن ينكرها إن الدعوة إلى الحق لا تكون إلا بالحجة والبرهان **« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ».**

وقد أبطل الإسلام عادة من أقبح العادات البشرية وهي عبادة الإنسان أخاه في الإنسانية وتسخير الناس بعضهم بعضا وقرر العبودية لله وحده وبين أنه لا طاعة لمخلوق على مخلوق فيما وراء الشريعة والقانون ففتح للناس باباً كان مغلقاً عند كل الأمم وعلم الأفراد والجماعات الإخاء والمساواة وعرفهم أن كل من على ظهر الأرض عبيد لله حتى الأنبياء المقربون « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدالله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا » والإشتراك في العبودية دليل على التساوي وسبب يدعو إلى الرحمة والإخاء وكفى **« يا ايها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وان تكفروا فان لله ما في السموات والارض وكان الله عليماً حكيماً ».**

الدين الإسلامي أصلح لأهل الأرض

قد قامت الأدلة والبراهين الواضحة في جميع أرجاء العالم على أن التشريع الإسلامي والهدى الذي جاء به محمد ﷺ خير للناس جميعاً من كل ما سواه والبق بالمجموعة البشرية التي انتقلت من طور البداوة والجهالة إلى طور من العلم والمدنية وهو كذلك أصلح للحياة الإنسانية وأكفل لسعادتها اللائقة بها في هذا العالم.

ولعل من الأدلة التي قامت في هذا الجيل الحاضر وما عناه الناس من ضروب المعاملات في الحرب الكبرى التي أكلت الأخضر واليابس وكادت تجعل الأرض حصيداً لا خير فيها فقد أتت دول أوروبا أو دول الحضارة كما تسمي نفسها من الظلم والعدوان ما لم يصدر مثله من الوحوش الضارية حين هياجها والتحرش بها وما لم يسمع في التاريخ بمثله في أي عصر من العصور لقد كاد بعض هذه الدول لبعض وقسا وظلم وجار وبقر البطون وسمل العيون وفقأها وقرح الوجنات وألقى القنابل السامة وغير ذلك من الفضائع التي تقشعر منها الأبدان.

قد وقع هذا ووقع ما هو أعظم منه فتكاً وتدميراً من تلك الدول التي يدين كل منهما بالمسيحية ولم يكن لدياناتهم ومعتقداتهم من أثر يمنع من ذلك الضر أو يخفف منه فلو أن أحداً قايس بين ما حدث في هذه الحرب المسيحية وبين ما حدث من المسلمين الأول في حربهم الإسلامية لرأى أن الحرب الإسلامية وحروب الصحابة تجلت فيها رعاية العدل والحق والورع وعمت فيها الرحمة سراً وجهراً.

هذه دعوة صادقة يشهد بها المنصفون من الأحباب والأعداء وإنه ليكفي

في وصف تلك الحرب الشريفة التي قام بها الصحابة ما جاء في الإثر الذي رواه الإمام احمد وفيها يقول: اخرجوا باسم الله تقاتلوا في سبيل الله فلا تقتلوا شيخا ولا طفـــلا صغيراً ولا إمرأة ولا تخونوا ولا تقتلوا في الولدان ولا اصحاب الصوامع وروى الإمام مالك في الموطا ان ابابكر الصديق رضي الله عنه قـال لامير من امراء جيوشه لا تقتل إمرأة ولا صبيـــا ولا كبيراً ولا تقطع شجراً مثمراً ولا بعيراً الا لمالكه اي لا تقطع قوائمها وكان الجيش الإسلامي يدخل في احشاء الممالك المخالفة له في الدين فيجعل أكبر همه اطمئنان الناس على دينهم ومعابدهم متعهداً لهم بحمايتهم والدفـــاع عن ديارهم يطلق لهم تمام الحرية في عبادتهم كل ذلك عملاً بتعاليم الاسلام وجرياً على سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ومما يدل على ان الاسلام يهدى للتي هي أقوم وان تعليمه هو الذي تصلح به الإنسانية ما رواه التاريخ الصحيح أن عمر بن عبد العزيز شكا اليه بعض عماله قلة دخل بيت المال بمصر واستاذنه في زيادة الضرائب على المسلمين فكتب اليه عمر يقول ان محمداً ﷺ بعث هادياً ولم يبعث جابيا وكتب اليه عدي بن ارطا: أما بعد اصلح الله امير المؤمنين فإن قبلي اناسا من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالاً عظيما لست اقدر على استخراجه من ايديهم الا أن امسهم بشيء من العذاب فإن راى امير المؤمنين فإن ياذن لي في ذلك فعلت والسلام. فأجاب بقوله: امـا بعد فالعجب كل العجب من استئذانك اي في عذاب بشر كاني لك جنة من عذاب الله وكان رضائي عنك قد ينجيك من سخط الله عز وجل فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذه بما قامت عليه البينة ومن اقر لك بشي، فخذه بما اقربه ومن انكر فاستحلفه بالله وخل سبيله وايم الله لان يلقوا الله عز وجل بخياناتهم احب الي من ان القى الله بدمائهم والسلام.

وقاعدة الإسلام في الأحكام معروفة لمن عرف الإسلام فهي مبنية على العدل والمساواة في الحقوق بين المؤمن والكافر والفاجر والحبيب والبغيض قال الله تعالى **«ولا يجرمنكم شنان قوم على الا تعدلوا»** اي لا تحملنكم عداوتكم لمن تكرهونهم على ان تتجاوزوا العدل فتظلموا **«اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله**

ان الله خبير بما تعلمون » فالإسلام وانعم به من دين يقول الحكم للحق لا للقوة والمدنية الاروبية تقول الحكم للقوة ولاللحق .

اذا اتضح هذا لم يسع ممن اتضح له الا ان يحكم بان الدين الإسلامي هو الدين الذي يصلح لسكان الارض فقد بشرت به جميع الانبيـاء قومهـا واتبـاعها لانهم وجدوا فيه لطفاً ورحمة ومحبة وخيراً ونعمة فهو دين لايفرق بين الاهل والعشيرة ولا بين ابنـاء الوطن الواحد بل ان الرجل ليستطيع ان يكون مسلمـاً وهو في اسرة كل افرادها مخـالفون لـه في المعتقد والمذهب ولا تحمله تلك المخـالفة على اذاهم بل يلزمه الدين بالاحسـان اليهم مادامو ا مراعين نحوه شرائط لمحبة وصدق النية . قال الله تعالى : **« ولو شـاء ربك لجعل النـاس آلة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم »** .

وقال : **« ولو شـاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »** انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء وقد ترك لنا رسول الله ﷺ واصحابه اعظم اسوة يجب ان نتناسى بها في معاملة مخالفي معتقداتنا فانه ﷺ كان يحضر ولائمهم ويغشى مجالسهم ويشيع جنائزهم ويعزيهم في مصابهم ويعاملهم بكل ما يامر به الدين القويم من الإجلال والتعظيم فهل هناك في اي دين من الاديان فلسفة تهدى الى احترام النوع البشري بمثل ما يهدي به الإسلام ويامر به ؟

اذا علمنا هذا من ان الإسلام دين المدنية والحضارة وانه هو الدين الجدير بالإتباع دون سواه فلماذا نرى ابناءه متدابرين متنافرين متقاطعين وقد صـاروا في هذه الايام شيعاً واحزاباً كما كانت الحال في عصور التاخر والضعف كل منهم يشكو الزمان ويتبرم به او يعتب عليه والله يعلم انه لا لوم على الزمان ولا عتاب وانما اللوم يتوجه الى اهل الزمـان لانهم يجنون على انفسهم بايديهم وهذا هو فعل الحمقى وعمل الغافلين كما قيل :

نعيب زمـانـنـا والعيب فينـا ... ومـا لزمـانـنـا عيب سوانـا
نشكو الزمان ومـا اتى بجنـاية ... ولو استطـاع تكلمـاً لشكانـا

ولو ان منصفاً بحث في احوالنا معشر المسلمين بصدق واخلاص لرأى دهورة لا نظير لها في العالم انها دهورة وتاخر في كل شيء فالمعروف صـــار منكراً وكان المنكر صار معروفاً وصارت السنة بدعة والبدعة سنة و شربت قلوب المسلمين حب الحياة وصار لهم شغف بالدرهم والدينار لانهما يوصلان الى شهوات الدنيا ولم يقدروا الحيـــاة قدرها ولم يعملوا ما لا بد لهم من عملة ليستطيعوا البقاء فيهـا ولذلك تراهم دون امم الغرب علماً وادباً وحضارة ومدنية كما انهم لا يقاسون بهم في الاستعداد لطوارىء الحيـــاة في هذا الزمان والدليل على ذلك ان تلك الامم لم تترك وسيلة من وسائـــل القوة الا احرزتها ونافست فيها ولم ترض بالوسائل التي استخدمها الانســان في القرون الغابرة بل فكرت ثم بحثت حتى اهتدت الى ابراز اختراعات ما كانت تخطر ببال بشر في الدهور السابقة فصار في استطاعة الانسان ان يدك الجبال وان يمطر الاعداء وابلا من المحرقات والمهالك وان يبعث على من يشـاء عذابـــاً من فوقهم ومن تحت ارجلهم وهو غير معرض نفسه لخطر الاسر والفتك .

إنك لا تكاد تجد أمة من امم الغرب وفي طليعتها دولة الصهاينة الا مستعدة كل الإستعداد لخوض معـــامع الحرب التي لا تبقي ولا تذر دفاعاً عن نفسها أو إرهاباً لغيرها لتنال ما تبتغي من حطام الدنيـا ولتشبع نهمها فهل تستطيع أن تحدثني عن أي دولة إسلامية على ظهر الارض حاكت هؤلاء الأمم في إتخاذ العدة لطوارىء الدهر ولصد غارات العدو .

إننا جميعاً نعلم أن الإنسان في هذا الزمان قد صار شراً واذى يخشى بأسه أكثر مما يخشى بأس الضواري والحيوانـات المفترسة فمن لا يحسب له حسابه خيف عليه ان يكون في لحظة من اللحظات لقمة سائغة لجـائع أو هدفاً لرام طامع فيبيت هو ومن يرعاه ذليلاً وحقيراً أو يصبح ويمسي ضعيفاً وأسيراً .

إنه ليس من الكياسة ولا من السياسة ولا من الحكمـة ولا من العقل ولا من الدين أن يرى الامة الأروبية تموج بمناشىء الآت الحرب والفتك والبلاد الشرقية مكتفية بسماع أسمائها وبعدها وإحصائها وإذا احتـاجت الى شيء من الآلات

والأدوات الحديثة من المصانع الغربية فيرسل إليها في وقت السلم لا في وقت الحرب والأسباب في ذلك جلية لا خفية لكن المسلمين عنها غافلون ولهذا ناسون أنهم متناسون .

مع أنهم يعلمون إنها أساس العزة والكرامة والاطمئنان في هذا العالم وهم كذلك يعرفون ان الله وعد رسوله الصادق الامين **محمداً** ﷺ أن يعصمه ويحفظه من الناس وقد كان مع هذا الوعد يعد العدة للقاء العدو ويظاهر بين درعين من حديد يلبس إحداهما على الاخرى والقرآن ينطق علينا بالحق فيقول : **« واعدوا لهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »** .

إن مصيبة المسلمين فادحة فقد أصيبوا في قوتهم وعزيمتهم وأصيبوا في عواطفهم ومشاعرهم وأصيبوا في ذكائهم وفطنتهم واخلاقهم وليس وراء هذا من بلاء ولا شقاء فقد قيل :

صلاح أمرك للاخلاق مرجعه　　　فقوم النفس بالاخلاق تستقم

لقد ظن كثير من المسلمين أنه يكفيهم من الاسلام إسمه وإن كانوا لتعاليمه ناسين وعن هدايته معرضين وهذا هو الخطأ المبين .

حقاً إن شريعة الاسلام كنز أهمله أهله ودرة أغفلها أصحابها وتعلقوا بأذيال الخيال فتنكر لهم الدهر وساءت الحال ولله الامر من قبل ومن بعد .

فصل الاسلام وعظمته
واعتراف الاجانب بذلك

إن الاسلام كما أسلفنا في غنى عن كل تقريظ أو مدح وهو نور ساطع يراه كل من وفقه الله وهداه ونحن نشكر الله ونحمده على نعمة الاسلام ونسأله أن يوفقنا لخدمته وأن يجعلنا من أتباعه العاملين الموفقين كما نشكره جل جلاله على دنو الوقت الذى شعر العالم فيه باحتياجهم لدين الاسلام ليخلصهم من أوحال الحرية الممقوتة المبتذلة والعادات الباطلة والسلام المزيف ولاجتماعات التى تحمل فى الظاهر عنوان السلام والأمان وهى فى الباطن وسائد الغدر والخيانة والزور والبهتان .

العالم قبل الاسلام

كان الناس قبل الاسلام فرقا وشيعا وقبائل متعادية لا تربطها رابطة ولا تجمعها عقيدة ومن جهلهم عبدوا الشمس وسجدوا للقمر وقدسوا البقر وسبحوا بحمد النيران وسجدوا للأحجار وعبدوا الرهبان والملوك لذلك أرسل الله الرسل لتنير العقول وتهدى الضالين باذن الله « **ومن يضلل الله فماله من هاد** » . قام الأنبياء بالدعوة خير قيام وجادوا بما يملكون فى سبيل نصرة العدل إلى أن ساد الحق وزهق الباطل .

ولما شعرت الانسانية المعذبة باحتياجها الى مصلح كريم يجمع بين مصالح الدين والدنيا ويعطى كل فرد في الوجود ما يستحق من الحرية والكرامة مع المساواة والانصاف أراد قيوم السموات والأرض سبحانه وتعالى أن يجعل من هذا الشعور الخيالى حقيقة واقعة فأنزل للناس الاسلام وأمر بتبليغه فى جميع بقاع الأرض ليعم فضله سائر الطبقات وليفتح به عهد حياة سعيدة لم تكن تتخيله البشر من قبل وليصيروا أحياء بعد الموت وأحرارا بعد الاستعباد وعلماء بعد الجهل وأقوياء بالايمان بعد الضعف ٠

إن الاسلام قد حل أكبر مشكلة اجتماعية خطيرة ألا وهى اجتماع الشعوب والقبائل والأمم المختلفة اللغات والطبائع والديانات فأصبحوا بتعليم الرسول الأمين إخوانا متحابين متآلفين متساوين فى الحقوق والواجبات لا فرق بين غنيهم وفقيرهم وعظيمهم وحقيرهم لا يستهين كبيرهم بصغيرهم ولا يعتدى قويهم على ضعيفهم ٠ لا فضل منهم لأحد على آخر إلا بتقوى الله عز وجل « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم** » وبفضل هذه التعاليم هرع الناس لاعتناق دين الاسلام ودخلوا تحت رايته طائعين فرحين مستبشرين فعم فضله سائر الطبقات واعطى لكل فرد ما يستحقه من الحرية والكرامة مع المساواة ٠

وقد كانت هذه الشعوب والقبائل من قبل ظهور الاسلام فى تحاسد وتقاطع وتنافر وفى قتل وظلم وتدابر فأصبحوا بفضل دين الاسلام متعاونين مهتدين وللفواحش والظلم تاركين وللجار وللفقير محسنين فى وفاق وإخاء وعلم ونور وحكمة وقوة إيمان سعداء آمنين فصدق عليهم قول الله عز وجل : « **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من آتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم** » ٠

ذلك هو النبي الأمي الذى استطاع بهدى السماء أن يقود العالم الى الرحمة والسعادة والمسرة والهناءة بعد أن كان غريقا في بحار التخاذل والفرقة والبغضاء والأحقاد ـ وبذلك تحقق سر قوله تعالى : « **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** » ٠

« الاسلام في نظر علماء اوربا »

أرجو أن تسمعوا حضراتكم ما يقوله أحد فلاسفة الغرب « سنكس » مختصرا من مقال نشر في المجلة الأميركية اطلعت عليه في المدة الأخيرة ، قال : ظهر محمد نبى الاسلام بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة فكانت عنايته موجهة الى ترقية العقول البشرية وأتى لها بالأصول الأولية للأخلاق وبالاعتقاد بالله واحد وبحياة بعد هذه الحياة فأحدث هذا النبى العربى في الشرق وفي إفريقية انقلابا دينيا عجيبا ٠

فماداه قومه وهددوه بالقتل فلجأ الى يثرب واعتبر تاريخ هذا الانتقال تاريخا مجيدا يؤرخ به المسلمون ٠ هذا النبى كان مؤيدا من السماء ودعوته كانت على الحق لذلك إيده الله وخذل أعداءه ولم يمض قرن منذ بعث حتى كانت جميع شعوب البلاد العربية وشمال إفريقية وجنوب آسيا وبعض ممالك أوربا خاضعة للراية المحمدية ٠ ولما تمت فتوح الاسلام أخذ أتباعه يدخلون التجربة في أنواع من مرافق الحياة العلمية والعملية فارتقت الآداب والصنائع وتقدم العلم وقويت العزائم على الابتكار والاختراع وترجمت كتب اليونان والرومان واشتهر العرب بعلم الهندسة والكيمياء والفلك والحساب والموسيقى والدين واللغة والأدب والبلاغة والشعر في وقت شهد زعماء أوروبا وقادتها بأن الغرب يتخبط في ظلام الجهل ثم أخذ الأوروبيون يعترفون من منابع العلم التى أسست بفضل ملوك المسلمين في بغداد وقرطبة ولشبونة والقاهرة وغيرها من المدن الاسلامية العامرة بطريقة لم تصل الى أوروبا ولم تدرس بطريقة عامة إلا في عهد النّهضة المعروفة الآن « انتهى » ٠

وقال فيلسوف آخر هو المسيو « بلتمى » عن القرآن قولا يعتبر وخزا لجهلة المسلمين الذين فرطوا فى كتابهم ·

قال : إن القرآن أجمل أثر للغة التى أنزل بها ولم أر ما يشبهه فى جميع أدوار التاريخ وهو قاموس الأخلاق والمبادىء المؤدية الى السعادة فى الدنيا وفى الحياة التى بعدها ويدل ما فى هذا الكتاب المقدس على أن القرآن ليس من إنشاء محمد ولكنه من عند ربه أملاه عليه على لسان الملك جبريل وبذلك استطاع القرآن بما حوى أن يرقى عقول الملايين من الناس ولا تزال ترقى كل يوم به شعوب متأخرة من الوجهة الدينية والأخلاقية والبيتية وسوف لا تمضى إلا سنين قليلة حتى تصبح إفريقيا كلها وأوروبا أيضا متدينة بالاسلام وهذا كله يدل على أن حيوية الدين وعظمته فى هذا الكتاب ·

إلى أن قال هذا البحاثة المنصف : إن الاسلام بلغت به السماحة الى أن يعترف بالكتب السماوية الأخرى لأنها جميعا تدعو لنصرة الحق وتطهير الاعتقاد ·

الفــرائض الدينيــة

وقد حدثنا هذا البحاثة عن الفرائض التى افترضها الدين الاسلامى فقال : قد أمر الاسلام بخمس صلوات فى اليوم والليلة ليضطر الانسان الى التخلى عن الاشتغال بالماديات فى بعض اللحظات ليقبل فى خلالها على مولاه وأنعم بهذه الوسيلة فى إصلاح النفس وتربية الروح وأمر ان لا تجعل العبادة موجهة لغير الخالق فان الله أعلم بما هو أصلح لنا وقد أوجب على المسلم أن يتصدق بحصة من أمواله وأوجب حماية المرأة بالاعتراف لها بحقوقها فى الميراث وغيره فى وقت كانت المرأة الأوروبية فيه كالأسير وحمى الأعراض من الزناء فنظم

الزواج والطلاق وحمى الأطفال من القتل خشية الفقر وأمر بحفظ حق الجوار لتدوم الصحبة وتطييب العشرة وحرم السرقة والقتل والخمر والميسر والرشوة فأنعم بهذه الحصانة الالهية العادلة ومرحبا بتلك الآداب القويمة السامية •

إسلام بعض الغربيين ودفاعه عن الدين

كيف أسلم اللورد هدلى الأنجليزى

اللورد هدلى عظيم من عظماء الأنجليز ومن أغنيائهم المعدودين وله مركز ممتاز فى قومه ولد من أبوين مسيحين ولما بلغ مبلغ الرجال درس مذاهب المسيحية فلم تطمئن نفسه فأخذ يبحث عن دين يقبله عقله ويرتاح إليه ضميره فعكف على دراسة الدين الاسلامى على بعض أئمة المسلمين فى مصر وبعد البحث والنظر والتفكير فيما جاء به القرآن الكريم من النظر فى معرفة الخالق انشرح صدره وهدأت أعصابه المتوترة واطمأنت نفسه الحائرة وسكن فؤاده المضطرب لتسامح الاسلام والمسلمين مع غير أهله فأعلن إسلامه من غير خوف ولا وجل ونصب نفسه للدفاع عن عقيدته وقبل رياسة الجمعية الاسلامية البريطانية بلندن ثم دعا عقلاء أمته لدراسة الدين الاسلامى الذى يشهد له لعقل ويرتاح له الفؤاد وأخبرهم أن الاسلام هو الدين الذى يجب أن يتدين به العالم •

أسلم اللورد هدلى سنة 1945 وتسمى باسم عبد الرحمن وحسن إسلامه وحج البيت الحرام سنة 1955 ميلادية ومر بمصر وهو فى طريقه الى الحج فأحسنت مصر استقباله وبعد رجوعه من الحج كتب رسالة سماها « إيقاظ الغرب للاسلام » بين فيها لأهل وطنه الاسلام على حقيقته وقارن بين العقائد الاسلامية والمسيحية وقد أسلمت معه زوجته •

وخدمة للدين والعلم أقدم لكم أيها الاخوان بعضا مما جاء فى الرسالة التى كتبها هذا اللورد عن الاسلام •

ـ الكلمة التمهيدية للرسالة ـ

مهد اللورد لرسالته بكلمة أعرب فيها عن الآلام النفسية التى تصيب الانسان إذا غلب عن أمره وانقاد الى عبادة لا يرتاح إليها ضميره وعد السكوت على هذا نوعا من الخوف فقال : « إن هناك رفيقا أرد أمن الزندقة ذلك الرفيق هو الخوف فكم من الناس جعلهم الخوف يستمسكون بدين واعتقادات لا يصدقونها إنه من المستحيل على أى إنسان أن يصل الى أسمى غرض فى الحياة إذا قيد نفسه بقيود التقليد بلا تفكير •

ثم حمل حملة شديدة على الذين يدفعهم حب الذات الى اتباع خطوات السابقين فى معتقداتهم دون أن يتعبوا نفوسهم فى بحث هذه العقيدة ولا يلقون نظرة على دين غيرهم ليميزوا الغث من السمين فقال : يريد كل منا أن يختار لنفسه أحسن الأطعمة وأحسن المساكن ولكن كم منا فكر فى أن يختار احسن الديانات ؟ إن معظمنا راض بالدين الذى وجد عليه أباءه والقرآن يقول : « **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه أباءنا أو لو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** » •

ونحن كل ما نريده هو دين يصلح شأن الأمة ودين الاسلام هو الدين الموافق للفطرة السليمة وللعقل الاجتماعى •

ولو درس هؤلاء الاسلام وبحثوا أخلاق محمد سليل المجد والشرف وما انطوت عليه نفسه الكريمة من حب للخير والعطف على الضعفاء والفقراء والمساكين لتبين لهم أن نبى الاسلام كان مشهورا ومشهودا له من ألد أعدائه بأنه شديد فى كبح جماح النفس عن الهوى وردها عن الشهوات صادقا أمينا •

هذا ولو أردنا أن نعرف الأثر الحقيقى والقوة الساحرة المهيمنة التى يدخلها الاسلام على النفوس لوجب علينا دراسة

القرآن دراسة تحليلية تامة حتى يظهر قـدر العظمة فى روح العقيدة الاسلامية فيما يتعلق بالمولى سبحانه عز وجـل • إن الاسلام سيظل باقيا يعرفه الناس فى جميع أركان المعمورة ما دام القرآن يتلى بلغة محمد وأصحابه • أمـا المسيحية فالأناجيـل ليست بلغة من جاء بها وهو عيسى عليه السلام لأن الانجيل المنزل على عيسى قد ضاع واندثر ولم يبق له أثر • ووضع المؤلفون مكانه مختارات من أناجيل أربعة ليس بينها إنجيل يشبه الآخر فى لفظه ومبناه ولا فى لغته ومعناه وكلها مشكوك فى نسبتها للمسيح والاصل الذى يتخذه المسيحيون مرجعا مكتوبا باللغـة اليونانية وهى لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية وهى اللغة السامية ولذا ضعفت الثقة بصحة هذه الأناجيل وأصبحت مثارا للشكوك والظنون • إن الذى يؤخذ على هؤلاء المؤرخين ومؤلفى الأناجيل أن تـذكر الأنبيـاء جميعـا كموسـى وداود وسليمان ومحمد بأنهم بشر يجرى عليهم ما يجرى على النـاس بينما يرفعون عيسى الى مرتبة الالوهية فيدعونه « ابن الله » وهم يعلمون أنه من البشر « **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** » •

ولقد نشأ هذا الادعاء من أن المسيح عيسى بن مريم لم يكن له أب فسولت لهم أنفسهـم أن ينسبوه لله لانهـم لا يتصورون قدرة الله وعظمته وإذا كان وجود المسيح من غير أب يعد أمرا عجيبا فكيف بآدام وحواء ولم يكن لهما أبوان • وإذا كان مـا ينسبه هؤلاء المسيحيون لعيسى حقا فكيف يرضى الله لابنه أن يعذب ويصلب ويموت •

فمن الخطأ البين أن يعتبر الانسان بشرا من دم ولحم « ربا » أو « ابن رب » إلا إذا كان الاله فى نظره لا يتنزه عن أحـوال البشر وصفات الانسان وهذه هى الصخرة التى يحطم هذا رأسه عليها • إن الذى يقرأ الانجيل يجد فيه كلمات كثيرة على لسان المسيح يعجب لصدورها ممن كان فى منزلة المسيح •

من تلك الكلمات قوله لأمه مريم العذراء فى أفراح « قانا » كما يقول الانجيل وفى اليوم الذى انتهى فيه العرس قالت لـه أمه : إن الناس ليس لهم خمر • فقال لهما : « مالى ومالك يا امرأة » كذلك القول الدال علــى كراهة الضيف مثــل : وإذا بامرأة كنعانة خارجة من تلك التخـوم صرخت إليه قائلـة : ارحمنى أيها السيد المسيــح فلم يجبها بكلمــة فتقدم تلاميــذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح فصرفها • وقوله : إن كان أحد يأتى الى ولا يبغض إخوانه وأخواته وأهله فلا يقدر أن يكون لى تلميذا فهل يصدق العقل أن نبيا يأتى لهداية الناس ولارشادهم وتوجيههم الى سبيل الهدى والرشاد يخاطب أمه بقوله « مالى ومالك يا امرأة » •

أو يصدق أن نبيا داعيا الى الله يكره الضيف ويطرده وهل نصدق أن نبيا كالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام ينسب اليه أنه يأمر الناس بكراهية إخوانهم وأخواتهم وأهلهم وإلا مـا استحقوا أن يكونوا تلاميذه •

طــابــع الاســـلام

إن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة فى سبيل التفكير • فقد يكون المرء صحيح الاسلام وفــى الوقت نفسه حر الفكــر وكمــا أن الاسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقبات وجميــع درجات المدنيــات وتعاليــم الاسلام تجد قبولا حسنا ورضــاء سهلا عند الأوروبــى وعنــد الزنجى الافريقى كما تأخذ بلب الفيلسوف الروحانى •

إنا نسوق هذه العجالة لهؤلاء المسيحيين ذوى النيات الحسنة ، ليدلهم الدلالة الكافية على ما للاسلام من الروح الخاصة به ، وعلى ماله من الأفضلية على غيره من الديانات ، وإن كنا نعلم أن المتعصبين من المسيحيين لا يخضعون أمام البينة والبرهان ، بل يعودون الى حجتهم التى يتمسكون بهــا عندما يجــدون أن

البينة قد أفحمتهم ، أو أن الجدل قد عادت نتائجه عليهم · وتلك الحجة هي قولهم : إن الاسلام مهما كانت له من مزايا فانه من إنشاء إنسان ، أما المسيحية فانها من إنشاء ابن الاله · إنا نقول لهم بكل بساطة : إن هذه الأفضلية التي يباهون بها إن هي إلا فرض مأخوذ من غير تفكير ولا بحث ، فالمسيح لم يدع الألوهية لأنه كان رجلا بكل معني الكلمة وكانت له نفس وعقل وإرادة بشرية لا جسم بشرى فقط ·

وقد قال القرآن ما يماثل هذه الأقوال ، وأخبر أن المسيح عبد الله وبشر لأنه كان يأكل ويشرب وهذا هو المعقول فالمسلمون يعتقدون مثل ما قال القرآن أن المسيح وأمه عبدان ومخلوقان كما أراد الله ·

وفي ختام رسالته قال رحمه الله وإني لا أشك مطلقا ان من قرأ رسالتي بنفس مجردة عن التعصب الذى كثيرا ما يبعد الانسان عن الحقيقة ويحجب عنه نور العرفان لا بد أن يؤمن بأن الاسلام هو دين المحبة والاخاء وأن رسولا بعث رحمة للناس وليتمم مكارم الأخلاق وينشر العلم والعرفان بين شعوب الأرض جميعها ·

هذا ولو استقصينا كل شهادات الأجانب على أن الاسلام هو أساس المدنية والحضارة في كل زمان ومكان لطال بنا المقام ولكن لا بأس نأتى لكم ببعض شهادات أخرى من بعض المدرسين الايطاليين في جريدة « ميلانو » التى تصدر فى إيطاليا يصف فيها مقدرة الاسلام على حفظ السلام فقال : « إني أرى بل أجزم جزما قاطعا بأن أوروبا التى كانت الى عهد قريب تظهر الاسلام فى أبشع الصور قد أدركت ضرورة الالتجاء اليه لحل مشاكلها الدولية التى تعقدت ، وساسة الغرب سيرون أنه لا مخرج لهم من الفوضى التى طغت على بلادهم بما يسمونه مجلس الأمن الا بالعمل بأحكام الاسلام وسيشعرون بأن طريقها

أصبح غير كفيل بوضع الأنظمة الصحيحة التى تكفل حفظ السلام بعد أن تفرقت الكلمة وأصبحت الأمم فى حيرة ليس لها من حد ٠

وهذه شهادة أخرى من طبيب أميريكى يسمى « كارلو » يحدثنا عن فريضة الصيام وحكمة القيام حيث يقول : إن الأسباب التى تدعونى لنشر هذا المقال فى الجرائد السيارة هو كثرة الأمراض لذلك أجدنى كطبيب يجب أن أنصح أبناء جنسى إلى دواء شاف يستطيع كل فرد في الوجود من غني وفقير أن يتناوله ذلك هو الصيام الذى شرعه الحكيم العربي محمد بجزيرة العرب وذلك أن كل مسلم يقلل من الطعام شهرا فى العام ٠ والجراثيم التى تفتك بالأمعاء وتمتص الغذاء قد تكون دائمة الحياة ما دمت واجدة ما يغذيها من الطعام الذى يحشر حشرا والامتناع عن الطعام يميتها فيحيا الجسم بموتها وتعود القوة والنشاط الى المعدة وغيرها ٠

والاسلام هو أحكم الأديان التى جاءت بهذه التعاليم الصحيحة القوية إن محمدا كان طبيبا موفقا يستمد الوحى من السماء لاسعاد أبناء ملته فقد شرع أيضا صلاة القيام بعد امتلاء المعدة بالطعام عقب الصوم فيسلم المؤمن من آفة التخمة بالصلاة ٠ ونشرت مجلة إيطالية مقالا قارنت فيه بين الحرية فى الاسلام والحرية فى أوروبا اليوم نستخلص منه ما يلى :

قال الكاتب : إننا معشر الغربيين بحثنا اليوم عن الحرية بعد أن ركدت شريعة المسيح وأدخل عليها الكثير وأستطيع أن أقول إن ما يسميه الناس بالحرية في أوروبا بين النساء والرجال هى حرية الفجور واستعباد الشهوة والاباحية باسم العلم والتقدم والعمران آلا فليدخل الأوروبيون فى دين الاسلام فهناك يجدون الحرية التامة فى حدود طاعة الله وإرضاء النفوس الشريفة والأخلاق الفاضلة فضلا عن الحرية الكاملة فى الحياة الأخروية.

والحياة الأخروية خير وأبقى . وفي هذا المقام يقول الفيلسوف الأنجليزى « برناردشو » ينصح أوروبا ليصلح أمرها ويستقيم شأنها .

إن العالم لا محيد له عن الاسلام ليأسو به جراحه ويعدل به معوجه ويقوم من أمره على سداد تتطلبه حياته ويقتضيه صلاحه .

وقال عالم فرنسي في مقال ممتع يصف أنصار الاسلام وانتشاره : مما يدل على فضل الدين الاسلامي أن نبيه محمدا حينما دخل مكة منتصرا أخذ يلقى الأصنام التي حول الكعبة ويقول : « **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** » .

ثم عفا عمن أساوؤوا اليه . وقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . ثم قال : لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب . وقال : « تولستوى الفيلسوف الروسي » : ومن فضائل الدين الاسلامي أنه أوصى خيرا بالمسيحيين واليهود كما أمر بحسن معاملتهم حتى أباح هذا الدين لأتباعه التزوج بالمسيحيات مع الترخيص لهن بالبقاء على دينهن ولا يخفى على ذوى البصائر ما في هذا التسامح وحسبه فخرا أنه هدى أمة بأجمعها إلى نور الحق وجعلها تجنح الى السكينة والسلام بعد الخصام وسفك الدماء وفتح لها طرق الرقي والمدنية وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة فوق قوة البشر . وقال : « دوزى » بينما أهل أوروبا تائهون في ظلام الجهالة لا يرون الضوء إلا من سم الخياط إن سطع نور قوى من جانب الأمة الاسلامية من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت في الأمم واغتنم منها أهل أوروبا مكتشفات وصناعات وفنونا عظيمة .

ومن كلام طويل للمسيو « دوديانوس » الوزير الفـرنسي :
جاء الاسلام مخالفا لكثير من الأديان التي ضاعت حقيقتها ولكنه جاء منزها عما لا يعقل من الخرافات والأباطيل • ومن عجيب أمره والدليل على صدقه أنه كرم المسيح وعظمه ، وإن خالف المسيحيين في تقرير أن المسيح بشر لا يملك لنفسه ضـرا ولا نفعا إلا باذن الله •

والاسلام مكمل للانسانية لا غموض فيه وهو يقرر الوحدانية وتنزه عن الرهبانية •

أما تأخر أهله فناشيء على أنهم انحرفوا عن أصوله وتوجهوا لغير مرامه •

ايهـا الاخـــوان والأخـوات

اقتصر الليلة على ما تحدثت به وإننا نشكر الله ونحمده الذى وعد أن ينصر دينه ويعلى كلمة الحق وأختم كلمتـــي بالرجاء الآتـــي :

علموا أولادكم فضائل ومحاسن هذا الدين القويم ليشبوا على محاسنه ويتغدوا بمعارفه فيكونوا بمأمن من المدنية الكاذبة •

اجمعوا إخوانكم وادعوا أصدقاءكم لاستماع الوعظ فيحصل التعارف والتآلف وتنالون العلم ويعتز الدين وتقوى الرابطة •

أسأل الله التوفيق والسداد وأسأله أن يميتنا على الحق وأن يهب للاسلام رجالا مخلصين يحفظونه من كيد الكائدين ويجعلنا في صيامنا وقيامنا من المقبولين إنه على كل شيء قدير وهو نعم المولى ونعم النصير •

شهادة فلاسفة العالم بفضل الاسلام

قد كثر التحدث في شأن الأديان وأيهما هو الذى يصلح لهذا الزمان فرأيت أن أسمعكم شهادة فلاسفة العالم الذين يرجع إليهم الحكم على مثل هذه الأشياء عسى أن يكون من وراء ذلك هداية بعض القوم فأفوز بقول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم وبالله التوفيق •

ليس الاسلام ضعيف الحجة حتى ينصره هذا أو ذاك فهو الدين الحق الذى اختاره الله لعباده « **إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** » وقد شرعه الله وحفظه فقال : « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** » وهو دين الفطرة من لدن آدم الى أن تقوم الساعة قال تعالى : « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب** » •

لقد أتى أفلاطون فى جمهوريته ، وأرسطو فى سياسته باصول قيمة ولكنهما عجزا عن حمل قومهما على الأخذ بها ولكن الأصول التى جاء بها الاسلام على لسان خاتم الأنبياء وأفضل المرسلين

كانت سببا فى الألفة العامة بين أفراد النوع البشرى لا فرق بين أبعدهم وأقربهم ولا بين أسودهم وأحمرهم كما عمل على ترك الاعتزاز بالأحساب أو المفاخرة بالأنساب وحث على التشرف بالمميزات الأدبية والمزايا النفسية ·

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى في قومه بقوله المشهور فى هذا المقام فقال : « لقد أذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بالأنساب ليس لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود فضل إلا بالتقوى » ولقد جرى المسلمون بعد النبى صلى الله عليه وسلم على هذه السنة الكريمة فلم يفرقوا فى المعاملة بين الناس بحسب الأصول والألوان ولقد انتخب عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو على فراش الموت ستة رجال ونصح للناس أن يختاروا للخلافة واحدا منهم ولم يجعل لابنه حظا معهم فيها ثم لما جاء وقت الصلاة أمر عمر رضى الله عنه صهيبا أن يصلى بالناس إماما ·

وصهيب هذا لو أخبرتكم عنه لعملتم أنه كان فى الأصل عبدا روميا فانظروا أيها الاخوان الى أى حد بلغ المجتمع الاسلامى العظيم من الاغضاء عن الفوارق الجنسية والاعتداد بالمزايا العلمية والأخلاقية فكان للأرقاء وأبناء الأرقاء فى الدولة شأن عظيم وكان من جراء التغاضى عن الجنسية أن أصبح أكثر الدعاة والمصلحين في الاسلام من جنسيات مختلفة فامام العلماء فى عصره الحسن البصرى رضى الله عنه فارسي وأكبر الأئمة المجتهدين الامام أبو حنيفة النعمان من أصل فارسي وأول الحفاظ وأكثر أصحاب الصحاح من أجناس شتى كالبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم وأقدم المفسرين الطبرى والزمخشرى والفخر الرازى والنيسابورى كذلك ·ومن أهل الفضل والتصوف الباقلانى والأصفهانى وغيرهم · كل هؤلاء ليسوا من أصل عربى ولكن الاسلام كرمهم ومجدهم لانهم صاروا من أتباعه وخدموا أهله بعلمهم وإرشادهم ونصحهم ·

فالمجتمع الاسلامي الذى ضم أجناسا مختلفة فى العصور الماضية هو صورة مصغرة لما ستكون عليه الحال حين يعرف الاسلام معرفة عامة ويصبح بعد أن تدرس أصوله على نور العلم دين البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها إن شاء الله ·

ليس بالعسير أن تتحقق هذه الآمال متى ارتفعت الأوهام وحل محلها العقل الذى يدعو الى المساواة والاخاء ويقضي على الحروب حينئذ لا يجدون غير دين الله نصيرا أو كفيلا ولا يرضون بغير الاسلام بديلا ·

هذه ناحية من نواحي فضل الدعاية المحمدية جئنا بها كمقدمة لهذا الموضوع الجليل وليس فى المقدور تدوين كل محاسن الاسلام فليس هذا بميسور لأحد من الأنام واله الحمد والثناء على ما آرانا من دلائل عظمته وآيات رحمته بخلقه وله الحمد والشكر على نعمة الاسلام التى تنبه لها بعض ساسة الغرب وعقلاء المؤرخين الذين دفعهم حب الوصول الى الحقائق وهداهم البحث البرىء لى أن يعلنوا في العالم كله أن الاسلام دين العقل والعلم والاخاء ولحرية والمساواة التى تصلح لسياسة النوع الانسانى ·

الآن أشرع فيما تصديت له فأقول : قال رئيس الكنيسة الأنجليزية « إسحاق تيار » وهو يخطب في مؤتمر الكنيسة ببلاد الأنجليز : « الاسلام ينشر لواء المدنية التي تعلم الانسان ما لم يعلم ويعلم الاحتشام فى الملبس ويأمر بالنظافة والاستقامة وعزة النفس · فمنافع الدين الاسلامي لا ريب فيها وفوائده من أعظم أركان المدنية ومبانيها ·

وقال المؤرخ العظيم « دوزى » بينما أهل أوروبا تائهون فى ظلام الجهالة لا يرون الضوء إلا من سم الخياط إذا بنور الاسلام قد سطع من جانب الأمة الاسلامية من علوم وأدب وفلسفة وصناعات حين كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق

والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة معارف انتشرت في الأمم واغتنم منها أهل أوروبا في القرون الوسطى علوما وصناعات وفنونا عظيمة •

هذه بعض أقوال ذوى الضمائر الحية نستطيع ان نحاجج بها من ظلموا أنفسهم وكفروا بنعمة الله وافتروا على الاسلام ولكن الله تكفل بحفظه وسينتقم من المفترين ويخزى المبطلين •

« أيها الاخوان الكرام »

إن الدين أمانة فى أعناقنا وديعة بين أيدينا تركه لنا رجال نصروه فنصرهم الله وثبت أقدامهم وجاهدوا فاتحين لا لزخرف الدنيا الزائد بل لنصرة الحق وإعلاء كلمة الله فجعلهم الله ملوكا واعز شأنهم ورفع رايتهم وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا فمن العار ومن الفضيحة أن نفرط فى هذه الوديعة ونخون الله فى هذه الأمانة ونترك الدين للأهواء ونلقى به بين الأعداء •

ـ نقمة تورث نعمة ـ

قد شاء الله أن يكون من وراء اعتداء العنصريين بأمريكا على الزنوج وما يلقونه كل يوم من الذل والهوان حدث نعمة اليقظة والمحبة لدين الاسلام لأنه دين التسامح لا يقر الاضطهاد ولا يبيح هذه التفرقة الدينية فهو يساوى بين جميع البشر لا يفرق بين الأبيض والأسود ولا يقر التفرقة العنصرية بأى شكل من الأشكال ليس فيه غلو ولا التواء ولا تناقض ينفر منه العقل السليم بل هو نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء • وقد وصفه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : إن للاسلام منارا كمنار الطريق » فليس بكثير أن يدخل الناس على اختلاف طبقاتهم فى دين الله أفواجا بعد أن استجابوا لدعوة ربهم جميعا حينما دعاهم بقوله « **يا أيها الناس قد جاءكم من الله نور وكتاب**

مبين يهدى به الله من آتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » •

كيف أسلم محمد علي كلاي بطل العالم في الملاكمة

قال حفظه الله : « قصة إسلامي قصة طويلة ولكن لا بأس بأن ألخصها لكم وقد اعتنقت الاسلام لانه الدين الذى يساوى بين جميع البشر وقد أعلن إسلامه أمام فضيلة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر رحمه الله رحمة واسعة وبعد أن أعلن إسلامه ونطق بالشهادتين قال : قد ذقت مرارة التفرقة العنصرية في أميريكا ورأيت كلاب البوليس المدربة المسعورة وهي تهاجم الأطفال والنساء والشيوخ ويموت بسبب ذلك الكثير من الزنوج وكنت أتساءل : لماذا هذا الاضطهاد ؟ لماذا هذه التفرقة المريرة ؟ ولكن لا جواب ••• فالتفرقة هناك هي التي تسود وهي الصوت الذى لا يعلو فوقه أى نداء وفي يوم من الأيام وكان ذلك سنة 1964 ميلادية سمعت الحاج محمد يتحدث في الاذاعة عن الدين الاسلامى وكيف أنه دين سمح سهل لا يقر الاضطهاد ولا يبيح التفرقة والناس عندهم كلهم سواء لا فضل لعربي على أعجمى إلا بالتقوى فأثر حديثه على ومن الغد ذهبت إليه في منزله وهناك استمعت الى المزيد من حديثه عن الاسلام فتفتح قلبى الى الدخول في الاسلام وفرح الحاج محمد وبدأ يلقننى المبادىء الأولى ومن يومها أصبحت مسلماً •

كيف أسلم الكثير من علماء الغربيين

لقد سئم الكثير من عظماء أوروبا فعل الكنيسة وإرغامها لهم على قبول معتقدات لا ترضى بها عقولهم في هذا العصر عصر التقدم الفكرى والنبوغ الفطرى فأخذوا فى البحث عن عقيدة ترضى الضمير وتطمئن لها النفس وتتفق مع كل جيل وتصلح لكل زمان ومكان فلم يجدوا غير دين الاسلام فاعتنقوه وهم به

راضون وعنه مدافعون وللدخول فيه والتبشير به داعون والى حضراتكم الدليل على صحة ما نقول ومنه تعلمون كيف يبشر الاسلام بنفسه وكيف يدخل القلوب بعد خلاصها من الخرافات والبهتـــان •

تحدثنا مجلة الشبان المسلمين التـــى تطبع بمصـــر فتقول : خمسة آجانب جاؤوا ليعلنوا إسلامهم في الأزهر : أميريكي ـ ودانمركي ـ وآلماني ـ وأسترالى ـ وأنجليزى : خمسة كانوا مسيحيين وكانت أسماؤهم آرثر ـ وبول ـ وآلبرت ـ وتورمان وبريان دافيد ، فصارت علي ـ عماد الدين ـ ومحمد المهدى ـ وعلاء الدين ـ وأحمد ـ ومحمد مختار •

وكلهم حضروا خصيصا من بلادهم لاشهار إسلامهم على يـــد فضيلة الأستاذ الأكبر محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر رحمه اللـــه •

وحينما سأل فضيلة الأستاذ الأكبر أولهم وهو أميريكي يدعى الدكتور آرثر وهو أستاذ فلسفة وعلم نفس من جامعة«كولومبيا» واختار لنفسه اسم على عماد الدين عما دفعه لاعتناق الاسلام أجاب بأنه رآى في الاسلام دين الأخوة والمساواة وأنه دين يدعو الى وحدانية الله وأنه وجد فى تعاليمه ومبادئه القيمة العظيمة التي تنهض بالبشرية وعند ذلك قال له الأستاذ الأكبر كيـــف عرفت ذلك أجاب بأنه قضى عشرة أعـــوام فى دراسة الأديـــان واختار منها الاسلام دينا له بعد آن عرف فيه مبادئه وتعاليمـــه وهنا سمح له فضيلة الأستاذ بأن ينطق بالشهادتين وصار بذلك مسلما •

وفي نفس اليوم استقبل شيخ الأزهر مستر بول الدانمركي الذى سمي نفسه محمد المهدى وهو خبير بهيئة الأمم المتحـــدة سأله الشيخ الأكبر عن السبب الذى دفعه الى الاسلام فأجاب بأنه درس الاسلام وقرأ القرآن ودرس تاريخ حياة الرسول باللغـــة

الأنجليزية فسمح له فضيلته بأن ينطق بالشهادتين وصار بذلك مسلما ٠

ـ مـــن استراليـــا ـ

وجاء دور المهندس الأسترالي وبعد أن نطق بالشهادتين أمام فضيلة الأستاذ الأكبر تحدث عن قصة إسلامه فقال : فــي فترة الحرب العالمية الثانية كنت أعمل بالصحراء الغربية في ليبيا وكان يلفت نظري ما يفعله رجل يسوي الرمال بيديه ثم يقف في خشوع وينصرف عن كل ما حوله فاستفسرت عما يفعل فقيل إنه يصلي وسألت عن دينه فقيل لي : الاسلام ٠ وحينما عــدت بعد الحرب العالمية الثانية بدأت أهتم بدراسة الاسلام وتعرفت في ذلك الوقت بشخص اسمه أحمد عبد الله الذي توثقت بيني وبينه صلة كبيرة وأخذ يعطينــي دروسا في تعاليــم الاســلام ويشرح لي بعض الآيات القرآنية فــي بساطة فكتبت لفضيلـة الأستاذ الأكبر من تلقاء نفسي أعلــن عن رغبتي فــي اعتناق الاسلام وجاءني الرد بسرعة لم أكن أتصورها فأسلمت وكل ما أتمناه الآن أن أعيش مواطنا مسلما صالحــا أهب كل حياتــي ونفسي لما يوجه اليه الاسلام وأول شيء سأفعله عندما أعود الى أستراليا أن أقيم أول مسجد بها وسوف أعمل باذن الله على نشر الاسلام في هذه القارة ٠

والآن أصبح اسمي أحمد عبد الله نورمان وقد اخترت هــذا الاسم وهو نفس الاسم لصديقي المسلم أحمد عبد الله اعترافا بفضله على الذي دفعني الى الاسلام ٠

ـ عـــلاء الـديـن ـ

أما علاء الدين شلبي الألماني فكان قد أسلم في تركيا علــى يد مفتي أسطنبول وأعطيت له شهادة من رياسة الشؤون الدينية بالجمهورية التركية بها اشهار إسلامه وجاء إلى القاهرة ليؤكد

إشهار إسلامه أمام فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت فقد كان متشوقا لينطق بالشهادتين أمامه وقد أهدى إليه الامام بعض الكتب الدينية من تأليفه ·

أما كيف أسلم علاء الدين فلهذا قصة تبدأ حينما كان عمره عشر سنوات كان يذهب في ذلك الوقت الى الكنيسة ويسمع أقوال القسيس وفجاة فى ذات يوم أعلن أنه لا يقتنع بما يقوله من أن الله له ابن من البشر وامتنع عن الذهاب إلى الكنيسة فاعتبره القسيس إنسانا شاذا وشكاه إلى أمه فلم تهتم بشيء من هذا وقالت للقسيس إن ابنها حر في وجهة نظره ثم قرأ مصادفة في صحيفة « زيوت كوريا » الألمانية تحقيقا صحفيا عن العرب ذكر فيه سورة « الفاتحة » باللغة الألمانية فقرأها وتمعن فيها وفى الحال اشترى نسخة ألمانية من القرآن وقرأه كله وكان ذلك في 1958 فقرر أن يشهر إسلامه فلم يجد بلدا إسلامية قريبا منه سوى تركيا فذهب إليهـا وقابل مفتي اسطنبول وأشهـر إسلامه على يديه وعمل بتركيا سنوات مديرا لاحدى شركات الحديد والصلب ثم انتقل الى سوريا واشتغل فى نفس العمل الذى كان يعمله فى تركيا ·

فـــى المـلايـو

أما الأخ الأنجليزى دافيـد الذى اختار مـن الاسماء محمـد مختار فقد درس الاسلام في الملايو واعتنقه هناك على يـد أحد علمائها وذهب الى القاهـرة ليشهر إسلامـه أمام فضيلـة الأستاذ الأكبر كما طلب الالتحاق بالأزهر لدراسة أصول الدين الاسلامى دراسة مستفيضة حتى يكون جنديا من جنود الاسلام يعمل على الدعوة الى مبادىء الاسلام فى أنحاء الارض ·

الاســلام ببـلاد الأنجليـز

قالت جريدة « صندى بوست » ببلاد الأنجليز لقد قام مراسلنا

بأبحاث مستفيضة بلندن عن ازدياد عدد البريطانيين الذين يدخلون في دين الاسلام فاستطاع أن يقدر عدد المسلمين المشهورين في أنجلترا بما يقرب من ألف مسلم بريطاني بينهم رجلان من ذوى الألقاب العالية أحدهما « اللورد هدلى والآخر السير » « أرشيبالد هاملتن » وفي لندن يوجد مسجد عظيم يقيم فيه المسلمون الأنجليز مع إخوانهم الشرقيين فرائض الصلاة ويستمعون الى خطبة الامام وكان من تأثير انتشار تعاليم الاسلام أن أصبح الغنى ظهيرا للفقير يجلس بجانبه الى مائدة الطعام كما يستويان أمام الله ويحتفل بعقد زواجهم فى المسجد الشيخ أحمد عوض وفي غالب الأحيان يقدم الامام المذكور بعد خطبة النكاح نصائح غالية لكل من العروسين • ويقول مراسل الجريدة المذكورة إن اللورد « هدلى » قابلنى وأخبرنى بأنه كان مسلما من زمن بعيد ولم يعلن إسلامه إلا في السنوات الاخيرة وقد قام برحلات واسعة كمهندس معمارى ولما أسلم جهارا أثار الخواطر في بلاد الأنجليز وحملت عليه الصحف حملة مسعورة فوصفته بالرجل الطائش الأرعن •

وقد حج وزار قبر النبى محمد صلى الله عليه وسلم وهو أول أنجليزى حج جهارا وعلانية وهو يعلم كما أخبرنى أن الكثيرين من إخوانه الأنجليز المسلمين سرا قد حجوا أيضا متنكرين وذلك خشية على نفوذهم كما أن غيرهم قد ضحى بتضحيات مالية واجتماعية حينما خرج على الكنيسة ودخل فى الاسلام •

وتقول هذه الجريدة : إن من فضائل هذا الدين أنه لا يوجد فيه فارق بين أتباعه في الجنس وهناك أسباب يذكرها المسلمون البريطانيون لدخولهم فى هذا الدين فبعضهم يقول إنه يشعر فى الاسلام بعاطفة إنسانية تدخل فى حياتهم اليومية فالمسلمون في أنحاء العالم يتوجهون كل يوم خمس مرات نحو مدينة الاسلام المقدسة (يعنى بيت الله الحرام بمكة) ويقيمون الصلاة لله كما يحتم الاسلام على كل مسلم يملك النصاب المالى

ان يخــرج اثنيــن ونصفا فى المائة للفقــراء وهــذه هــى الاشتراكية الصادقة المعتدلة ٠

هذا وشرب الخمر ولعب الميسر وأكل لحم الخنزير محرم فى الاسلام وقد قابلت السير « هاملتن » وسألته عن سبب إسلامه فقال : إن الاسلام هو الدين الحق الذى يلائم جميع الاجناس من البشرية وهو يعتــرف بالديانات الأخرى ولا ينكــر فضــل مؤسسها وأن الذى أنكره على المسيحيين هو أن يقيموا شعائر دينهم مرة واحدة فى الاسبوع وينسون كل ما يتعلق به بقية أيامه وإنى أمل ان أحج الى مكة قريبا وأنا مضطر بسبب ازدياد المسلمين باسكتلندة الى بناء مسجد كبير هناك ٠

الاســـــلام ديــن المستقبــــل

قال اللورد « هدلى » الأنجليزى الذى تشرف باعتناق الاسلام لقد أخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور وأحيا به أمة هامدة وأرضا جامدة وفئة خاملــة لا يسمع لهــا صوت ولا تحس منها حركة فأرسل الله لهم رسولا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فاذا الخمول صار نباهة والضعة رفعة والضعف قــوة فعم نوره الأنحاء وضوؤه الأرجاء وما هو إلا قرن بعد هــذا الحادث حتى أصبــح لدولة العرب رجل فــى الهند وآخر فــى الأندلس وأشرقت دولة الاسلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس ورونق الحق والهدى والقوة ٠

فالقانون المحمدى قانون ضابط للجميع من الملك الى أقل رعاياه وهو قانون نسج بأحكم نظام قضائى وأعظم قضاء علمى وأجمل تشريع منير ما وجد مثله فى هذا العالم من قبل وإن المستقبل للاسلام وإنه هو الدين الذى جاء لجميع الناس كلهم على مبدأ واحد فقال : « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكــر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند اللــه أتقاكــم** » ٠

وقال الكاتب الأنجليزى الشهير « برناردشو » في رسالة آنكليزية تحت عنوان « نداء للعمل » لقد وضعت دائما دين محمد موضع الاعتبار السامي بسبب حيويته المدهشة فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل جيل من الناس ٠

ولا مشاحة في أن العالم يعلق قيمة كبيرة على نبوءات كبار الرجال ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا غدا ولقد بدأ مقبولا لديها اليوم ٠

وتحدثنا فتاة أنجليزية اسمها « سروجيني » فتقول : إنى ولدت بروتستاتنية غير أني لم أجد لنفسي اقتناعا بهذه العقيدة الباردة فخطوت خطوة جريئة بعد دراسة الديانة المسيحية فدخلت في المذهب الكادوليكي فشعرت كذلك بانى لم أخلق لهذه الديانة على أنى شعرت من قلبى بأن المسيح لم يحرم على أحد أبدا أن يناجي ربه بلا واسطة ولا أمر أحدا أن يجثوا فى قفص الاعتراف حيث لا يقول الحق من المعترفين الا قليل بعد ذلك أخذت أدرس حالة الديانات الاخرى ومن بينها الاسلام فجذبتنى أحوال المسلمين واجتماعهم صفوفا متراصة لجهة واحدة يعبدون ربا واحدا وأدركت لاول مرة جمال الاسلام ثم دهشت جدا لما في هذا الدين من الطهارة والحكمة واليسر وشعرت بأن قلبى كله وروحي جميعا مغموران بهذه الهداية التي جاءت للبشر على لسان خاتم الأنبياء ٠ وإني لعلى علم بحياة هذا الرسول العظيم الذى دعا الى توحيد الله وعبادته والاعتراف بوجوده وقدرته فأيقظ العقول من سباتها وأحياها بعد موتها وخلصها من أرجاس الشكر وآثامه ودعاها الى النظر فيما حواه الكون من نظام دقيق وصنع عجيب وحثها على التفكر في بديع مصنوعات الله وروائع آثاره وآياته كما خصها على النظر فى خلق الارض والسموات ليتعضوا بما فيهما من عبر وآيات قال تعالى : « **إن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار**

والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف ارياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لأيات لقوم يعقلون » فالاسلام هو الدين الذى تتفق قواعده وأحكامه مع العلم الصحيح والعقل الرجيح فالله عز وجل يقول : « **إن الدين عند الله الاسلام** » ويقول . « **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** » •

وقد تم لهذه الفتاة المسماة سروجينى إسلامها فى يوم 10 فبراير سنة 1905 أثناء سياحتها بفرنسا ونشرت منها خبر إسلامها فتلقته كافة الصحف المشهورة مثل جريدة الطان والفيقارو وفرانس سوار وقد اطلعت على خبر إسلامها بجريدة « فرانس سوار » ولم تكتف هذه السيدة باسلامها بل أنشأت فى باريس مجلة حرة تسمى « مجلة الأخبار الاسلامية » وعندما أنشأتها قالت : أرجو الله أن هذه المجلة تؤدى خدمة كبرى لا للمسلمين وحدهم بل للعالم كله •

أيها الاخوان والأخوات

فكروا فيما قالته هذه الفتاة الوديعة الرشيدة سروجيني بعد ان أسلمت يظهر لكم جليا أن أقوالها شعاع من نور الحق وضياء من قبس الحقيقة وللحق أنصار فى كل زمان ومكان حتى هذا العصر الذى تغلب فيه الباطل وفشا المنكر ونسي الناس ربهم فأنساهم أنفسهم فلله الحمد والشكر أن يجعل للحق أنصارا فكثير ممن لم يكن أبواه مسلمين اعتنقوا الاسلام وشهدوا له بأنه دين المدنية الصحيحة والحضارة الراقية والحياة الشريفة الطيبة وفى عتقادنا أنه لا يمر زمن طويل حتى يغزو الاسلام القلوب ويعم بأسره « **فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » وقد سمعتهم أنه ليست هذه الفتاة بأول من أسلم فقد أسلم من قبلها

الكثير من عظماء الغربيين الذين ذكرنا أسماءهم وغيرهم أمثال عبد الله كويلم البريطاني وناصر الديـن الفرنسي واللـورد هدلي الانكليـزي والقسيس الألماني وتسمـى باسم عبد اللـه والمستر كاندلر صاحب النجم الهندي والسير أرشيالد هاملتـن والسير وليام ميور الذي ألف كتاب « حياة محمد » صلى الله عليه وسلم وغير هؤلاء كثيرون مما لا مجال لذكرهم الآن وهم أشهر من نار على علم في العالم وهناك غير هؤلاء مسلمون فـي الخفاء يخشون من إعلان إسلامهم وإفشائه على ثروتهم وازدراء قومهم لهم . والى حضراتكم الدليل : حدثنا اللورد هدلي المسمى عبد الرحمان الفاروق الذي أسلم منذ سنوات وحج بيت اللـه الحرام ينبئنا عن مستقبل الاسلام فيقول إني أستطيع أن أقول وأنا واثق من صحة قولي : إن في أنجلترا ألوفا من الناس فـي الطبقة الراقية مسلمون في الباطن ولكنهم لا يعلنون إسلامهم وقد حادثت الكثيرين من الناس وشرحت لهم ما هو الاسلام فكان كل منهم يجيبني قائلا : إذا كان هذا هو دينك فأنا إذن مسلم لان هذا هو ما أعتقده وما أفكر فيه . من هذا الذي ذكرناه لحضراتكم أيها السادة يتضح لكـم كيف مـال علماء الغـرب الى الاسـلام ودخلوا فيه ودافعوا عنه من تلقاء أنفسهم وبلا دعوة من المسلمين فكيف كانت تكون حالهم لو أن المسلمين بلغوا دينهم وبشـروا بمبشرين به كما تفعل أوروبا في الشرق الأدنى والأقصى — فمتى يقوم المسلمون بهذا الواجب كمـا أمر الديـن فقد قـال الرسول صلى الله عليه وسلم فـي آخر خطبة قالها : فليبلـغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع وقال الله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمـة والموعظة الحسنـة وجادلهم بالتي هـي أحسن » قال : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا أشهـدوا بأنا مسلمـون » وهذا أمر للمسلمين أيضا وليس خاصا بالنبي ولا يسقط هذا الطلب لذلك يجب على المسلمين أن يبشروا بالاسلام في الجهات التي لم تصل إليها دعوة الاسلام ونحن إذا نظرنا الى المبشرين

من المسيحيين نجدهم عاملين بقدر ما فـي وسعهم على تبليـغ الدين المسيحي لسكان الارض جميعا سواء من تحضر ومن لـم يتحضر فهل نستطيع أن نقول : إن المسلمين في مشارق الارض ومغاربها شغلتهم الدنيا عن تبليغ ما أمرهم به نبيهم ـ أو غرهم بعض المنتسبين الى العلم فيهم فأفهموهم أنهم غير مسؤولين عن هذا التبليغ لان دين الاسـلام دين العقل والعلـم لا يحتاج الى مبشر والذى يغلب على الظن أن كل هذا قد حصل وكل هذه الآراء متغلغلة في نفوس أهل الملة الاسلامية وبسبب ذلـك خفى كثير من مزايا الاسلام على أهل القارات الغربية لأجل ذلك يجب علينا أن ننفض عن أنفسنا غبار الكسل ونعقد النية على بذل الكثير مما نملك من المال والقوة فى سبيل التبليغ الاسلامى وفق الله المسلمين الى أداء هذا الواجب وهدى الله عباده إلـى الحق والى الطريق المستقيم ٠

أثر الدين في حياة الانسان

إن الله سبحانه وتعالى كلف الخلق عبادته وألزمهم طاعته وبعث إليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته الى تكليفهم ولكن قصد نفعهم تفضلاً منه عليهم ، ولقد أمرنا بتوحيده واعتقاد أنه خالق كل شيء فهو الذي يعطي ويمنع ويحيي ويميت لا شريك له في ملكه وهو على كل شيء قدير وهذا الاعتقاد يحرر النفس ويرفعها ويطهرها من خرافات الشرك وأوهامه وأوزاره وإثامه فلا تنحط الى عبادة جماد أو حيوان ولا تصف بالالوهية إنساناً كائناً ما كان

وإذا كانت الاديان السماوية قد اتفقت على الدعوة الى توحيد الله تعالى والحث على التحلي بالآداب العالية والخصال الحسنة فإن الدين الاسلامي الحنيف قد اختص من بين جميع الاديان بأنه أكملها معنى وأجملها مبنى وأوضحها بياناً وأقواها حجة وبرهاناً وأوفاها بمصالح الانسان الدنيوية والاخروية **« اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً »** فأنعم به من دين دين أساسه التوحيد وروحه الاخلاص والمحبة وشعاره العدل والانصاف بين الناس والصدق والامانة والتسامح والرحمة .

في كل عبادة فيه تطهير للنفوس من الرجس والعصيان وكل معاملة فيها حفظ لنظام العالم من الفوضى والاضطراب حتى يصير في امان وهو بالاجمال دين الفطرة السليمة والاخلاق الكريمة بل دين المدنية الحقة في كل زمان ومكان .

فيا فوز من صرف وقته في إصلاح دينه ودنياه ويا سعادة من عمل بها يحب ربه ويرضاه وياهناءة من خالف نفسه وهواه .

يعيش الانسان تارة في عز وهناء وطوراً في بؤس وشقاء ثم ينتقل من دار

الفناء الى دار البقاء فيفني ويفنى معه كل شيء الا الدين كما قال ﷺ : إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع بـه أو ولد صالح يدعو له بخير ورحم الشاعر الذي قال :

كل شيء مصيره للـزوال غير ربي وصالح الاعمـال

قد يصاب الانسـان في ماله اويفجع في عياله اويرزا في عافيته وصحته فيتركه صديقه ورفيقه وقريبه ولا يبقى له شريك في الخضراء والسراء اوصديق في الفقر و الغنى اورفيق في الحزن والسرور سوى الدين يتسـاسى به ويتخذه سلوة لـه

قد ينتقل الانسان من بلد الى بلد ويستبدل اهـلا بأهل فلا يناله من أبيه وأمه وإخوته حين يفارقهم الا دمعة وداع ترسلها العين او دعاء ينطق بها الفم ولا يناله من اصدقائه الا كلمة تشجيع ونظرة توديع ودعـاء له بالسلامة في الذهاب والاقامة حتى اذا مضى وابتعد عنهم شعر من نفسه بذلك الرفيق الذي يذهب وحشته ويؤنس وحدته ويبث في نفسه الصبر والتسلية والاحتمـال هذا الرفيق الصديق هو الدين

وقد يمرض الانسـان فتتمشى العلة في جسده ويدب الوهن في عظمه وحوله من الاهل والمـال والأولاد مالا يدفع عنه بعض ما به من الآلام والاسقام فـلا يجد وسيلة الى النجاة من المرض الا التضرع الى الله بقوله : يارب أسألك الشفاء والعافية من شر ما أجد من البـلاء ويتردد في نفسه قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : **« الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين »** ومتى شعر الانسـان بدنو أجله كانت التوبة الى الله أول شيء يتحرك به لسانه والإستغفار أول ما يجري في صدره وكان آخر ما يعتمد عليـه تلك العقيدة المستكنة في نفسه وهي عقيدة الدين فهي التي تهـون عليه سكرات الموت وتذهب عنه الخوف والهلع من العقاب ويميل بهـا الى حب الدار الآخرة ويقول . في نفسه : **« مرحباً مرحباً بلقاء ربي »** ، فلو علم الانسـان ما وراء هذه الحيـاة من نعيم مقيم أو عذاب أليم ما اتخـذ لنفسه طريقا سوى الطريق

المستقيم لاطريق الضالين ، قال تعالى : **فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى** ولئن سألت صاحب الدين عن دينه لأجابك أن عزته بدينه قبل عزته بنفسه وإن عرضت عليه أن يترك دينه أو أن يقتل ؟ أجابك بلا تردد : القتل أحب إلي من الكفر كذلك الأمة التي تكون متمسكة بدينها ترى أنه وسيلتها إلى السعادة ولا ترى عليها حرجا في أن تعلنه وتنشره في الناس وتدعو إليه بكل الوسائل المشروعة .

فهل للملحدين الخارجين عن الدين باسم المدنية الكاذبة أن يعتبروا ويتعظوا ويعلموا أن خروج أرواحهم من أجسادهم خير لهم وأشرف من هذا الخروج الفاجر .

قرأت كلمة عن « **بسمارك والدين** » في تاريخ المرحوم الاستاذ **الامام الشيخ محمد عبده** رحمه الله أذكر لكم خلاصتها ففيها عبرة لمن يعتبر .

قال **بسمارك** : إني لا أفهم كيف يعيش قوم وكيف يمكنهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات إذا لم يكن لهم إيمان جاء به وحي سماوي وإعتقاد في اله يحب الخير وينتهي إليه الفضل في الأعمال في حياة بعد هذه الحياة ثم قال : إذا لم أضع ثقتي في الله لم أضعها في سيد من أهل الأرض قاطبة . لكن أنظروا إلي تجدوني قد ملكت من موارد الرزق ما يكفيني وارتقيت من المناصب مالامطمع بعده ، فلماذا أشتغل ؟ ولم أجهد نفسي في العمل ولم أعرضها للهموم والآلام ؟ إنه لا يبعثني على ذلك إلا شعوري بأنني في جميع هذه الأعمال أعمل عملي لوجه الله تعالى . لو لم يكن لي إيمان بالعناية الإلهية التي قضت بأن يكون لهذه الأمة الألمانية شأن كبير وأثر في الخير العظيم لطرحت لساعتي ما أحمله من أثقال أعمال الحكومة . ثم ماذا أقول : أقول لولا ذلك الإيمان لما قبلت شيئا من هذه الوظائف لأن الرتب والألقاب لا بهاء لها ولا قيمة لها في نظري ولولا يقيني بحياة بعد الموت لما خدمت وطني . أسلبوني هذا الايمان تسلبوني محبتي لوطني .

هذا كلام **بسمارك** السياسي الألماني الشهير وهو يدلنا على أن هذا الرجل العظيم كان يعتقد أن عظائم أعماله إنما كانت من مظاهر إيمانه وأن الإعتقاد بالله واليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما إلى مراتب السيادة وأوج السعادة في دولته وأمته .

ورحم الله الشاعر الذي يقول في هذا المعنى :

لا نلت ما نلت من عز ومن كرم   إن لم أوف لشرع الله بالذمم
وإن أنا لم أكن بالدين معتصماً   فلا ترقت إلى هام العلى هممي

ونحن نحمد الله ونشكره على نعمة الإسلام التي تنبه لها غالب الأقطار الإسلامية وصاروا يفكرون في الأخذ بأسباب دينهم الذي ساد به سلفهم وهو دين الفطرة من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب »**

الدين المعاملة

قال رسول الله ﷺ : الدين المعاملة

هذا موضوع جليل الشأن له آثار ظاهرة في حياة الشعوب لذلك جعله النبي ﷺ نفس الدين لأن حسن المعاملة في البيع والشراء والأخذ والعطاء تتأكد به رابطة المحبة بين الناس وتقوى روح التضامن والتعاون بينهم وتتربى ملكة الأخلاق في نفوسهم وتحيا عاطفة العفة فيهم ومن وراء ذلك سعادة الأمة ونماء الثروة وجزيل الأجر في الدنيا والآخرة .

لأجل ذلك إهتم الدين الإسلامي بهذا الموضوع فحرم الغش والخيانة والتدليس والزور وكل ما يضر بنزاهة البيع والشراء لأن أكثر شيء تظهر فيه الأمانة في المعاملة هو البيع والشراء حيث تكون المطامع النفسية في المكاسب والأرباح فهناك يظهر الصادق النصوح والكاذب الغاش وآكل الحرام وآكل الحلال والأمين والخائن .

لهذا وجب أن يكون البيع والشراء مبنيين على الأمانة التي هي أفضل شيء يتحلى بها الإنسان لأن الأمانة هي معيار الإيمان وميزانه فبقدر ما عندك منها يكون إيمانك وإذا إفتقدت فلا إيمان لقول النبي ﷺ « لا إيمان لمن لا أمانة له » ، فبضياع الأمانة تضيع الحقوق ولاسيما حقوق الضعفاء فكم من ضعيف ساذج يشتري مقداراً من الشيء فيأخذه بلا تحقيق من صحة كيله أو وزنه وهو يظن أن البائع أوفى له الكيل والميزان وهو في الواقع قد خانه بنقص دون أن يعلم فيكون قد أخسره من حقه الذي حصله بتعب ومشقة لأجل عياله وأطفاله والبائع يأكله بسهولة ظلماً وزوراً فويل لفاعل ذلك إنه لص يأكل أموال الناس

بالباطل فكيف يبارك له الله في رزقه وعيشه فعمله هذا دليل على عدم إعتقاده بيوم الجزاء الذي يقف فيه الناس للعرض على خالقهم وذلك مصداق قوله تعالى :

« ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون الا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين » ففي هذه الآية زجر شديد لهؤلاء القوم الذين قست قلوبهم فلا يبالون بأكل أموال الناس بالباطل فإذا باعوا الناس ينقصون الكيل ويخسرون الميزان وإذا اشتروا منهم يزيدون فيهما وهؤلاء لهم عند الله أسوأ الجزاء في الدنيا والآخرة فخير للتاجر أن يعمل بالصدق والنصحية فذلك يكسبه ثقة الناس به لأن ثقة الناس بالتاجر هي مفتاح سعـــادته وطريق نجاحه ومتى عرف التاجر بالصدق واشتهر بالأمانة أقبلت عليه الناس وهل ينتظر التاجر ثروة أحسن من إقبال النـاس عليه تلك هي غايته في دنيـاه وله عند ربه فوق ذلك نعيم دائم ومكانة عالية لأنه نصح لأمته فلم يغشها ووقف عند حدود دينه فلم يخرج عليه وصدق الرسول عليه السلام الذي يقول : «التاجر الصادق الأمين مع الشهداء يوم القيامة » .

فإذا أردت أيها التـاجر أن يكون رزقك حلالاً وربحك مباركا فاجعل كيلك وافياً في الحبوب أو في الأقمشة عند قيسها بالأذرع أو الأمتار وإيـاك ثم إياك أن تمدح سلعتك بمـا ليس فيها فتبيعها بذلك المديح أو أن تجعل الأيمان الكاذبة في بيعك فإن الكثير من التجار يعتقدون أن هذه الأيمان من المروجات للبيع ولكن ليعلم هؤلاء أنهم على خطإ كبير في ذلك إذ أنهم يخالفون أمر شريعتهم وقد قال رسول الله ﷺ **« اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب »** ومعنى هذا أنه على فرض أن يكون صادقاً في حلفه وأن سلعته تروج بحلفه فإن الله تعالى لا يبارك له في ثمن سلعته إذ لا يليق بـه أن يجعل إسم الله عرضة في أمور الدنيا بدون ضرورة تدعو إلى ذلك .

لقد قص لي صديق قصة فيها عظة وعبرة : تلك أنه كان في مدينة تونس بائع قمـاش فإذا حضر لديه من يريد الشراء أمر الصانع أن يـأتي له بقهوة وبعد تناول شرب القهوة يضع أمامه أنواع الثيـاب والذي يساوي خمسة دنانير يثمنه

بعشرة بعد أن يؤكد له ويحلف أنه لم يغبنه لأنهما أكلا وشربا سويا فيستحيي الرجل أن يغادر المنزل بدون شراء فيستسلم للأمر ويعقد معه الصفقة إن راضياً وإن كارها وكان هذا ديدنه وبهذه الحيلة الجهنمية كان يبتز الأموال من الناس وما زال هذا شأنه إلى أن انتقل إلى رحمة الله فخلف ما خلف ولكن ذهب بعد وفاته بقليل قال الراوي : وقد رأيت بنفسي وشاهدت بعيني رأسي أحد أولاده وهو يشتغل عاملاً بسيطاً لقوت يومه ولم ينفعه ذلك الغبن الفاحش ولم تفده تلك الأموال بهذا السبيل الباطل ولقد صدق رسول الله ﷺ في قوله (**اليمين الفاجرة منفقة للسلعة محقة للكسب**) رواه البخاري ، ما هكذا ايها التجار

يكون الكسب وما هكذا يكون الربح وما بتلك الحيل تتكون الثروة ويجمع المال ولكن بالصدق والشرف والأمانة وفي حدود العقل والدين فالتجارة كسبها طيب وربحها حلال إذا خلت من الغش والتمويه والكذب وإن التاجر الصدوق الأمين تحت ظل العرش يوم القيامة يوم تدنو الشمس من الرؤوس ويشتد الكرب. فأعلموا أيها التجار بتعاليم دينكم تجزون رضا الله ورضا الناس ومحبتهم فتروج بضاعتكم وتربحون في تجارتكم وتحل البركة في مالكم وتنالون في الآخرة منازل الأبرار .

ماهو الزهد في نظر الدين

اعتادت أسماعنا وألفت أذهاننا من أن الزهد هو ترك الدنيا والانزواء في زوايا البطالة والكسل بدعوى أن الدنيا للكافرين وأن الآخرة للمسلمين فلا ينبغي للمسلم أن يتكالب على الدنيا التي أعدت لأصحاب الجحيم.

وقدكان لشيوع هذه الفكرة وأخذ الناس بها أثر سيء ضار في الشعوب الإسلامية إذ نتج عنها تقلص ظل المال من أيدي المسلمين ونشوب مخالب الفقر فيهم حتى أصبحوا لا يستطيعون أن يجدوا من رؤوس الأموال العظيمة ما يمكنهم أن يستخدموها في مصلحة المسلمين وترقية شعوبهم ومنافسة الأمم الأخرى في ميادين الحياة العملية والاقتصادية وهذه الفكرة خاطئة لأن من سنن الله المطردة في البشر أن المصالح الدنيوية ترتكز على الأموال الوافرة فكلما زادت ثروة الأمة أصبحت قادرة على القيام بالمشاريع الحيوية اللازمة لصيانتها من عوامل الانحلال والتلاشي والزوال فالأمم القوية السائدة اليوم في هذا العالم هي التي تملك القسم الوافر من الذهب والفضة وهي التي تلقب بالأمم المتمدنة المتحضرة ويحق لها أن تدعي ذلك لأن المال قد رفه الحياة فيها وجعل أهلها في ترف ونعيم ورغد من العيش.

إن المشاريع العمرانية العظيمة النتائج لا تنتقل من حيز القول إلى حيز العمل إلا بالمال وبالمال يتسنى لها أن تخرج إلى عالم الوجود وتنفع الملايين من بني الإنسان.

فالأمة الزاهدة هي الأمة المحتقرة بين جميع الأمم لا يبالي بها أحد يأذيها الأقوياء ويشدون خناقها ويعصرون البقية الباقية فيها. أما الأمة الغنية فهي الأمة التي ترفع علم المدنية عاليا وهي المنار الذي يشع على العالم فينير ظلماته الحالكة

وهي التي تقدر على القيام بإنشاء مؤسسات علمية وأدبية وآقتصادية تعود عليها وعلى بنيها بالخير .

فلنفهم أبناءنا أن ميدان العمل فسيح الأرجاء و لنحثهم على أن يشتغلوا ويعملوا حتى يتمكنوا من الحصول على المال الذي به قوام الأعمال .

فهو اللسان لمن أراد فصاحة وهو الحسام لمن أراد قتالا

فالدين الإسلامي يريد من أهله أن يعملوا ويفكروا في الطرق المشروعة لكسب المال ليرتفع شأنهم لأنهم أحق الناس بأن ينتفعوا بنعم الله يدلنا على ذلك قول الله عز وجل : **قل ومن حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين ءامنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة .**

ومن عظيم ما يروى تفسيراً عملياً لهذه الآية أن **الامام مالكا** رضي الله عنه لبس الدقاق وأكل الرقاق وجلس على الوطيء واتخذ حاجبا ولما عابه **يحي بن يزيد النوفلي** قال له الإمام : قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق .

وقد مدح أحد الشعراء **عمر بن عبد العزيز** رضي الله عنه فقال :

تشاغل الناس بالدنيا وزينتها وأنت بالدين عن دنياك مشغول

فأجابه **عمر** رضي الله عنه بقوله : ما زدت علي أن جعلتني عجوزاً في كسر بيتها هلا قلت كما قال القائل :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

وكأنه يشير إلى قوله تعالى : **ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين** أي أطلب الآخرة بما اتاك الله من الدنيا ولاتنس نصيبك منها لأن من أهمل مصالح دنياه ضاع منه كثير من مصالح أخراه فالإسلام يريد من أهله أن يعملوا ليرتفع شأنهم خاصة في هذا العصر الذي طغى فيه سلطان المال وأصبح متحكما في حياة الأمم فمن ظن أن الإسلام يريد قطع العلائق بين الناس والدنيا فهو جاهل تمام الجهل إذ كيف يتسنى للمسلمين أن يقوموا بتأسيس المصانع الإقتصادية وإنشاء المدارس العلمية التي

هي قوام نهضة الأمة وليس بأيديهم من المال ما يمكنهم من تحقيق ذلك كله أو بعضه وكيف يدعو الإسلام إلى ترك اكتساب المال وهو يقرر أنه قوام الحياة ويحظر إعطاءه للسفهاء ويحرم تبذيره كما قال تعالى : « **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيما** » وقال : « **إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين** » فشرع الحجر على من كان سيء التصرف في الأموال حتى يرجع إلى رشده فتعاليم الإسلام ومقاصده العامة تدل على أن الزهد في الدنيا ليس معناه لبس الخشن من الثياب وأكل الجاف من الطعام والتجرد من الطيبات وإنما هو اتباع سبيل القصد والاعتدال في الاستمتاع بالحياة الطيبة الكريمة وعدم تعلق القلب بالدنيا تعلقاً يشغل الإنسان على ما فاته منها ولا يفرح بما آتاه الله فرحاً يصده عن ذكر الله وذلك لا يمنع من أن يكون الإنسان غنياً ما دام غناه لا يفتنه وقد عبر الله عن هذا المعنى بقوله : **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** » وسئل **الامام احمد** رحمه الله عمن يملك المال هل يكون زاهدا فقال إن كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصه فهو زاهد » وروى علي بن مزاحم قال : أتى النبيء ﷺ رجل فقال : يا رسول الله من أزهد الناس فقال من لم ينس القبر والبلى وترك زينة الدنيا وأثر ما يبقى على ما يفنى وعد نفسه من الموتى وأقوال السلف في معنى الزهد أكثر من أن تذكر في هذا المقام وكلها تدل على أن الزهد ليس بالإعراض عن كسب المال وإنما هو بعدم الامتنان به وبتذكر الموت والقبر فإذا زهد الإنسان في الدنيا ولم يملك حبها قلبه تفرغ لطاعة الله وذكره وبذلك يحبه الله ويرضى عنه ولقد سعد المسلمون في الصدر الأول بالعمل للدنيا والآخرة فأتتهم الدنيا راغمة وفتح لهم الله مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم ملك الفرس والروم وجعلهم سادة الأمم وحكام الشعوب .

الدين الإسلامي وما كفل للمسلمين

كان الدين الإسلامي آخر الأديان ظهوراً ولذا اشتمل على كل ما يوصل النفس البشرية إلى درجة الكمال ويجعل من الإنسان المثل الأعلى في الفضائل وكريم الخصال فهو دين الفطرة الذي يصلح لكل زمان ومكان ولا نسخ له ولا تبديل ولا تغيير .

هذا الدين الذي أنزله الله على نبيه المصطفى المختار ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وسجله في كتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه **« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم »** وكان من آياته عجز المكابرين عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (أي معيناً) هذا الدين القويم يتغلغل في نفس الإنسان تغلغل الدم في العروق بل تغلغل البرء في الجسم السقيم ينظم له حياة طيبة تلازمها الحركة والنشاط حتى تبقى فيه الحياة.

أليس عجيباً أن علمــاء الصحة في هذه العصور ينادون بضرورة النظافة وهذا الدين يحتم على المرء أن يغسل يديه ووجهه وأنفه وعينيه وأذنيه وساعديه ورجليه كل يوم خمس مرات ويحتم غسل سائر الجسم في بعض الأحوال الذي يعتريه فيه فتور وضعف ؟

أليس من تحصيل الحاصل أن ينادي الرياضيون في العالم بضرورة الألعاب الرياضية لجسم الإنسان لكي يكتمل نموه ويحفظ عليه كيانه وهذا الدين يأمر الناس شيباً وشباناً رجالاً ونساءاً أن يأتوا بحركات رياضية على أحدث مثال

تتحرك فيها أيديهم وأرجلهم وظهورهم وبطونهم ورقابهم وسائر عضلاتهم في الصباح الباكر وعند الظهيرة وعند الغروب وعقب العشاء في غسق الليل . هذه هي الصلاة كفلت لنا الرياضة الجسمية والروحية في قوة وخشوع فهل زاد الرياضيون على فكرة تنشيط الجسم وإنعاشه شيئاً ؟

أليس من المدهش أن يذهب علماء الطب في الوقت الحاضر مذهباً جديداً يدعون فيه إلى نوع جديد من العلاج ويبرهنون على فوائده في شفاء العلل والأسقام ذلك الدواء هو الامتناع عن الطعام عند المرض وهي حكمة سامية أخذوها من الإسلام ثم جاءوا يدعونها لأنفسهم وقد قال حكيم العرب قديماً : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء . »

ليست هدية المقوقس إلى المصطفى ﷺ بغائبة عن الأذهان فقد أعاد إليه رسول الله الطبيب وقال : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » ففهم المقوقس من هذا أنه لا حاجة له في الطبيب لأنه طبيب نفسه .

من هذا تتجلى الحكمة الإلاهية من فرض الصوم على كل قادر أياماً معدودات حتى يكتسب الإنسان مناعة ضد الأمراض وترقى روحه إلى درجة الكمال وحتى يشعر بألم الجوع فيعطف على الفقير وعلى البائس والمسكين أليس مما يدعو إلى الإعجاب أن تفطن الأمم الحديثة إلى وجوب إرسال الوفود وتبادل التمثيل السياسي في سائر الأقطار للتعارف وتبادل المنافع ودراسة أخلاق الشعوب وقد كان الإسلام أسبق في تفهيم الناس مغزى التعارف ففرض على الناس الحج إلى بيت الله الحرام الذي هو بمكة هدى للناس ورحمة يفدون إليه من كل صوب وحدب «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم» هذا هو الدين الإسلامي والدستور الشامل لكل مرافق الحياة كفل النظافة والرياضة والصحة وتبادل المنفعة وكان قانوناً شاملا لتنظيم علاقات الزوجية وغيرها فسن قانون المواريث على أبدع مثال وضرب المثل الاعلى في المساواة بين العباد كما سد حاجة الفقراء والمساكين بما كفل لهم من زكاة وصدقة حتى لا يثوروا على النواميس ولا يحاولوا هدم الأنظمة والشرائع .

هذا هو الدين الحنيف الذي علم الناس الأدب والمحافظة على الوعود والوفاء بالعهود وحثهم على الاقتصاد كما حثهم على الاتحاد ودعا إلى الشورى والعدل ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وحرم الربا والميسر والخمر وأوصى بالحرص على مال اليتامى . . .

هذا هو الدين الإسلامي الذي آرتضاه الله لخير أمة أخرجت للناس يرسم لهم طريق الخير ويوجههم الى ناحية الحق ويهديهم الى سواء السبيل ولم يتركهم هملا كالأنعام السائمة ترعى حيث طاب لها المقام بل أبان لهم بنور النجدين طريق الهدى وطريق الشر وهو مع هذا أباح لهم التمتع والتزين مما حبا بهم ربهم من نعم في صورة ليس فيها إيذاء لجسمهم ولا لروحهم « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق »

هذا هو الدين الشديد مع عطف ، القوى في غير عنف يرخص للإنسان الفطر إذا مرض والتيمم إذا لم يجد ماء أو خشي على جرحه العلة وبطء البرء كما رخص في الصلاة قاعدا أو نائما إذا كان القيام غير ميسور ولا يوجب الحج إلا على من استطاع إليه سبيلا فهل بعد هذا دليل على التسامح والتساهل يفرض على الناس الفرائض ولا يرهقهم في آدائها ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

أثر الإسلام في تقويم الأخلاق

جاء الإسلام والعرب أمة تتخبط في ظلمات الجهالة وتترامى في أحضان الخرافات والعادات المرذولة نفوسهم جامحة وقلوبهم غليظة لا متحدين ولا مؤتلفين ولا هم لهم إلا السلب والنهب ضلوا سواء السبيل فلا يميزون بين القبيح والمليح والضار والنافع كما قال الله « **فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** »

إني لأعجب لما كان عليه هؤلاء الأعراب فقد كانوا يئدون البنات ويقتلون الأولاد خشية الفقر ويجهلون أن الله هو الذي خلقهم وهو الذي يطعمهم ويسقيهم وإذا مرضوا فهو يشفيهم « **واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون** » .

جاء الإسلام والعرب جميعا في سبات عميق يلهون ويلعبون ويمرحون ويطربون حتى إذا ما اختمر الشراب في الرؤوس فهناك الطامة الكبرى والبلاء المبين لإنه لا رادع يردعهم ولا وازع لهم من يقين يقيمون الأسواق لا للمبادلة والتجارة ولكن للمفاخرة وكم اعتلى خطباؤهم المنابر وارتقوا ظهور الإبل للمباهاة بالأحساب والأنساب وإفشاء المكنون من الأسرار وربما كان من وراء ذلك الحرب الشعواء التي تجتاح الديار وما فيها من الأبرياء فتعظم البلايا والكروب والويل يومئذ للمغلوب .

من هذا يتبين أن الإصلاح الذي جاء به محمد ﷺ شاق والطريق إليه وعر

ومحفوف بالأخطـار . رجل يبعث لقوم يعيثون في الأرض فساداً وقد امتلأت أدمغتهم كبراً وعناداً .

وكيف يتسنى لفرد كائن من كان أن يعادي أمة بأسرها تعيش في الضلال ولا تميز الحرام من الحلال ؟

اللهم لا كفران فما كان لمحمد أن يقوى على احتمـال هذا الأمر لولا قوة الله ومـا كان له من بأس ولا حول لولا إمداده وعونه « ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا »

جاء محمد فأخذ يدعو إلى عبادة الرحمن وينفر من طاعة الشيطان فوجد أقواماً ضالين **« واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آبـاءنا او لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون »** .

أخذ النبي ﷺ يضرب لهم الأمثـال ويأتي بالحجـة والبرهـان ويستدل بوجود المخلوق على الخـالق ويمهد لهم السبيـل إلى تحكيم العقـل حتى يتبينوا الضار من النافع والغي من الهدى والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ثم أراد لدينـه انتشاراً فدخل الناس فيه أفواجاً . فـلس قيادهم وألف بين قلوبهم وآخى بين مهاجريهم وأنصـارهم وخفف من غلوائهم وكبـح من جماحهم ثم عرفهم أنهم في نظر الدين سواء لا فضل لأحد على أخيه إلا بالتقوى ولا شرف إلا بالإيمان وطاعة الله الذي يعلم السر والنجوى .

نزل القرآن فيه آيات بينات من الهدى والفرقان فأنار الطريق وحث على الفضيلة ومكارم الأخلاق فكان لهم نبراساً وسراجاً منيراً فاهتدوا بعد ضلال واجتمعوا بعد تفرق **« لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم »** ثم خلصهم من كثير مما كانوا فيه من ضلال وخسران وجفاء وزور وبهتان ودعاهم إلى تحكيم العقـل وإلى التفكير **« او لم ينظروا في ملكوت السموات والارض »** فحطموا أغلال العقل وكسروا أصفاده بعد أن لبث زمنا سجين الخرافات رهين الخزعبلات .

وأصبحوا بنعمة الله أصحاب مجد وقوة وعلوم وفنون وحضارة فتهذبت نفوسهم وتقومت طباعهم وتثقفت عقولهم فبدلا من الكفر والإلحاد أخذوا يعبدون الله وقدموا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله فهاجموا **كسرى وقيصر** في عقر دارهما ووضعوا أيديهم على ما كان لهما من كنوز ونفائس وملك عريض وأخذوا يحنون على بناتهم وأولادهم بعدما كانوا يقتلونهم وتبدل الجهل بنور العلم وأصبحت الدولة العربية ذات سيطرة عظيمة تتزلف إليها الملوك والحكام والقياصرة .

أسأل الله أن يملأ قلوبنا بمحبة هذا الرسول الكريم وأن يوفق الأمم الإسلامية إلى التمسك بدينه القويم .

الإيمان وأثره في النفوس

روى البخاري بسنده إلى النبيء ﷺ انه قال : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وإن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار .

يرشدنا هذا الحديث أن الانسان : إذا وجدت فيه ثلاث خصال كان لإيمانه حلاوة في نفسه يحسها كما يحس ويشعر بحلاوة السكر والعسل

الخصلة الأولى : أن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل شيء غيرهما فتمتزج محبة الله ورسوله بلحمه ودمه فيجد حلاوة الإيمان في نفسه ولا يحس بحرارة التعب والشقاء ولا يتألم بالفقر والجوع ولا بشدة العذاب إذ انزل به من الأعداء فهذا بلال رضي الله عنه كان يعذب بالنار ويوضع على الرمضاء في الظهيرة وشدة الحرارة عارياً من الملابس ليرجع عن الإسلام فلم يكن يهتم بذلك كله بل كان لسانه لا يفتر عن ذكر الله ويقول « أحد » فمزجت حلاوة الايمان بحرارة العذاب فغلبت الحلاوة فلم يحس العذاب .

وهذا خبيب أسره مشركوا مكة وقيدوه بالسلاسل والأغلال وأذاقوه من العذاب ألواناً وشحذت السكين لتقطيعه إرباً إرباً وأرادوا أن يختبروا إيمانه قبل القتل فقالوا له : أيسرك يا خبيب أن نتركك تذهب إلى أهلك وتعيش في أولادك ونقتل محمداً بدل منك ؟ فابتسم ابتسامة الهازيء بهم الساخر من قولهم وقال لهم ما أجهلكم والله ما يسرني ان محمداً تصيبه بشوكة في رجله وأنا بين اولادي واهلي وعند ذلك اجمعوا على قتله وقبل ان يقتلوه انشد يقول :

وقد خيروني الكفر والموت دونه ... وقد دمعت عيناي في غير مجزعي

ولست ابالي حين اقتل مسلماً ... على اي جنب كان في الله مصرعي

وقد فتن المسلمون في مبدإ الإسلام فكان الرجل منهم إذا دخل في الإسلام واقتنع بحججه وبيناته لم تقدر قوة في الوجود على إخراجه منه يبتلى في ماله وأهله ونفسه ووطنه لأجل الإسلام ويأبى أن يبغي به بديلا . أسلم عمار بن ياسر وأمه وأهل بيته فعذبوا في الله عذاباً شديداً وكان رسول الله ﷺ إذا مر بهم أم يعذبون يقول : صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة . إن الأمة لا تبعد عن الخير إلا بعدها عن التذكير وكلما وجدت عالماً مذكراً ومرشداً عرف كيف يصل إلى قلوبها ويهديها إلى الحق والخير أجابت داعي الله ونفعتها الذكرى .

الخصلة الثانية : أن يحب المرء لا يحبه إلا لله يعني أن الرجل يحب الرجل لكونه مسلماً مستقيماً مطيعاً لله لا لأنه يحبه لغرض دنيوي من مال وجاه وغيرهما وهذه المحبة كانت متجلية واضحة في العصر الأول فكان الواحد منهم يجوع ليشبع أخوه ويعطش ليسقيه يدل على ذلك ما كان بين المهاجرين والأنصار من إيثار ومحبة فكان الأنصار يدخلون إخوانهم المهاجرين إلى بيوتهم وينفقون عليهم من أموالهم ويقدمونهم على أنفسهم ولو كان بهم مجاعة لذلك اثنى الله عليهم في قوله : ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

وسأقص على حضراتكم قصة صغيرة تدلنا على مبلغ المحبة الأخوية التي كانت موجودة بين أفراد الجامعة الإسلامية الأولى عسى أن يكون فيها لأبناء الإسلام في هذا العصر عظة وذكرى فيتخلقوا بأخلاق سلفهم الصالح ويتصفوا بصفاتهم إذا كان لهم رغبة في إنقاذ دينهم وقد أحاط به الأعداء إحاطة السوار بالمعصم ولو عرفتم أن قلوبهم تغلي عداوة وأن تلك الضغائن يتوارثها صغيرهم عن كبيرهم لهزتكم الحمية على دينكم وأخذتكم الغيرة على نبيكم وإليك القصة حدث : واحد ممن شهدوا وقعة اليرموك فقال : ذهبت بعد الوقعة إلى حيث جثث المستشهدين أتفقد ابن عم لي فرأيته يعالج سكرات الموت فقلت أسقيه لئلا يموت ظمآن فأخذت إناء ماء وأشرت إليه بالإناء فأشار بالرغبة فيه فما أن دنوت منه حتى سمع أنة مريض بجواره فأشار إلى أن أسقيه فذهبت إلى الثاني وعرضت عليه الماء فسمع أنيناً بجواره فاعرض وأشار أن أذهب إليه إلى هذا الثالث فوجدته قضى نحبه فرجعت إلى الثاني فرأيته أسلم الروح لربه وعدت إلى ابن عمي فوجدته جثة باردة .

أرأيتم أيها الأخوان إلى هذه الأرواح الطاهرة التي تؤثر غيرها عليها في ساعة هولها عظيم وألمها جسيم . بمثل هذه المحبة وهذا الإيثار على النفس ظهر الإسلام على جميع الأديان بمثل هذه الشهامة العالية والإحساس الشريف والقلوب الطاهرة ترقى الأمم وتسمو هذه المحبة التي يدعو إليها الاسلام هي مناط كل سعادة اجتماعية وكل مدنية حقيقية لأجل ذلك جعل أول شرط من شروط الإيمان هو التحاب لقوله ﷺ « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا » ويجب أن تكون المحبة بين المسلمين صادقة خالية من شوائب الرياء والدهان وإلا صارت نفاقاً إن لم ينكشف سره اليوم ففي الغد ولهذا يجب السعي في تطهير تلك المحبة وجعلها خالصة لله ولن يتم له ذلك إلا بالتبصر في مبلغ علاقته مع بني ملته وفي نتائج ركونه إليهم وابتعاده عنهم وفي عواقب الإخلاص لهم حتى يرى رأي العين أن حياته مرتبطة بحياتهم وموته بموتهم إذا تم له الحصول على هذا التبصر كما يجب يجد نفسه مسوقاً رغم أنفه إلى إخلاص الحب لبني ملته . ونحن نتأسف الآن أشد الأسف حيث نزلت الأثرة وحب النفس مكان العطف وحلت القسوة مكان الرحمة وغلت الايدي إلى العنق بدل البذل والسخاء في مواقف الشرف فلا عجب أن يصبح مجموع من تتمكن منهم الخلال الفاسدة عبيداً أرقاء .

إن الدين الإسلامي قد أناط بكل فرد من أفراد المسلمين واجب السعي في إعلاء كلمة الدين وإن أعظم ما يثاب عليه المسلم السعي وراء تحقيق السعادة وإعلاء شأن الأمة المحمدية .

فعلى كل مسلم ومسلمة أينما كانوا أن يجاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الدين وأن يكون الرجل مرشداً لبيئته كما تكون المرأة مرشدة لمن حولها بهذا تزداد ثروة الإتحاد والتمسك بالدين على مر الأيام . وبذلك أيضاً تكون هذه النفحة الروحية سبباً للحياة والقوة والنشاط فالأمة جسد والأمل روحه الذي يسري فيه ويتسلط عليه ولا حياة للامة بغير الأمل .

الخصلة الثالثة : إن الإنسان إذا ذاق حلاوة الإيمان يصير الكفر عنده قبيحاً بشعاً فهو لقوة إيمانه يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار إذا

وجدت هذه الخصال في المؤمن دل ذلك على كمال يقينه وقوة إيمانه وهناك يجد سعادة دونها كل سعادة ولذة لا أعظم منها لذة ولا يرجع عن دينه مهما عذب في سبيله بأنواع التعذيب ومهما لقي من أعدائه من شدة وعنف وأرهاق

نسأل الله أن يرزق المسلمين تبصراً في دينهم حتى يستطيعوا أن يروا الإسلام بالعين التي يجب أن يرى بها .

الإيمان منبع الحياة ومنبع القوة

إن الله سبحانه وتعالى كلف عبده بعبادته وألزمه بطاعته وبعث إليه رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم مبشراً ونذيراً وداعياً إلى ربه بكتاب من عنده هو دستور البشر يهديه إلى تعرف سنن الله في الكون ويعرفه طريق السعادة ويحذره مسالك الشقاء لئلا تكون للناس على الله حجة ولقد كان من عظيم فضل الله على بني الإنسان أن اصطفى لهم هذا النبي الكريم صاحب القلب الطاهر والعقل الراجح وأمده بروح منه وأيده بالآيات البينات والحجج الواضحات ليبين للناس طريق سعادتهم ويبشرهم من آمن بدعوته بحسن الثواب وينذر من أعرض عنه بشديد العقاب قال تعالى : **« ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى »**. وقال تعالى **« ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه »**.

أوجب الله تعالى على الإنسان أن يسعى ويعمل في هذه الدنيا ليستمتع بالحياة في غير تقتير ولا إسراف فقال تعالى : **وان ليس للانسان الا ما سعى . « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً »** وطلب المؤمن ان لا يغلو في طلب الاخرة فيهلك دنياه وينسى نصيبه منها فذكره بما قصه عليه أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله في الدنيا إذ قال : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا واحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين . »

أباح الإسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشتهيات على شريطة القصد والاعتدال والوقوف عند الحدود الشرعية قال تعالى : **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد و كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب**

المسرفين • قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الايات لقوم يعلمون » .

طلب الاسلام معتنقيه بان السلام في الحياة وطمأنينة النفوس ليس لها إلا طريق العمل الصالح « فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ولا يأتي الإصلاح إلا عن طريق مجاهدة النفس في كبح جماح شهواتها والصبر على الأذى في التمسك بالحق قال تعالى « اقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور » وقد صبر الأنبياء على من آذاهم حتى نصرهم الله وهزم اعداءهم قال تعالى : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا واوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبا المرسلين . »

وصبر المستضعفون من بني إسرائيل على أذى فرعون وظلمه حتى ورثوا ملكه وأصبحوا هم الأعزاء الغالبين قال تعالى : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يشعرون .

وصبر قوم عيسى عليه السلام على كيد الكافرين حتى أظهرهم الله على أعدائهم ومكن لهم في الأرض قال تعالى مخاطباً عيسى عليه السلام « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة . »

وكان محمد ﷺ خير العابدين فنصره الله نصراً مؤزراً وفتح عليه فتحاً مبيناً وأنزل سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » . وليس من الحكمة أن يظن ظان أن الصبر على الظلم مع القدرة على دفعه مندوب أو جائز بل دفع الظلم واجب على كل فرد . قال تعالى : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات

ومساجد يذكر فيهـــا اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز . »

إذا كان الإسلام طالب بالصبر واحتمال الأذى فقد أمر أيضا أن لا يذل الإنسان نفسه بل يجب أن يربأ بها عن مسكنة والإستسلام امروي لا، لا يذهب بها إلى حد العجرفة وضياع وقته فيما لا يجدي بل عليـــه أن يلزم حد الاعتدال والكمال قال تعالى : « **ولا تصعر خدك للناس ولا تمشي في الأرض مرحا واقصد في مشيك واخفض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير** » حسد العفو وامر بالمعروف واعرض عن الجاهلين طالب الإسلام المؤمنين بإقامة العدل بينهم ليبقى وجودهم قوي الدعائم متين البنيان إذبه يستتب الامن وتصان حقوق وتعمر البلاد وتسعد العباد وقد امر الله به في حكم تنزيله فقـال « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان** » أما الحكماء فقد بينوا فضله وثمرته فقالوا « عدل السلطان أنفع من خصب الزمان » وقالوا : « العدل أساس الملك » وذلك أن العدل أعطـا كل ذي حق حقه فإذا لزم ابن آدم العدل في أقـواله وأفعـاله اجتثت من حوله جذور الحقد والظلم ودك هيكل العدوان واندثرت رسوم الجور والعدل ميزان الخـالق في أرضه به يأخذ الضعيف حقه من القوي وهو السبيل لتحقيق الحق وإزهاق الباطل إذا نمت شجرة العدل عند الأفراد ترعرعت أغصان الجماعـــات وفاضت المحبة وعمت المنفعة بين الناس وظهر الصفاء وزال الجفاء .

آخى الدين الحنيف بين المسلمين وجعلهم كلهم على قـدم المساواة لا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح فقـــال تعالى « **ان اكرمكم عند الله أتقاكم** » كما جعلهم أولياء بعضهم لبعض في كل ما هو نافع ومفيد لصالحهم فقال تعالى : « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اوليـــاء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم** » . ولأجل توطيد دعائم الإخاء بين المسلمين فرض الحج على من استطاع إليـه سبيلا ليتعارف المسلمون في أقطار الأرض وينظروا فيما يرقي شؤونهم وهذا الاجتماع السنوي لتوثيق روابط الألفة وتبادل المنافع فهو مؤتمر إسلامي سياسي تجاري

قال تعالى : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات » كما حتم صلاة الجماعة في كل أسبوع مرة ليتشاور المسلمون في أمرهم ويعملوا على صلاح حالهم **« يا ايها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع » فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض .**

طالب الدين الحنيف أن يكون المسلمون أعزاء في نفوسهم مكرمين في أوطانهم أحرار مستقلين في أعمالهم رحما بينهم عدولا مع غيرهم طالبين السلام في دفاعهم وحياتهم غير متواكلين ولا مستضعفين لغيرهم فقال تعالى : **«واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم واخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون » وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكلت على الله إنه هو السميع العليم .**

وحد الاسلام بين المسلمين وربطهم بقواعد من مكارم الأخلاق ليجعل من جموعهم كتلة قوية في سبيل الإنسانية فقال : **« قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده واوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً الا وسعها واذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكّرون وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . »**

بمثل هذه الأوامر الإلهية الحكيمة التي لم تأت مدنية القرن العشرين بمثلها فاق الإسلام جميع الأديان بهدم الوسيلة إذ ليس بين الله وعبده وسيط وليس في الإسلام قساوسة ولا رهبان وجعل العدل والرحمة هما أساس سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة فاجعلوا أيها الإخوان أوامر الله قبلتكم وملجأكم وإنه لا يصلح

آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها فالمسلمون ما صلح أولهم إلا بكتاب الله وسنة رسوله فلا يصلح آخرهم إلا بهما وكل من حاول إصلاح المسلمين من غير هذا الطريق فهو مفتون ومخدوع يتعب نفسه ويخدع أمته من غير أن يحصل على طائل. فالقرآن الكريم قد سلك بالنفوس مسلكا فيما يريد منها من إعتقاد صحيح ويقين خالص وأخلاق طيبة لذلك اهتدت به الأمة العربية تلك الأمة التي كانت لا تعرف قانوناً ولا نظاماً ولا تميز بين القبيح والمليح ولا يسمع لها صوت ولا تحس منهـــا حركة فكون لها القرآن عقلاً جديداً وأصلح من عقائدها وأخلاقها وسائر شؤونها ما لم تصل إليه أيد القوانين في كل أطوارها ونفخ فيها الروح العالية حتى أصبحت بعد تلك الفوضى المزعجة تسوس الأمم وتتحكم في رقابها فإذا الخمول أصبح نباهة والضعة رفعة والضعف قــــوة وأشرقت دولــة الإسلام بفضل نور العلم والنبـل والمروءة والبأس والإيمان الذي هو مبعث الحياة ومنبع القوة « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

الإيمان ميدان اختبار وجهاد

اقتضت حكمة الله العزيز القدير أن لا يجعل الإيمان دعوى يدعيها من أراد أو مجرد اعتقاد فحسب بل جعله اعتقاداً بالقلب وقولا باللسان وعملاً بالجوارح فالمؤمن الموفق الذي يريد أن يظفر برضاء ربه وحسن مثوبته يجب أن يقبل على طاعته ويجاهد نفسه ليكفهـا عن شهواتها ويصرفها عن ملذاتها ولا يسارع إلى كلمات يعلل بها نفسه ليهون عليها من العصيان فيقول : « امة محمد على خير وإن الله غفور رحيم » وينسى أنه شديد العقاب في قوله تعالى : **نبيء عبادي اني انا الغفور الرحيم وان عذابي هو العذاب الاليم** » أو يخدع نفسه بقول الله عز وجل **ورحمتي وسعت كل شيء** ويغفل عن قوله بعد « **فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم باياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويطع اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين امنوا به وعزروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون** ».

أو يمني نفسه بالجنة لإنه من أصل شريف وأرومة صالحة كالذين تربطهم بالرسول ﷺ رابطة نسب أولئك يمنون أنفسهم بالجنة وإن خالفوا طريق الرسول بل وإن كانوا حربا عونا على تعاليمه ونسوا أن رسول الله ﷺ قد جمع أقرباءه ، وعشيرته وأخذ يعظهم ويخوفهم من عذاب الله ويقول لعمه : يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ويقول لعمته : يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا ويقول لابنته يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً فإذا كان الرسول مع

جلالة قدره وعظيم منزلته عند الله لا يستطيع أن يغني عنهم من عذاب الله شيئا فكيف بمن بعد نسبه منه وقد ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة نوح وامرأة لوط ليكون ذلك المثل قاطعاً لأطماع المغرورين وعبرة لأصحاب الأماني « ضرب الله مثلا للذين كفروا امراة نوح وامراة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين» وحدثنا القرآن عن نبي الله نوح وقد حل بقومه من عذاب الله ما حل وكان فيهم ابنه وفلذة كبده أن نوحا نادى ربه وهو يقول : «**رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت حاكم الحاكمين**» وقد وعده الله أن ينجيه وأهله ففهم من ذلك الوعد أن ابنه سيكون في جملة الناجين فيرد الله بقوله : «**يا نوح انه ليس من اهلك**» ثم يعلل ذلك بقوله : «**انه عمل غير صالح**» وكأن الله تعالى أراد أن يفهمه أن أهله الذين وعدهم بانجائهم هم أهله الصالحون اما الولد فلم يكن كذلك لذلك قطع الصلة بين الولد وبين أبيه وصار الولد في عداد الهالكين ولم يكتف القرآن الكريم بذلك القدر في خطاب نبي الله نوح بل أغلظ عليه «**وقال فلا تسالن ما ليس لك به علم اني اعظك ان تكون من الجاهلين**» فيجيبه نوح عليه السلام بقوله : «**رب اني اعوذ بك ان اسالك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني اكن من الخاسرين**» .

فماذا بقي لأصحاب الأماني بعد قصة نبي الله نوح وولده ؟ ماذا بقي لهم بعد قول الله تعالى : «**ليس بامانيكم ولا اماني أهل الكتاب من يعمل سوأ يجزبه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون**» . لم يبق لهم شيء ولكنه الضعف يحمل صاحبه على انتحال أسباب يظن أنها تنفعه وتفيده وهي لا تنفعه في قليل ولا كثير لأن الله جل شأنه لم يخلق عباده للهو واللعب وإنما خلقهم لعبادته كما قال تعالى «**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**» كما أنه أراد أن يختبرهم ولم يكتف منهم بالإيمان المجرد عن العمل بل أمرهم وطالبهم بإقامة البراهين والأدلة على قوة إيمانهم ورسوخ قدمهم فيه قال الله عز وجل « أحسب

الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنـاوهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صـدقوا وليعلمن الكاذبين » وقـال تعالى : « **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** » وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره » رواه البخاري ومسلم وفي رواية لمسلم حفت بدل حجبت ومؤداها واحد .

والمقصود من الحديث أن الأعمال التي تؤدي إلى النار وهي المعاصي شهوات تشتهيها النفوس وتميل إليها وترغب فيها وتجد فيها متاعها ولذاتها فهي مدفوعة إليها بدون روية ولا تنظر إلى عواقبها الوخيمة وأضرارها البليغة وشرها المستطير وعذابها الأليم فإنكم لو استعرضتم أيها الإخوان جميع المنكرات وأحصيتم انواع الموبقات ما شذ شيء منها عن تلك القاعدة فالزنا وشرب الخمر والحرص والحسد والبغي والظلم والكذب والنفاق والغيبـة والنميمة وغيرهـا كل أولئك مستلذ مستطاب محبوب فما أحوج العبد أن يجاهد نفسه ليكفها عن شهواتها ويصرفهـا عن ملذاتهـا التي هي في الحقيقة سموم قتـالة وأمراض فتاكـة فكم جرت على أصحابها من العـار والفضيحـة والحسرات والزفرات فعلى العبد أن يجاهد نفسه ويحملها على طاعة الله واداء فرائضه وإلتزام حدوده حتى يكون من الذين صفت نفوسهم وسمت أرواحهم فتغلبت روحانيتهم على شهواتهم وصارت عبـادة الله سجية لهم وعادة متأصلة فيهم لا يجدون اللذة إلا فيها ولا الأنس إلا بها أولئك عباد الله الأطهار الذين عرفوه فعرفهم وأحبوه فأحبهم ورضوا عنه فرضي عنهم وقربهم وفيهم يقـول الله في الحديث القدسي : « **ولا يـزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجلـه التي يمشي بهـا ولئن سالني لأعطينـه ولئن استعاذني لا عيذنه** » .

ولكننا يا للأسف نجد أنك إذا حاولت أن تنصح غيرك أن يتغلب على شهواته ويتحلى بالإيمان الصحيح ولا يغفل عن طاعة الله ويوجههـا إلى ما فيه سعادتها وفلاحها تلاقي من أجل ذلك عنـاء كبيراً وصعوبات جمة وذلك لأن

المؤثرات التي تصرف القلوب عن طاعة الله أصبحت من الكثرة والقوة لا يتغلب عليها إلا بجهود كبير ومن أهم تلك المؤثرات الكثيرة الوسط الإجتماعي وبعبارة أخرى البيئة فقد أصبحت مكتضة بالمغريات بالفساد كالنساء المتبرجات ودور الملاهي الخليعة والرقص وبيوت الخنا ولا تقع العين فيها إلا على الوجوه التي ذهب منها بهاء الإيمان وعلتها عبرة الفسوق والطغيان ولا تسمع الأذن فيها إلا أحاديث المال والجمال .

أما ما يؤدي إلى الجنة من الطاعات والقربات فهو مكروه للنفوس شاق عليها يتجلى لكم هذا حين تجد الناس تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة ولا يسمحون بانفاق درهم في سبيل الله ولا يصبرون على البلاء ولا يتجملون بالأخلاق الطيبة والصفات المرضية من العفة والقناعة والوفاء بالعهد والأمانة والتواضع والحلم والإحسان والرحمة والمحبة والألفة والمودة وحسن الجوار وصلة الأرحام إلى غير ذلك مما يقرب إلى الله زلفى ويعد صاحبه للدرجات العالية والجزاء الأوفى، ولهذا أرى أن خير عامل للتغلب على هذه الشهوات أن تتكاتف أيدي البقية الصالحة من أهل الإيمان ويعملوا على محو كل ما من شأنه أن يفسد النفوس وذلك بالإحتجاج على هذه الأمور وحث الحكومة على أخذ القوانين التي تمنع وسائل التهتك والفجور واتصالهم بالمجتمع وتحملهم المشاق في سبيل الدعوة إلى الإيمان حتى يثنوا عنان هذه النفوس الجامحة ويضيئوا لها سبيل السعادة وليقتدوا في ذلك **بالانبياء عليهم الصلاة والسلام فقد جاؤوا لأممهم وهم عاكفون على النقائض فلم يخشوا في دعوتهم الى الله تعالى لومة لائم حتى اخرجوهم من الظلمات الى النور ويتجلى هذا في سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد حول بيئة قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام ويرتكبون اقبح الآثام الى بيئة سعيدة تعبد الواحد القهار الذي لا يغفل ولا ينام .**

أما اقتصار المرشدين على إرسال الخطب والمواعظ الفينة بعد الفينة مع عدم جدهم في المطالبة بإصدار القوانين التي تمنع عوامل الفساد وقلة اتصالهم بالمجتمع فذلك لا يجدي فتيلا .

وعلى المؤمن الذي يريد النجاة من آثار عوامل الفساد التي غص بها العصر الحالي أن يبتعد عن جميع المؤثرات التي تهيج غرائز النفس الأمارة بالسوء فلا ينظر إلى السوة الخليعات ولايقترب من دور اللهو ولا يجالس الفساق الذين يزينون الرذائل لمن خالطهم ولا يخوض معهم في أحاديث الشهوات وعليه أن يجالس الصالحين فإن مجالستهم تغذي القلب وتبعث فيه الهدى والإستقامة وليتردد إلى دروس العلماء فإنها تحيي القلوب وليكثر وامن قراءة القرآن والحديث والكتب التي تهذب النفوس وقد ذكر العلماء أن القلب إذا مكث مدة طويلة لم يتعظ فيها بالنصائح النافعة فإنه يموت وتنتزع منه بذور الخير وليكثروا من ذكر الله تعالى قال الله **«ياايها الذين امنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة واصيلا» الا بذكر الله تطمئن القلوب .**

أسأل الله أن يهبنا قوة الايمان وأن يفتح بصائرنا لمعرفته وقلوبنا لهدايته انه جواد كريم رؤوف رحيم .

أثـــر التوحيـــد في نفـــوس المؤمنـــين (١)

قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

تفيدنا هذه الآية أن المقصود الأعظم من خلق الخلق وعمارة الأرض إنما هو توحيد الله وعبــــادته قال تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمة فليقرأ قوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا » وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : « كنت رديف النبي ﷺ فقال لي يامعاذ : أتدري ما حق الله على العبــاد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال حق الله على العبـاد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا ».

وظـــيفة الانبيـــــاء

إذا علمنا هذا استطعنا أن ندرك أن حكمة إرسال الرسل والأنبياء هي الهـداية إلى هذا التوحيد لأن النفوس لابد لهـا من ترغيب وترهيب لتقبل على الخير وتبتعد عن طريق الشر ولذلك جاءت نصوص القرآن تحمل دعوة الأنبياء كلهم دعوا إلى توحيد الله وعبادته وحذروا الناس من معصيته وما دعا أحد منهم مخلوقاً لنفسه قال تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونـوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتـاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابـاً

أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » ومن فضل الله على هذه الأمة أن بعث فيها رسولاً من نفسها يزكيها ويعلمها الكتاب والحكمة ويهديها سبيل التوحيد الخالص حتى تؤتي الأعمال ثمارها اليانعة فتكون قدوة للأمم في معرفة الله والتوجه إليه قال تعالى : « **لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** » .

وأول آثار التوحيد القرب من الله والإكتفاء به دون سواه قال تعالى : « **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له** » وقال النبي ﷺ : « من ذبح لغير الله لعنه الله » وقال : « دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب » قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال : « مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً فقالوا لأحدهما قرب قال ليس عندي شيء أقرب قالوا له قرب ولو ذبابا فقرب ذبابا فخلوا سبيله فدخل النار وقالوا للآخر قرب فقال ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل فضربوا عنقه فدخل الجنة » فانظروا أيها الإخوان في زماننا هذا إلى أي حد بلغ بالناس هواهم إن بعضهم يفعل كما كان يفعل أهل الجاهلية الأولى من ذبح الذبائح باسم بعض الموتى ابتغاء مرضاتهم وكذلك تراهم يقطعون المراحل رجالاً ونساء إلى ضرائح هؤلاء الموتى ظانين أنهم إن لم يتقربوا إليهم بالذبائح والقربات فاتهم الخير وهلكت عيالهم وقل مالهم وهذا وعمر الحق عين الشرك فالله وحده هو الذي يتقرب إليه .

والثاني من آثار التوحيد أن الاستغاثة والدعاء لا تكون إلا بالله وحده قال الله تعالى : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » ، أما الاستغاثة بغير الله فقد نهى الله عنها قال : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين » فالمؤمن الكامل هو من إذا حزبه أمر لا يستغيث إلا بالله « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو » روى الطبراني : إنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق فقال النبي : إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله . وإذا كان النبي وهو سيد الخلق لا

يستغاث به فهل يكون لمن دونه تصويف في شيء قـال تعالى : ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صـــادقين . هذه بعض آثار التوحيد عند المؤمنين وسنعود إن شاء الله إلى هذا الموضوع، أسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه وأقدامنا على صراطه المستقيم .

آثار التوحيد في نفوس المؤمنين (2)

ومن آثار التوحيد عند المؤمن أن لا يعتمد على نسبه وحسبه وشرفه ويقول إنه ابن شريف فإن ذلك غير نافع عند الله وليس بدافع عنه العقاب قال تعالى: « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين » فقال يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً . فإذا كان النبيء ﷺ مع جلالة قدره وعظيم منزلته عند الله تعالى لا ينفع أقاربه يوم القيامة فما بالك بغيره من الناس فالذي ينجي صاحبه حينئذ من عذاب الله هو التوحيد والعمل الصالح البريء من الشرك ومن التوحيد عدم الغلو في الدين قال تعالى: « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق » وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وهذا تحذير من الرسول نهانا أن نتجاوز الحد في مدحه لأن غلو النصارى في عيسى جرهم إلى عبادته .

ومن التوحيد **الصبر على الاقدار**

فإذا أصابتك مصيبة فسلم أمرك إلى الله واصبر فإن الصبر مفتاح الفرج وقد قال الرسول عليه السلام: « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامه » وقال: « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن

سخط فله السخط وليس من التوحيد الفزع عند المرض أو الموت والحداد إنما التوحيد أن تتذكر أن من مات ورحل قد سبقك بزمن محدود وأنت لاحق به وهكـــذا طائفة تذهب وأخرى تلحقهـــا حتى لا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

ومن التوحيد **الخوف من مكر الله والرجا في رحمته**

أي لا تلهو ولا تلعب ساهياً عن ربك مطمئناً إلى الدنيا وزينتها ظاناً أنها صفو لا كدر فيه بل كن مستعداً للموت . وفي الصحة ذاكراً فضل ربك عليك وفي الغنى شاكراً متضرعاً أن يديمها عليك قال تعـالى : « **أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** » وكان النبي يدعو فيقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ويا مصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك » وكم من قوم أخـذوا على غرة وهم لا يشعرون إذ ركنوا إلى النعيم وظنوا أنهم خالدون والإنسان لا يقنط من رحمة الله فكم من ضال هداه الله وكم من شقي صـــار سعيداً قال تعالى : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » .

ومن التوحيد **عدم الثقة بقول الدجالين**

فلا مؤثر ولا فاعل إلا الله فلا تركن إلى منجم أو عراف « وهو الدقـار » فلا يعلم الغيب إلا الله وكفى للمؤمنين رادعـاً عن هـذا قول النبي ﷺ « من أتى عرافاً فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » .

ومن التوحيد **عدم التشاؤم**

فالمؤمـن التقي يعلم أنه لا يـأتي بالخير إلا الله ولا يصرف الضر إلا الله فلا يتطير ولا يتشاءم وقد قال الرسول عليه الســلام « ليس منــا من تطير ويعجبني الفال الحسن قالوا وما الفال الحسن يا رسول الله قال : الكلمة الطيبة فإذا رأى أحدهم ما يكره فليقل اللهم لا خير إلا خيرك ولا إله غيرك اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا قوة إلا بك .

ومن التوحيد **مراعاة الأدب مع الله**

ونهى النبي ﷺ أن تقول السلام على الله وإنما يقال : اللهم أنت السلام اللهم

أغفر لي وقد قال الرسول : من سأل بالله فأعطوه ومن آستعاذ بالله فأعيذوه ومن دعاكم فأجيبوه ومن صنع معكم معروفاً فكافئوه .

ومن التوحيد **تعظيم شعائر الله**

فمن آستهزأ بشيء من ذلك فقد أشرك فيجب على المؤمن أن يتجنب استعمال الآيات والأحاديث في مزاحه ولعبه وإلا جره هذا إلى الكفر لقوله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم » .

ايها الاخوان

هذه بعض آثار التوحيد في نفوس المؤمنين فليزن كل منا عقيدته وقوله وفعله مع الخالق والخلق بميزان التوحيد فهو الضمان الوحيد لبلوغ السعادة للفرد والجماعة .

أسأل الله أن يهب لنا علماً نافعاً وعملاً بين يدي ربنا شافعاً حتى نخرج من الدنيا بزاد من التقى فيه الغنى يوم اللقاء .

القرآن الكريم هداية عامة للبشر

القرآن الكريم كلام الله تعالى نزل به جبريل الأمين على سيدنا محمد ﷺ لإصلاح ما فسد من أخلاق البشر وتكميل إنسانيتهم من الفضائل وتزكية نفوسهم من أدران الرذائل .

وكان أول نزوله في ليلة القدر من رمضان في السنة الثالثة عشرة قبل الهجرة وأول ما نزل منه على الراجح قوله تعالى : « **اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم** » وآخر آية نزلت قوله تعالى : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا** » .

كيف وصل الينا القرآن

وصل إلينا القرآن بالتواتر فنقله الخلف عن السلف جماعات جماعات كل جماعة تؤديه لغيرها تلقيناً وحفظاً بأسانيد قد يكون كثير منها محفوظاً عند القراء الذين عنوا بحفظ أسانيده لا سيما الذين حصلوا على أجازات بالقراآت من مشائخهم ولا يكفي في التواتر أخذه من المصاحف ما لم يكن مسموعاً بالتلقين وتفكير المسلمين في تأليف جمعيات لتعليم القرآن من الأسباب التي ألهمها الله لعباده لبقاء هذا التواتر وقيام هذه الحجة . وفي التلقين فائدة عظمى وهي معرفة الأداء من مخارج الحروف وكيفية المد والغنة وغير ذلك مما هو واجب فيه وحفظه عن ظهر قلب فرض كفاية إذا لم تقم الأمة الإسلامية به كانت آثمة .

مقاومة القرآن

قاوم زعماء العرب القرآن خوفاً على جاههم وسلطانهم وحرصاً على

زعمائهم كأبي جهل ومن على شاكلته ولقد تفننوا في أنواع الكيد له حين نزوله فقالوا: « أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » « إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » فلما أعيتهم الحيل صفقوا كلما سمعوا رسول الله ﷺ يقرأ وصفروا لئلا يسمعه أحد ومنعوا النـــاس من استماعه وقالوا: « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

ثم لما بطلت حجتهم واستقام للقرآن أمره لم يجدوا سبيلاً إلى المقاومة فجاء هؤلاء الزعماء إلى الوليد بن المغيرة وكان أحكمهم رأياً وأعظمهم بياناً وأفصحهم لساناً ليقول في القرآن قولاً يصرف الناس عنه فقال: يا معشر قريش مـــاذا تقولون أنتم؟ قالوا نقول قول كاهن فقال والله ما هو به لقد رأينا الكهانة فما هو بزمزمة الكاهن قالوا نقول قول شاعر قال ما هو به لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر قالوا نقول ساحرا قال ما هو به لقد رأينا السحرة وسحرهم فمـــا هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا فما نقول يا أبـــا عبد شمس؟ قال والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه وما يقوله بشر فقالوا لئن سمعت العرب مـــا تقول ليزيدن خطره وليعظمن أمره ومـــا بقي أحد إلا اتبعه فقل غير هذا . ففكر وقدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقـــال: « إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر » ثم كتم الحق وهو يعرفه فوعده الله العذاب الأكبر كما قال: **سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر .**

نجاح القرآن في استدلاله على توحيد الله تعالى .

نزل القرآن وليس على وجه الأرض من يعبد الله وحده فبعض العرب كان يعبد الأوثان وبعض اليهود كان يعبد عزيزاً ويتخذ الأحبـــار أرباباً من دون الله والنصـــارى كانوا يعبدون المسيح ويتخذون رهبـــانهم آلهة مـــن دون الله والفرس كانوا يعبدون النار والهنود كانوا يعبدون البقر والشمس وهكذا كان وجه الأرض مغبراً من الباطل فدعا الناس إلى عبادة الله وحده وجـــادلهم بالتي هي أحسن وحـــاكمهم في ذلك إلى الفكر والعقل وتدرج معهم رويداً رويداً في الإستدلال

على وحدانيته بأقرب الأشياء إلى الإنسان وهي نفسه فقال « **وفي انفسكم أفلا تبصرون** » « ومن آياته **أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** » . ومازال بهم حتى محا تلك العقائد الفاسدة وأقنعهم بأن الله هو الواحد القهار الذي « **لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد** » ثم لفت نظر الإنسان إلى ما يحتاج إليه في حياته وذكره بنعمة الغذاء الذي يعيش به ليدرك كيف دبر الله أمر هذا الطعام فقال : « **فلينظر الإنسان إلى طعامه إنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً** » ثم ترقى قليلاً إلى الجو المحيط بالإنسان فقال : « **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله** » ثم ترقى إلى أرفع من هذا فقال : « **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج** » ثم ترقى إلى المعقولات فقال : « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله إذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** » تلك هي خطة القرآن التي تدل على قوة روحانيته التي أحيت جيلاً من الفضائل في أقل من ربع قرن لم يشهد العالم له ضريباً في العصور الغابرة ولا عجب في ذلك فقد بين الله تعالى أنه أنزله روحاً من أمره يضيء به السرائر الإنسانية لتبصر في سناه حسن الحق فتتبعه وقبح الباطل فتتجنبه قال تعالى : « **وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** » .

الفضائل التي دعا اليها القرآن الكريم

لو أن كل مسلم تدبر آيات الكتاب العزيز واستمسك بهدايتها لما أصاب المسلمين تلك الكوارث المفجعة ولا المصائب المدلهمة . قال الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله لو أن المسلمين اعتصموا بآيتين من القرآن تتلى في كل صلاة وهما « إياك نعبد وإياك نستعين » بالإخلاص لله للعبادة والإستعانة به دون سواه والسير على حسب سننه وقوانينه العادلة لما أصابهم الذل والهوان في مشارق الأرض

ومغاربها ففي معنى إياك نعبد أن لكل عبادة أثر في تقويم أخلاق القائم بهـا وتهذيب نفسه والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذي هو منشأ التعظيم والخضوع فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنساناً .

خذ إليك عبادة الصلاة مثلا وأنظر كيف أمر الله بإقامتهـا دون مجرد الإتيان بها وإقامة الشيء هي الإتيان به مقوماً كاملا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره وآثار الصلاة ونتائجها هي ما أنبأنا به الله تعالى بقوله : **ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** وقوله عز وجل « **ان الانسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً الا المصلين** » وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيهـا المؤدي إلى غايتها بقوله : « **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** » فسماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته والمشعر للقلوب بعظيم سلطانه ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون وذكر الأستاذ الإمام أن الرياء ضربان رياء النفاق وهو العمل لأجل رؤية الناس ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب إليه به وهو ما عليه أكثر الناس وليس لله شيء في هذه الصلاة وقد قال ﷺ : إن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً وإنها تلف كما يلف الثوب البالي ويضرب بها وجهه وأما الماعون فهو المعونة والخير .

وفي معنى « **وإياك نستعين** » قال الأستاذ الإمام : أرشدتنـا هذه الكلمة الوجيزة إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة « أحدهمـا » أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد في إتقانها ما استطعنا لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه أو يخشى أن لا ينجح فيه فيطلب المعونة على إتمامه وكمـاله فمن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من

أحد على إمساكه ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز على النهوض به وحده يطلب المعونة من غيره على رفعه ولكن بعد أستفراغ القوة في الإستقلال به وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية وركن من أركان السعادة الأخروية وثانيهما ما أفاد الحصر من وجوب تخصيص الإستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص الذي يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الأغيار ويفك إرادتهم من الشيوخ الدجالين ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين فيكون المؤمن مع الناس حراً خالصاً وسيداً كريماً ومع الله عبداً خاضعاً « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله وتحل محله وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة ولذلك جمع القرآن بينهما في قوله تعالى : **ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه** » إن لفظ الإستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الرب تعالى العون على شيء له فيه كسب ليعينه على القيام به وفي هذا تكريم للإنسان يجعل عمله أصلاً في كل ما يحتاج إليه لإتمام تربية نفسه وتزكيتها وإرشاد له لأن ترك العمل والكسب ليس من سنة الفطرة ولا من هدي الشريعة فمن تركه كان كسولاً مذموماً لا متوكلاً محموداً .

الحث على تعليمه وتعلمه

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبيء ﷺ أنه قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » وقال : لا حسد إلا في آثنتين رجل أتاه الله القرآن فهو يتلوه أناء الليل وأطراف النهار ورجل أتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق » وقال : مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر ولا ريح لها .

فالحديث الأول يمثل المؤمن الذي يقرأ القرآن بالاترجة في الطعم الطيب والريح الطيب فالطعم الطيب لما عنده من الإيمان والعمل الصالح والريح الطيب لما عنده من حفظ كلام الله تعالى وتلاوته كما أن الفاجر الذي لا يقرأ القرآن قد ضاع منه ثمرة الإيمان وريح القرآن .

والآثار الواردة في القرآن ومزاياه أكثر من أن تعد وتحصى فهو دستور الفضائل الخالد الذي ستعشو الأمم إلى ضوئه إذا خربتها الفتن المدلهمة فتجد من تعاليمه وآدابه ما تجعل علاقة بعضها ببعض مبنية على أساس المحبة والمودة والتكافل على مصلحة الإنسانية العامة وإن مما يثلج القلب أن بواكير النهضة الدينية التي أثمرتها تعاليم القرآن تفتحت في تونس في هذه الأيام بفضل الجهود المشكورة التي تقوم بها جماعة المحافظة على القرآن الكريم والجماعات المنتشرة في عواصم الأقاليم لنشر كتاب الله وحفظه من الضياع وإقامة مسابقات ومهرجانات لتوزيع الجوائز المادية والأدبية على الفائزين في حفظه . فبارك الله في هذه الجمعية وفي جهادها الديني المثمر وإنا لنضرع إلى الله تعالى أن يكتب لهذا العمل الجليل الدوام والإستقرار حتى يأتي يوم على الأمة وقد أصبح جميع أفرادها رجالا ونساء شيوخاً وشباباً يستظهرون القرآن الكريم استظهار رعاية وفهم ويحفظونه في صدورهم .

الوعظ أعظم حارس للنفــوس

الواعظ إمام للناس يدعوهم إلى الخير ويحذرهم من الشر ويعمل بما حث عليه أو حذر منه والوعظ أو إن شئت قلت الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر أمر لازم لابد منه لقوله تعالى : « **ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون** » والمراد بالأمة الإسلامية في الآية الكريمة الجماعة فعلى الأمة الإسلامية أن تختار منها جماعة ممتازة للقيـام بذلك الواجب بحسب حاجة الناس إليه في كل زمان ومكان حتى لا ينقطع صوت الفضيلة في كل قطر أو في كل مدينة وفي كل قرية لهذا قـال ﷺ : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان فهذا الحديث يحتم على كل فرد من المسلمين يرى رذيلة من الرذائل أن يزيلها بكل ما يمكنه من فعل أو قول فإذا عجز فعليه أن ينكرها بقلبه ولا يرضى بها على أية حـــال ويؤخذ من هذا الحديث أن مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاث :

- آستعمال اليد
- آستعمال اللسان
- عدم الرضا بالقلب

فأما آستعمال اليد فـإنه يشترط فيه أن يكون مع من يملك أمره بحيث لا يترتب عليه إثارة فتنة أو خرق للنظام العام . وأما آستعمال اللسان فبالعظات المؤثرة وبيان ما يترتب على آرتكاب الشهوات الفاسدة من المضار المادية والأدبية ولقد ذم الله قوماً كانوا لا يتناهون عن المنكر حيث قال : « **لعن الذين كفروا**

من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

ومدح الآمرين بالمعروف والنهي عن المنكر فقـــال : « **كنتم خير امة اخرجت للنـــاس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .** هذه سبل الإسلام وقاعدته القوية في الدعوة إلى الفضـائل الإسلامية والنهي عن الرذائل الخلقية ولا ريب في أنها من أجل القواعد العمرانية قدراً وأسمـــاها في نفوس العقلاء منزلة ، ولهذا كان القصد من بعثة الرسول ﷺ إرشاد النـاس إلى سبيل السعادة فوعظهم وأرشدهم وتلا عليهم القرآن الكريم فهز قلوبهم وألان طباعهم وطهر أرواحهم وبذلك آستطاع أن يخلق من وعظه أمة بدل وحشتهـا رحمة وعطفاً وجهلها علـــا وحكمة وجعلها أمة واحدة متماسكة كالبنيـــان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

فكن أيها المسلم للناس كما كان محمد يكن لكلامك من الأثر الطيب ما كان لكلامه وحذار أن تقول : لا أثر للوعظ في نفوس المستمعين فالوعظ يبصر الناس بالخير وينفرهم من الشر ويأخذ بيدهم إلى طريق الإستقامة خصوصـــاً في هذا الزمان الذي ضعف فيه الإيمـان وأصبح المسلم يشعر بضعفه أمـــام حزب الشيطان ولقد أخبر الله تعالى في كتـــابه الكريم بأن بعض الأمم الماضية التي كانت تجاهر بعصيان الله تعالى كان جزاؤها الهـلاك إلا من أمر بمعروف أو نهى عن منكر فإنه كان ينجو من بين الهالكين قال تعالى : « **واذ قالت أمـة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بمـا كانوا يفسقون** » فهذا حـال جمـاعة من بني إسرائيل كانوا يسكنون قرية قريبة من البحر نهاهم الله عن صيد السمك يوم السبت فلم يحفلوا بنهي الله فعاملهم الله تعـالى بنتيجة عصيانهم فكان السمك يأتيهم بكثرة يوم السبت وينقطع عنهم باقي الأسبوع « آبتلاء لهم » وقد أخبرنا الله أن هؤلاء القوم كانوا ثلاث فرق فرقة عصت ربهـا وفرقة آستمرت على الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر وفرقة يئست من إصلاحهم فكفت عن نهيهم . فأما الفرقة الفاسدة فقد أبادها الله وأما الفرقة الناهية عن المنكر فقد أنجـاها الله وأما الفرقة التي سكتت فلم يرد بشأنها نص صريح . وقد كان المسلمون فيما مضى حريصين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكانوا من أعز الأمم وأكرمهم خلقاً كانوا لا يرضون أن تظهر فيهم فاحشة أو تفشو فيهم معصية تنـافي الآداب والفضائل الإنسانية ولا ريب أن آثـار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تزال ظاهرة ملموسة فإن الفـاجر الذي تنطوي نفسه عن الشر لا بد أن يجبن عن ارتكاب جريمته إذا خشي من النـاس الذين يحيطون به وينكمش إذا تنكروا له بل قد يظهر بمظهر الصالح إذا أحس بإهانة تلحقه بسبب جريمته وبذلك تموت الجريمة في نفسه ولا يظهر أثرها فيما بينهم .

نعم إن النفوس ليست في التأثر بالنصح سواء فالنفوس التي كان عهدها بالعصيان قريباً فالأمل في إقناعها بالمواعظ عظيم فتستفيد من الموعظة وتسلك طريق الإستقامة أما النفوس التي انغمست في الرذيلة وتعودت الإجرام فقلما تفيد فيها النصيحة اللهم إلا إذا كان من وراء الواعظ قوة يخشاها المجرم لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ولا سيما في الشعوب الحديثة النهضة التي لم تنضج فيهـا ملكة السير في طرق الإصلاح وحكومتنا هداها الله ووفقهـا قد وجهت عنايتها الآن إلى علاج الأمة في أرواحها وأخلاقها فمـا بالعهد من قدم اطلعت بالرائد الرسمي أنهـا انتخبت من كلية أصول الدين ثلاثة عشر واعظاً بطريق المنـاظرة يقومون بالوعظ والإرشاد في المعتمديات ونحن نشكر الحكومة على اهتمامها بهذا الأمر ونطلب منها المزيد من الوعاظ لأننا لا نريد الإقتصار على الوعظ في الخطب الجمعية بل الأولى أن نعممه في القرى والأريـاف وحتى في الأسواق لأن الوعظ أو إن شئت قلت الوعي له مقـام كبير لا يستهان به في الوصول إلى الغـاية المقصودة ولقد كان له في الصدر الأول من الإسلام مكانة خطيرة حيث تأثرت به الجمـوع وغرس فيهم حب الخير والإصلاح فحافظوا على الأخلاق الكريمة والعوائد المستحسنة فكانوا يخطبون في المنتديات والمحـافل

والأسواق فكنت ترى القوم يزدحمون على إلقاء هذه الخطابات رغبة منهم في تحسين حالتهم لأن الواعظ الماهر والخطيب الحكيم يستطيع بما وهبه الله من قاطع الحجة بتركيب الأدوية النافعة أن يصحح القلوب من أمراضها حتى تتحلى بالفضائل والكمالات وصلاح الشعب الخلقي يساعد ويدعم أوامر الحكومة ومتى صلحت الأمة وتيقظ فيها الشعور الديني آستقام أمرها وقلت الجرائم فيها وآستراح رجال الأمن وأمنت الناس على أعراضهم وأولادهم وأموالهم هذا وعلى الذين يقومون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتدبروا قوله تعالى لنبيه الكريم ﷺ : **ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك** فلا يأخذون الناس بالتشهير وتشديد النكير بل عليهم أن يأخذوهم باللطف واللين ورقة التعبير وحسن الخطاب .

حكي أن الحسن والحسين رضي الله عنهما وجدا رجلاً كبيراً يتوضأ ولا يحسن الوضوء فأرادا تعليمه الوضوء بالموعظة الحسنة المشتملة على الأدب ومكارم الأخلاق فقال له أحدهما يا عم إن أخي هذا يقول لي إنك لا تحسن الوضوء وأنا أقول له إنه لا يحسن الوضوء فنريد أن نتوضأ أمامك لتحكم أينا أحسن وضوءاً فتوضأ أمامه وهو ينظر إليهما فلما رأى وضوءهما أدرك أنه هو الذي لا يحسن الوضوء فقال لهما بارك الله فيكما كلا كما يحسن الوضوء وإنما الذي لا أحسنه هو أنا والآن قد تعلمته منكما . فهذا مثل حسن للمرشدين الذين يريدون أن يرشدوا الناس بالموعظة الحسنة .

بماذا نجح الإسلام والمسلمون في الصدر الأول

إن من يبحث في أحوال المسلمين الأولين وفي أحوال المسلمين في هذا العصر يعلم أن المسلمين السابقين كانوا قليلين إذا قيسوا بمسلمي هذا العهد ويعرف أن أولئك الأقلين قد فتحوا من البلدان والأمصار الشيء الكثير وخضعت لهم الممالك وطهروا معظم الأرض من الرجس والشرك والدنس ورفعوا في الخافقين راية الإسلام ووطدوا في الناس دعائم الأمان والإطمئنان ولم يمنعهم الفتح عن الاشتغال بالعلم والفن حتى كان يضرب بهم المثل في العلوم والصناعات ويؤخذ عنهم ما برعوا فيه من صناعة وتجارة وزراعة وشهد العدو لهم برسوخ القدم في المدنية والحضارة .

أما مسلمو هذه الأيام فإنهم على كثرتهم ليسوا شيئاً مذكوراً إذا ذكر العلم وذكرت القوة والحسرة كل الحسرة في أنهم لا يرهب لهم جانب ولا يخشى لهم صولة ولا يطاع لهم أمر .

وإني أحدثكم بما كان عليه العرب قبل الإسلام وبعده إلى أن انتهى العصر الأول عسى أن يتجلى لكم بذلك سبب الضعف والذلة والمسكنة التي أصيب بها المسلمون الحاضرون .

امتاز العرب منذ القديم بالفطرة السليمة والنفس الكبيرة التي تفضل الموت مع الكرامة على الحياة مع الذلة فلما غزاهم الإسلام بسيف الحق وظهر لهم نور العدل والإنصاف ورأوا مبادئه العالية دخلوا فيه أفواجاً فزادهم الإيمان

حماسة على حماستهم وغيرة على غيرتهم وإباء للضيم على إبائهم فكان الفرد منهم يعدل عشرة من الفئات الأخرى ولا عجب في هذا فالإسلام هو دين التوحيد الخالص البعيد من التعطيل والتشبيه والتجسيم وهو دين العمل والعزة والكرامة والأخوة والمساواة في الحقوق والحرية الصحيحة التي تنتج العمران وتؤسس بنيان الحضارة المتين وقد فهم العرب الإسلام فهماً صحيحاً فصاروا كالبنيان المرصوص وأخذوا في إنقاذ العالم من بلائه وعلله فخرجوا من جزيرتهم ومعهم أكبر ثروة وأعظم آستعداد للفتح وهو الإيمان الصحيح والخلق المتين وكم من أمة فتحوها بقوة أخلاقهم وحسن سيرتهم وجميل معاملتهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم فرحبت بجيوشهم الأمم وسهلت لهم سبيل الفتح وما أبلغ كلمة المقوقس إلى هرقل ملك الروم عن المسلمين الفاتحين أولئك قوم علمهم دينهم بساطة العيش فصبروا وإن عزموا على دخول بلد فهم داخلوها بقوة أخلاقهم وحسن سيرتهم وبأس جنودهم وإنا إذا صالحناهم فإنما نكسب قوماً ستكون لهم السيادة في الأرض وإذا غاضبناهم فقد خسرناهم وخسرنا البلاد معهم .

بل اسمعوا ما قاله رسول جيش الفرس لرستم قائد الفرس حين سأله ما معيشتهم قال : يعيشون غير متكلفين يأكلون قليلا وينامون قليلا ويعبدون الله كثيراً ويصبرون كثيراً قال ومن سيدهم ؟ قال لا أرى فيهم سيداً ممتازاً إذا قاموا إلى صفوفهم « يعني الصلاة » رأيت عظيمهم وحقيرهم مطرقاً خاشعاً فإذا آمتطوا جيادهم رأيت أولئك الخاشعين عظماء جبارين فقال رستم « تلك أخلاق تضمن لصاحبها الغلبة والانتصار وأمر بحفر الخنادق وراء جيشه حتى لا يتقهقر فكانت كرة بدأها المسلمون جميعاً بقولهم « الله أكبر الله أكبر » فكانوا هم الغالبين وغلبت الفرس وآنقلبوا هناك صاغرين ، من هذا الحديث الذي حدث به رسول جيش الفرس قائد الفرس نعلم أنه بفضل هذه الأخلاق الكريمة والأخوة الصادقة والإتحاد المتين والشجاعة النادرة آستحق سلفنا وراثة الأرض التي أشار الله إليها في كتابه المبين « **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين** ».

ولم يمض إلا قليل من السنين حتى صار في الأرض أمة إسلامية عظيمة قائدهـــا القرآن وشعارها الإسلام فأزهرت فيها الأخلاق الفاضلة وأينعت أشجار الأعمـال النافعة وظهرت العدالة والمساواة ونشرت ألوية العمران والعلم والعرفان في العالم الإنساني حتى تمتعت البلاد التي خفقت راية الإسلام عليها بعز ونعيم لم تر الأرض مثلهـا في أي عصر من العصور الســـابقة وكان الجيش الإسلامي يدخل مكللا بالفخـــار في أحشاء الممالك المخالفة له في الإعتقـاد فيجعل أكبر همه أطمئنان الناس على عقائدهم ومعابدهم متعهداً لهم بحمايتهم والدفاع عن ذمارهم ويطلق لهم تمام الحرية في عباداتهم .

كل ذلك عملا بتعاليم القرآن فقد كان القرآن مصباح المسلمين الذي يهتدون به في أعمالهم كلهـا وكانت السنة النبوية الصحيحة وفعل السلف همـــا المؤازرين للقرآن فيما جاء به من هدى وتعليم ولا يصح لنـا أن ننسى أن المسلمين في الصدر الأول كان إيمانهم متيناً وقوياً لا تؤثر فيه العواصف الهوجاء ولا تغير منه الأهواء وكل منا يعلم أن الإيمان المتين والعقيدة الراسخة هي أساس الفلاح والنجـــاح في شؤون الحيـــاة كلهـــا . وقد علم هؤلاء المسلمون الأولون أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين وعرفوا أن هذه العزة ليست عزة قولية ولا عزة وهمية ولكنهـا العزة التي تعد النفس بجانبها رخيصة والحياة بدونها حقيرة من أجل ذلك لبسوا تـــاج الشرف والعزة في العالم الإنساني وكانت لهم الكلمة بين الأمم ولقد كان المسلم في العصر الأول يقرأ قول الله تعالى **إنما المؤمنون إخوة** فلا يقرأهـــا قراءة لسانية والقلب محروم من إدراك معناها بل كان يقرؤها باللسان والجنـان ويعمل مـــا أستطاع على تحقيقها فيتخذ كل مسلم له أخاً وإن كان أقل منه جاهاً ومالاً وعلمـاً ومعرفة سواء بعدت الديار أو أقتربت أو أتحدت اللغة أو أختلفت وبذلك أرتبطت قلوب المسلمين وكانوا إخواناً متحابين متعاونين وأنتصروا على أعدائهم وإن كانوا كثيرين ومما لا شك فيه ولا ريب أن المسلم في الصدر الأول كان مثالا صحيحـــاً للإسلام وتعاليمه وهديه فكان النـاظر فيه يستطيـع أن يفهم فضل الإسلام وأثره في النفوس وهذا النظر في ذاته أعظم دعـــاية للإسلام وخير تبشير به ولقد كان

القرآن الكريم هو النبراس الذي يهتدي به المسلمون الأولون فجعلوه قانونهم ووعته قلوبهم وتعشقه أطفالهم وتغنت به نساؤهم وحكموه فيما بينهم وخضعت له أمراؤهم وملوكهم ومدح به قضاتهم ورضيت بحكمه عامتهم وخاصتهم وبذلك أعزهم الله ونصرهم ثم خلف من بعدهم خلفا أضاعوا أحكامه وأعرضوا عن أدبه وأقفرت البيوت عن تلاوته وصار يقرأ في الأفراح والمآتم على سبيل التبرك فقط أو لينالوا به شيئاً من عرض الدنيا ولم يعلموا أن القرآن يأمر أهله باجتناب الفحشاء والمنكر وغض البصر عن جميع المحرمات وينصح لهم أن يكونوا أنصار الله وعدهم أن يفعلوا ما أمر به وانتهوا عما نهى عنه أن ينصرهم ويمكن لهم في الأرض أن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

فإن شاء هؤلاء المسلمون أن يزولوا من عالم الوجود أو رضوا بأن يكونوا اذلالا إلى أقصى الحدود فليثبتوا على ما هم عليه من الحال حتى يؤذن فيهم مؤذن الزوال وإذا شاؤوا أن يحيوا حياة فيها العزة والكرامة في الدنيا والشرف والمجد في الآخرة فليخلعوا عنهم أردية الكسل وليشمروا عن ساعد الجد والعمل ويعملوا على نشر دينهم وإعزازه والتمسك به وبذلك يسعدون وينجحون كما نجح آباؤهم الأولون وأسلافهم الصالحون فكان لهم ما كان من عز رفيع ومجد عظيم وملك واسع وكلمة نافذة قوت من عزيمتهم حتى زلزلوا عروش الممالك بل قوضوا دعائمها فدانت لهم الأكاسرة وخضعت لشوكتهم القياصرة ودلت لعظمتهم الجبابرة وامتلكوا من أسوار الصين شرقاً إلى المحيط الإطلنطي غرباً ومن جبالي البرينى بفرنسا شمالا إلى المحيط الهندي جنوباً .

إنه لينفد المداد وتجف الأقلام ويعجز اللسان مهما أوتي من الفصاحة والبلاغة عن سرد مفاخر الإسلام وذكر مآثر أهله السابقين ، خلال كاملة وصفات فاضلة بسببها جلس الإسلام بأهله فوق الثريا أما الآن فقد أصبح المسلمون في أنحاء الأرض مستضعفين مغلوبين محزونين متحسرين والعلة في ضعفهم هي تركهم لآداب دينهم وسنة نبيهم وتقاعدهم وتواكلهم وتخاذلهم وتفرقهم وإن تفرق المسلمين ليس إلا نسياناً لقواعد دينهم وسننه القويمة .

وكيف يــذل المسلمون وفيهم كتابك يتلى كل يوم ويكرم
عصينا وخالفنا فعاقبت عادلا وحكمت فينا اليوم من ليس يرحم

وتصديقاً لقول الشاعر تكالبت علينـا الأمم فآستاءونا وآستضامونا وسامونا سوء العذاب والله يقول : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . وقد خالفنا كتابنا ورسولنا وتنازعنا في ما بيننا فسلط الله علينا دولة الصهاينة فآستولت على فلسطين وأعملت فيها سحقاً وتنكيلا وتعذيباً فنهبت أموالها ودمرت بيوتها وقتلت أبنائها ودنست مساجدها وهتكت أعراض بناتها وآرتكبت من الفضائع الوحشية والبربرية مما تقشعر منه الأبدان ويخجل منه الحيوان وهذا كله يحصل على مرأى ومسمع من دول الغرب التي تزعم أنها دول الحرية ومحبو الإسلام وأنصار الضعفاء وحماة الإنسانية يدعون ذلك والله يعلم أنهم لكاذبون .

إن نكن اليوم مغلوبين مقهورين محزونين فلا يضعف ذلك من أملنا في نهضة الإسلام فعلينا أن نفكر في أن نقوي ضعفنا وذلك يكون بالإتحاد والتمسك بديننا ونبذ التقاطع والتباغض بيننا لأنهما ينافيان قواعد الإسلام لأن أول شرط من شروط الإيمان هو التحابب لقوله ﷺ « **لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا** » وهذه المحبة التي يدعو إليها الإسلام هي مناط كل سعادة آجتماعية وإن آنهزام المسلمين في كل أرض ليس إلا نتيجة تباعدهم عن العمل بأوامر الدين وتخبطهم في الخرافات والنزاعات وإن نصرهم مقرون بآتباعه فقد أقسم الله جل جلاله على نصر المؤمنين إذا اتبعوا أمره فقال « **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** » فلا نيأس حينئذ ولا نحزن من أمرنا فإننا إذا رجعنا إلى ديننا يأخذ الله بيدنا ويرجع إلينا عزنا ومجدنا أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم .

نسأل الله أن يرزق المسلمين تبصراً في دينهم حتى يستطيعوا أن يروا الإسلام بالعين التي يجب أن يرى بها وأن يقيض لأممهم الحكام المصلحين ليعملوا على إصلاحهم ومداواة أمراضهم حتى نكون من السعداء الأقوياء أمام الأحباب والأعداء إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير والسلام على من آتبع الهدى .

بماذا صلحت الحياة في العصور الأولى

قد آن للمسلمين أن يفيقوا مما هم فيه من غفلة وأن ينهضوا بعد أن سقطوا في ميدان الحياة والعمل النافع ، لقد آن لهم أن ينظروا بأبصارهم وبصائرهم ذات اليمين وذات الشمال ليروا الأمم الأخرى ولا سيما الأوروبية وهي تطير في الهواء فتزعج الطير وتغوص في الماء فتطارد السمك وتستخدم الهواء لتصل إلى القمر ، لقد آن لهم أن يذكروا مجد الإسلام الذي أندثر وعزته التي قبرت وقوته التي وهت وأن يذكروا بجانب ذلك ما هم فيه الآن من حطة وضعف وجهالة وشقاء ثم يبحثوا عن سبب حطتهم وضعفهم وجهالتهم وشقائهم . حقا إن الله خلق النوع البشري كله من سلالة من الطين والإنسان الأول وإنسان هذه العصور في ذلك سواء فليس أبناء الغرب من ذهب ولا من فضة ولا جوهر وإنما هم كإخوانهم أبناء الشرق من اللحم والدم فهم جميعا قد أتحدوا في مادة التكوين الجثماني ولكنهم أختلفوا في محركات المادة ومقوماتها كأنواع البناء تتحد في الأجزاء والعناصر وقد تختلف في الأثاث والرياش ووسائل الراحة والسرور .

إننا جميعاً نعلم أن عمران الشرق وحضارته قد سبقا عمران الغرب وحضارته ونعلم كذلك أن الشرق كان مصدر النور والعرفان ومصدر العلم والهدى وموطن الحضارة والرقي ومنه تعلم الغرب وآهتدى إلى سبيل الحياة العزيزة ، فكيف صار المعلم جاهلا والهادي ضالا والنير مظلماً والمتحضر في حالة لا تحمد ولا تشكر . ألا إن سبب هذا التأخر وهذا النزول الفاحش هو فساد الأخلاق ولا ذنب في ذلك للدين ولكن الذنب لمن رضي بالحياة الحقيرة فهان وذل وأعظم فساد خلقي تمكن من نفوس المسلمين هو تفضيلهم المنفعة المادية على ما عداها وإن كان في ذلك

خسارة الدنيا والآخرة وبسبب ذلك فقرت فيهم الحمية وصاروا لا يغضبهم احتقار الفرنجة لهم وسخريتهم منهم لأنهم ألفوا المهانة ورضوا بها واطمأنوا إليها ولم يثقل عليهم حملها والشاعر القديم يقول :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

إنه والله لا يليق بالمؤمن الذي يعلم أن الله خلقه حراً طليقاً غير مستعبد أن يكون جباناً في الحق وذليلا من غير ذنب ويعلم ما قاله حكيم الشعر ، في حسة الجبناء والأذلاء :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تعيش جبانا

والإنسان يتأسف غاية الأسف عندما يقرأ في التاريخ ما كان عليه المسلمون في العصور الأولى من همة قعساء وشمم وأباء وتمسك بالحق وعزة وسؤدد وعدم رهبة من عدو ذو شوكة وبطش ومـا هم عليه اليوم من ذل وانحطاط وتـواكل ومداهنة ونفاق ولذلك يعانون من سوء الحال مالا يحتـاج إلى شرح وتفصيل وصدق الله العظيم « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** » هذا شر تفشى في البيئات الإسلامية خاصة ولا تكاد تجد له مثيلا في البيئات الغربية وهذا الخلق وحده يكفي في إفساد الحياة والأخلاق رحمة الله على إمام المفسرين محمود الزمخشري فقد أقام بمكة المكرمة يشتغل بطلب العلم والعبادة ولم تسمح له نفسه أن يكون لغير ربه عليه فضل ثم أنشأ أبياتاً وأخذ يرددها في خلوته وهي :

أمطري لؤلؤاً جبال سرندب وفيضي آبـار تكرور تبراً
فلئن عشت لست أعدم قوتاً ولئن مت لست أعدم قبـراً
همتي همـة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفراً

أين علماء الإسلام الآن من عالم العصر الأموي أبي حازم ؟ فقد حدث الإمام الغزالي رحمه الله أن سليمان بن عبدالملك قصد بلاد الحجاز فلما حل بها أرسل إلى أبي حازم فقال له : ما بالنا يا أبا حازم نكره الموت ونحب الحياة ، قال أبوحازم : إن من يخرب آخرته ويعمر دنياه لابد أن يكره الإنتقال من العامر إلى الخراب قال سليمان : أنبئني كيف يكون القدوم على الله ؟ قال أبو حازم : أما المحسن

في دنيـاه فيكون كالغائب في سفر وقد قدم على أهله المحبين له وأمـا المسيء فيكون كالعبد الآبق الذي هرب من مولاه الذي أحسن إليه وآواه وبفضله تولاه ثم قبض عليه فتقدم بين يديه وهو يخشى العقاب ولا يتوقع شيئا من الإحسان والثواب فبكى سليمان ثم قال يا ليت شعري كيف يكون قدومي على الله؟ فقـال أبو حزم : أعرض نفسك على كتـاب الله لترى مـا أنت عليه إن الله تعالى يقول : « **ان الابـرار لفي نعيم وان الفجـار لفي جحيم** » قال سليمان : فأين رحمة الله ؟ قال أبو حازم : إن الله تعـالى يقـول: « **ان رحمة الله قريب من المحسنين** »

قال سليمان : ومـا النجاة مما نحن فيه ؟ قال أبو حازم : النجاة في أن تأخذ الشيء من حله وتضعه في حقه يعني « تكسب من حلال وتنفق من حـلال » قال سليمان : ومن يستطيـع هذا يا أبا حازم ؟ قال أبو حازم يستطيـع من يطلب الجنة وهو جاد وصادق في طلبه ومن يهرب من النار وهو جاد في هروبه .

قال سليمان : صدقت يا أبا حازم ثم سكت برهة وبعدها قال : لا تنسانا يا أبا حازم من دعائك . قال أبو حازم إن الله تعالى يقول **وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى** ثم يجزاه الجزاء الأوفى بأبي حزم وأمثـاله من علمـاء السلف صلحت حياة المسلمين في العصور الأولى وكانوا مضرب الأمثـال في الصراحة في القول والجهر بالحق وهمـا من أجل الصفات وأحسن الأخلاق ولأنهما عنوان الشجاعة ومثال الإقدام والتضحية كما أنهما سبيل كل إصلاح وحافز كل تقدم ومـا شاع هذا الخلق بين الأفراد إلا وكان عنواناً على رجولتهم وإنهم يشعرون بكرامتهم ويحلونها المحل الأول في حياتهم وإن موضع الضعف البارز في حياة المسلمين اليوم ليس هو مجرد الجهل الذي يجب أن يعمل على محوه بواسطة تعميم التعليم وإنما هو أيضـاً فقدان الإرادة الصالحة القوية في نفوس الحكام فقعد بهم ضعف الهمة على أن يقوموا بأداء واجبهم نحو أممهم من محاربة البدع والضلالات التي أفسدت الأخلاق وحالت بين تضامنهم في القيام بالمشاريـع النافعة التي تستلزمها سنن الرقي فترى العلمـاء والمتعلمين في بلاد الإسلام كثيري الكلام

قليلي الأعمال وذلك لا لسبب سوى فقدان العزيمة والإرادة الصارمة وقد قيل إنما ينفع لسان صامت وفعل ناطق وإنجاز الأعمال أولى من الإسهاب في الكلام فما نهضت أمة من الأمم ولا آستقام أمرها إلا بالجهر بالحق والذود عن حياضه

لذلك كان الجهر بالحق من أخلاق المسلمين الأولين لأنهم كانوا رضي الله عنهم يشعرون بعزة الإسلام وجلال الدين وبهذه الميزة العالية آرتفع مجد الإسلام وساد المسلمون أمم الأرض .

فضل الخوف من الله

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : **يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ، ويقول جل شأنه : **يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه لكل امريء منهم يومئذ شان يغنيه** ، هاتان آيتان ناطقتان بأحوال يوم القيامة وما فيه من أهوال وزلزلة وذهول وإجهاض الحوامل وفقدان الصواب وشدة العذاب وفرار المرء من أقرب أقاربه وأحب أحبابه وهذا دليل على عظم هول يوم القيامة لما أشتمل عليه من خوف وعذاب ، ونحن إذا نظرنا إلى القرآن وجدنا أن كثيراً من آياته فيها حض على الخوف من الله في السر والعلن كما فيها التبشير بسعة رحمة الله وفضله وعفوه فيرغبنا في التمسك بالفضيلة ويحذرنا من الإقبال على الرذيلة ويبين لنا ما يترتب على الأولى من خير في العاجل والآجل وما يترتب على الثانية من سوء العاقبة فأستمع إليه حين يقول : « **أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا أبتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** » . كما تراه يصور لنا أهل الفضائل وأهل

الرذائل ويقرن بين الصورتين حتى يوازن الإنسان بينهما ثم يختار أحسنهما فاستمع إليه حين يقول : **أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا اهواءهم مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم** فهذه الآيات تبعث في نفس المؤمن مخافة الله وتردعه عن ارتكاب السيئات كما أن في القرآن الكريم آيات مبشرات بالجنة والرحمة كقول الله تعالى : **ورحمتي وسعت كل شيء** ، ولكن غالب الناس يقفون عند هذا القدر من الآية الكريمة ولا يقرءون ما بعدها من قيود تنطق في صراحة بمن يكتب له هذه الرحمة وهي قوله : **فساكتبها للذين يتقون** ، فالرحمة لم يكتبها الله إلا لمن اتقاه وخافه وراقبه .

ولو تأملنا في حال الرسول عليه الصلاة والسلام وما كان عليه من التقوى والورع لوجدنا أنه كان أشد الناس خوفاً من الله وكذلك كان السلف الصالح رضي الله عنهم هذا وللخوف من الله علامات : منها حفظ اللسان من اللغو فلا يكذب ولا يغتاب ولا ينم وقد سئل رسول الله ﷺ هل يسرق المؤمن ؟ قال : نعم قد يكون ، فقيل له : هل يزني المؤمن ؟ قال نعم قد يكون ، فقيل هل يكذب ؟ قال لا الكذب مجانب للإيمان ثم أتبعها بقول الله عز وجل : **انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بأيات الله واولئك هم الكاذبون** ، وقد قيل عقل المرء مخبوء تحت لسانه ورب لفظ يرفع الإنسان إلى أعلى عليين أو ينزله إلى أسفل السافلين لأن جرحه لا يداوى وهو أشد من جرح السنان .

جراحات السنان لها التئام ولا يلتأم ما جرح اللسان

ومنها طهارة القلب فلا يكون فيه قليل ولا كثير من العداوة لمؤمن. ومنها خلو البطن من الحرام فإن أكل الحرام إثم كبير ، ومنها تقييد القدم عن السعي إلا فيما يحسن السعي إليه كالسعي إلى المسجد لآداء الصلوات أو السعي لطلب الرزق والعلم ، ومنها الطاعة لله فتكون كلها خالصة بعيدة عن الرياء والنفاق وإلا لم تكن

طاعة لله بل هي للشيطان الذي هـــو أعدى عدو الإنسان وقد حذرنا الله من الشيطان ونهانا عن اتباعه فقال : **يا ايهـــا الذين آمنـوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر** . هذا وإن الناس من جهة الطاعة والخوف من الله رجلان : رجل يستجيب للطاعة ويداوم عليها ويخاف الله في كل حين وهذا لا شك من أهل الجنة قال تعالى: **وامـــا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى** ، ورجل يستجيب للطاعة ولكنه يقدم على المعصية بجرأة كأنه لا يعتقد أن هناك رقيباً مطلعاً عليه وهذا لا شك يستحق العذاب .

قيل لبعض الزهاد ما تقول في صلاة الليل فقـــال : خف الله بالنهار ونم بالليل وقال الشاعر :

أطاع الله قوم فاستراحوا ولم يتجرعوا غصص المعاصي

أما الشخص الذي يمتنع عن فعل الطاعات ويحض الناس على ترك المعاصي فهذا ولا شك محروم وهو الذي حرم نفسه لأنه يرى الخير لغيره قبـــل أن يراه لنفسه والآية الكريمة ناطقة بذلك قال تعالى : **اتامـرون النـاس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون** .

المؤمن بين الخوف والرجاء

قال تعالى في كتابه العزيز : **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم.** المسلم الصادق هو الذي يأخذ وسط الطريق فلا يسرف على نفسه في ارتكاب المعاصي اتكالا على رحمة الله ومغفرته الشاملة فإن ثواب الله لا ينال بمعصيانه وعفوه ولا يدرك بعناد ته بل المؤمن هو الذي يرجو رحمة الله ولا يأمن عقوبته بسبب ذنوبه فتراه دائم الخوف يذكر الله جل وعــــلا وينظر إلى نعمه التي تفضل بها عليه فيستصغر عمله الصالح ويخــاف من الذنوب لأنه لا يأمن مكر الله إلا القــــوم الخاسرون ، لكن لا يشتد في الخوف ولا يبــــالغ فيه حتى ييأس من روح الله ويقنط من فضله لأن اليأس دليل على الشك في الرحمة وقد قال تعالى : « **انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** » وليس الرجـــاء مطلق التمني ومجرد الأمل ولكنه العمل الصالح يقدم عليه الانسان ويمهد أسبابه ثم ينتظر قبوله من الله ويرجو عليه مثوبته ولهذا يقول الله : « **ان الذين آمنوا والذين هـــاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم** » والرجاء في الله من أحب الأشياء إليه لأن من عرف ذنوبه اشتد خوفه ورأى نفسه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يسقط عليه وهذا هو المؤمن الكامل لقول النبي ﷺ ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف ان يقـع عليه وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب من على أنفه فقال به هكذا بيده فذبه عنه . ومعنى الحديث أن المؤمن هو من يتقي الله ويخشى بأسه فتجده ممتلئاً خوفاً من الله في بيته في ناديه في تجارته في زراعته في حديثه بين أهله وأصحابه أخلاقه كريمة وسجاياه حميـدة

نواياه خير وقلبه في وجل من ربه بهذا وأمثاله تعمر الدنيـا . هل سمعتم صاحب انتحر أو فجر أو قتل نفساً أو ضر جاره . انما يخشى الله من عباده العلماء وأما الفاجر الفاسق فيطمس الله على بصيرته ويحرمه لذة الطاعة فيفعـل المعاصي ولا يبالي بها ويرتكب الموبقات ويراها شيئا تافها يمحوه أقل الأشياء كما يطرد الذباب عن أنفـه بيده وإنكم ترون في هذا العصر من يرتكب المعاصي جهاراً أو يطعن الدين بسهـام المروق والإلحـاد وبعد هذا من التطور والمدنية وبئس ما يفعلون بالله اي مؤمن لا يزداد إقبالا على الله ولا يبذل قصاري جهده في طاعة الله إذا سمع قول الرسول عليه السلام : اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، نعم يعصي المؤمن لكن على ندرة والله دعا عباده للمتاب وأمرهم بالرجوع اليه والآياب والاستغفار والندم إذا زلت القدم فقال تعالى : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيهـا المؤمنون لعلكم تفلحون » . فالتوبة الصادقة للذنوب والندم الشديد يغسل العيوب والإنابة والاستغفار يرضيان الحليم الغفار ، قال تعـالى : « **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئـات** » . فمهما ارتكب الإنسـان من المعاصي فلا ييأس من رحمة الله ولا يقنط من رضا مولاه فباب الله مفتوح لكل لاجيء ورحمته وسعت كل شيء قال تعـالى : **فمن تـاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه** «لكن لا ينبغي للانسان أن يأخر التوبة فربما يأتيه الموت بغتة لأن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر اي مـا لم يصل إلى ساعة الاحتضار لذلك يقول الله عز وجل : « **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليمـاً حكيماً** » « **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن** » والتوبة شروطها أربعة : الإقلاع عن الذنب والعزم ان لا يعود إليه والندم ورد الحقوق إلى أصحابهـا هذا والمؤمن الكامل هـو الذي يكثر من الاستغفار ويواظب عليه فنحن لسنا أحسن حـالاً من رسول الله ﷺ فقد ورد في صحيح البخاري إن النبي ﷺ قـال : والله اني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة فمن ظن بالله الغفران فإنه يغفر له وقد قـال الرسول عليه الصلاة والسلام : يقول الله عز وجل : **انا عند ظن عبدي بي وانـا معه**

حين يذكرني فان ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منه وان اقترب الي شبرا اقتربت اليه ذراعاً وان اقترب الي ذراعاً، اقتربت اليه باعاً وان اتاني يمشي اتيته هرولة ، رواه الإمام البخاري .

نسأل الله أن يقبل توبتنا ويهدينا إلى أتباع القرآن والتمسك بسنة النبي العدنان عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

وازع الدين ووازع القــوة

قال الله تعالى في كتـــابه العزيز : **تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله ندخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ندخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » .**

في هذه الآية يثيب الله كل من يحافظ على حدوده ويطيع رسوله فيجازيه ويدخله الجنة ويمتعه بنعيمها أما الذي يعصيه فيعاقبه بعقوبة مادية ومعنوية وإذا أمعنا النظر في هذه الآية أيقنـــا أنه متى صلح الفرد صلحت الأمة فالأمة التي تسلك سبيل الفضيلة ويتمسك أفرادها بمكارم الأخلاق الفاضلة كالصدق والأمانة والاستقامة والصبر والمروؤة والإحسان والرحمة وغير ذلك من الأخلاق الكريمة فهذه الأمة لاشك تكون أبدا ظافرة وفي طليعة الأمم قـوة ورفعة وشر الأمم أمة أهملت أمر الفضيلة واتخذت هواهـــا وضعف وازع الدين فيها وهذه الأمة يعاقبها الله بأنواع الذل والهوان ويسلط عليها من الجبابرة من يستعبدها ويسومها سوء العذاب والتاريخ أعدل شاهد على ذلك لأجل هذا الأمـر العظيم يجب على القادة والمصلحين أن يوجهوا الأمة للحياتين حياة الروح وحياة المادة ويزرعوا في قلوبها الوازع الديني لأن الوازع الديني إذا تمكن في النفوس اقتلع منها جراثيم الشر والفساد وعندئذ تصلح الأمة ويسود السلام ويستتب النظـام وتتجه الناس لعمل الخير والصلاح العام ولا يقتصروا على رهبة القوة لأن وازع القوة لا سلطان له على القلوب ولا يصل أثره إليها وكم رأينا المجرمين الذين خلت قلوبهم من الوازع الديني يحتالون في ارتكاب الجرائم على التخلص من طائلـة القانـون وليس معنى هذا أننا نقلل من قيمة القانون العادلة ولكننا نقول أنه شتـــان بين وازع هذ

ووازع ذلك فسلطان الضمائر فوق سلطان القوانين فالمؤمن في بعض الأوقات يفعل المنكرات ويقترف بعض السيئات ويتنكب عن طرق الفضيلة ولكنه لا يلبث أن يسمع صوتا باطنيا يؤنبه على هذه الأعمال ويلومه على اقترابه منها ويشعر بعد ذلك بالندم الزائد على ما فرط منه فيضطر بتأثير هذا الصوت القاهر الذي لا يجد مناصاً من الخضوع له والانقياد لأوامره أن يتنكب عن طريق الرذيلة ويسلك طريق الفضيلة تائبا عن عمله مستغفراً لذنبه .

هذا هو الضمير وإن شئت قلت الوازع الديني الذي دفع قابيل بعد قتله أخاه هابيل أن يردد قول الله تعالى : **يا ويلتي اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فاواري سوءة اخي فاصبح من النادمين .**

وما أحوجنا لناشئة طيبة تخضع لضمائرها وتجد بها زاجراً عن الرذائل .

لن ترجع الأنفس عن غيها   ما لم يكن منها لها زاجر

وعلى ذكر هذا الصوت المحترم والحاكم القاهر الذي يشرف على المرء فيؤنب المجرم ويشجع الصالح أذكر لكم قصة يتجلى لكم منها سلطان الضمير وروعته فقد دفع الطيش بشاب إلى مراوغة فتاة فصدته عما يريد من الإثم وقالت له ألا تستحي ؟ فأجابها وممن أستحي ونحن منفردان ولا يرانا سوى الكواكب فقالت له فأين صانعها والقائم على أمرها **الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تاخذه سنة ولا نوم** فاتعظ الشاب وارتعد وخاف من الله وتخلى عنها .

وهناك قصة أخرى أيضا يتجلى لكم فيها سلطان الوازع الديني فقد روي عن الأسلاف أنه كان لبعض الأئمة تلميذ مخلص فكان شيخه يكرمه ويقدمه على زملائه فتألم من ذلك أقرانه فأراد شيخه أن يظهر لهم فضله فأعطى لكل منهم طائراً وأمره بأن يذبحه في مكان خال لا يكون فيه أحد وتفرق الزملاء وعادوا بعد حين وكل منهم قد ذبح طائره إلا ذلك الشاب الممتاز فإنه عاد بالطائر حيا فقال له أستاذه لماذا لم تذبح الطائر كما أمرتك ؟ فقال له يا سيدي لم أجد موضعاً خالياً لا يراني فيه أحد لأن الله مطلع علي وموجود معي في كل مكان فاستحسن التلاميذ منه هذه المراقبة وقالوا لشيخهم يحق لك أن تكرمه وتقدمه علينا .

فالواجب على قادة المجتمعات ومصلحي الشعوب أن لا يقتصروا على رهبة القانون وصرامة العقاب بل عليهم أن يعتنوا بتربية الوازع الديني في صدور أفراد الأمة وبذلك تصلح العباد والبلاد .

فالوازع الديني يجعل المؤمن يتذكر أن كل ما يفعله محصي عليه ومحاسب به ولذلك يقول الله تعالى : **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** كما أن الوازع الديني إذا عمر قلب صاحبه يجعله متذكراً ومتدبراً لقوله تعالى : **الم تر ان الله يعلم ما في السماوات وما في الارض ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم .**

تزكية النفس وطريقتها

النفس البشرية حائرة بين العقل والشهوة وهي لا ترتفع إلى الكمال الإنساني طفرة أو دفعة واحدة بل لا بد لها من عروج مدارج الرقي درجة درجة وفي كل درجة جهاد كبير لا تنتهي منه إلا لجهاد أكبر إلى أن تبلغ غايتها وتفوز بضالتها ، قال تعالى : **لقد خلقنا الانسان في كبد** ، وقال : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** » ولكي يكون الإنسان جديراً بهذا الوصف يجب أن يقف لنفسه بالمرصاد يشخص داءها ويبادر إلى دوائها بما وصل إليه أطباء القلوب وحكماء النفوس من العلاج الواقي للخطر قبل وقوعه والدواء القاطع للمرض خشية آستفحاله .

من أجل ذلك كانت تزكية النفوس من الشرك والفساد هي الغاية التي بعث من أجلها الأنبياء والمرسلون وقامت عليها كلمة الحق والدين ، قال تعالى : **« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »** .

تزكية النفوس في الاسلام

الإسلام دين يفيض على صاحبه سعادة الدنيا والآخرة إذا وقف عند حدوده وألزم نفسه اتباع أوامره وآجتناب نواهيه وأما من آكتفى من الإسلام بآسمه ، ومن الشرع برسمه ثم لا يكون لذلك أثر في تزكية نفسه فهو الدعي في المسلمين الدخيل على الإسلام وإن صلى وصام وآدعى أنه أول المسلمين ، قال تعالى : **« فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى »** . ان من الناس من ترى بضاعته كلاماً في كلام وظاهره سلام وباطنه خصام يحسب ان شهادة لسانه

وحركات جسمه بالصلاة وتمايله يمنة ويسرة في الذكر وتحريك شفتيه بالتسبيح هي كل شيء في الإسلام او كافية ليحسب في عداد المسلمين ونسي ان قواعد الإسلام كلها وسائل تؤدي إلى غايات مثلى هي تزكية النفس لتحسن المعاملة مع الخالق وخلقه فإن لم تؤد رسوم العبادات إلى أحسن الغايات فليبحث كل أمرىء في نفسه عن نقصها في الأداء وتقصيرها في الإحسان .

قواعد الاسلام

فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وسيلة إلى التوحيد الخالص فلا تدع بلسانك ولا تركن بقلبك ولا تستعن بجوارحك إلا أبتغاء وجه الله غير منتظر ثناء أو توسطاً من عبد من عباد الله حياً أو ميتاً فإنما تؤخذ الوسائط ان كان غافلا فينتبه أو ظالماً فيعدل أو بعيداً فيدنو أو ناسياً فيتذكر تعالى الله عن ذلك كله « **وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً** » . والصلاة وسيلة إلى تزكية النفس إذ تنهاها عن الفحشاء والمنكر **ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر** ، فمن لم تنهه صلاته عن الشر وتدنيه من مواطن الخير وتورثه حسن الخلق وزكاء النفس وصفاء القلب فلا بد أن يكون ذلك راجعاً إلى نقص في أدائها أو راجعاً إلى فساد بصحبها كما إذا قصد بها الرياء ودخلتها البدعة لقوله ﷺ : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه قيل وما أتقانه ؟ قال يخلصه من البدعة والرياء

والزكاة وسيلة إلى تزكية النفوس فإن المال شقيق الروح فمن جاد بما له ابتغاء مرضاة الله عظمت في عينه الحياة الباقية وصغرت الفانية وأستنار قلبه بنور الإيمان وأقام البرهان على صدق نسبته إلى الإسلام ودعواه التقوى ، أما الصوم فهو المزكي للنفس وهو حصن للصحة وقسطاس مستقيم للجوارح .

والحج هو الدواء الاجتماعي لمرض الفرقة بين الأمم ولتذكر العرض على محي الرمم الذي بالاعادة حكم وانك لا تجد قواعد الدين إلا كانت غايتها تزكية النفس لتكون صالحة لتقبل نفحات الله وان الاعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما تتفاضل بما في القلوب فتكون صورة العملين واحدة وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض والرجلان يكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض .

لا سبيل إلى تزكية النفس إلا سلوك طريقة سيدنا محمد ﷺ لأنه هو الموصل إلى طريق الله قال تعالى : « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ». وقيل لبعض الحكماء الذين أسلموا لما عرفوا دعوة النبي ﷺ على أي شيء أسلمت ؟ وماذا رأيت منه فدلك على أنه رسول الله وان طريقته هي خير الطرق ؟ فقال : ما أمر محمد بشيء فقال العقل ليته نهى عنه ولا نهى عن شيء فقال : العقل ليته أمر به ولا أحل شيئاً فقال ليته حرمه ولا حرم شيئاً فقال العقل ليته أباحه ، بل أموره كلها وسننه في كبير الأمور وصغيرها تدل على عقل كامل وكلمة بالغة وانه أوحي إليه به ومن ذلك الإحسان في جميع الأعمال ومعنى الإحسان أن تراقب الله في جميع شؤونك كأنك تراه فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك فالذي أعطاك ما ترى به وتتكلم أليس بخالك أعلم ومن راقب الله أستحيا أن يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره ودعاه فإن زلت قدمه ذكر الله وآستغفر لذنبه ومن يغفر الذنوب إلا الله ، قال تعالى : « **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** » .

أخلاق المؤمنين الزاكية أنفسهم

النفس تنتقل بين درجات الكمال كما تنتقل الكواكب في أبراجها حتى ترد مستقرها فمن نفس أمارة بالسوء إلى نفس لوامة إلى نفس مطمئنة ودرجات الكمال لا تترك للهوى ولا يرجع فيها محض الرأي بل هي خطوات لصراط العزيز الحميد يقطعها السالكون فتارة يسيرون بلا تقهقر وتارة ينتابهم في طريقهم ما يقعد بهم أو ما يرجعهم القهقرى . والكيس الحكيم من إذا آنتابه ما يقعده تحفز للتقدم وأعد العدة لمواصلة السير فقد يدرك اللاحق السابق وقد يشمر عن ساعد

الجد فيما هو آت فيعتاض به أضعاف مـــا فات وإليكم عدة السفر ان شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر .

1) حسن النية ، قال تعالى : «**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة**» وقال رسول الله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» وليس معنى حسن النية أن تكتفي بها دون العمل فهذا من أكبر الخطـــإ والضلال بل أعمل وليكن رائدك في عملك حسن النية والإخلاص لله تفز برضاه .

2) الإيمان بالقدر ، قال رسول الله ﷺ : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وليس معنى الإيمان بالقدر أن يتواكل الإنسان ويستسلم للمصائب وهو قادر على دفعهـــا أو للظلم وهو قادر على منعه ورده بل يعمل جهده للخلاص مما وقع فيه من ضرر أو شر أو مرض فإن أصابه ما لا قدرة له على رده صبر ولم يجزع .

وإن الإيمان بالقدر هو الذي دفع السلف الصالح إلى كل عمل صالح ولم يقعدهم الإيمان به عن الجهاد في سبيل الله أو الركون إلى الكسل .

3) النصيحة ، قال رسول الله ﷺ : الدين النصيحة قلنـــا لمن : قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فترك التناصح بين المؤمنين ظلمـــة في نفوسهم ونكتة سوداء في صفحة قلوبهم لأن النـاس جميعـــاً من نفس واحدة فإذا سكتوا على فاعل المنكر دون أن ينصحوه ليردوه فسكوتهم هذا يهدم بنيانهم لبنة لبنة فيندموا ولات حين ندامة .

4) ترك الجدل والمراء ، قال تعالى : «**فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا**» ونهانا النبيء ﷺ عن قيل وقال وكثرة السؤال ومن حسن الاسلام المرء تركه مالا يعنيه .

وقال عليه الصلاة والسلام : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، فالخير كل الخير فيما قل ودل ولم يؤد إلى كثرة الجدل إلا ما كان

دفاعا عن حق مهضوم أو رداً لظلم مقيم فهذا من جهاد اللسان ومن مراتب الإيمان والله تعالى يقول : **يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها** »، وذلك مما ينجيها من العذاب وينيلها الثواب.

5) الأخذ بالحلال وترك الحرام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ان الله طيباً لا يقبل إلا طيبـــاً وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث اغبر يمد يديه إلى السماء يارب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجـــاب له » فمن أكبر الدواعي إلى تزكية النفس الأخذ بالحلال في جميـع الأحوال .

6) ذكر الله : والقـــاعدة في ذلك قوله تعالى : « **واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** » .

ففي الذكر حياة القلوب وتزكية للنفوس فمن ذكر ذكر ومن غفل هلك ، والله الموفق لـكل خير والسـلام على من آتبـع الهدى .

الانسان كلما عمل بعلمه كلما ازداد ورعــاً

جاء في الحديث الشريف أن رجلا حضر إلى النبيء ﷺ وقد أسلم فأراد أن يتعلم شيئاً من القرآن فأمر الرسول أحد أصحابه بتعليمه فعلموه فاتحة الكتاب ثم سورة الزلزلة فلما أتى على آية : **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** . أراد أن يعلمه غيرها فأبى وقال حسبي هذا حسبي أي يكفيني هذا. فذهب الصحابي ورفع أمره إلى الرسول ﷺ فقال أتركوه فقد تفقه في الدين . أيتفقه في الدين بتعليم سورتين لا تزيد ان عن خمس عشر آية ؟ نعم لأنه أراد أن يعمل بهما . يراقب نفسه مراقبة شديدة فيحاسبها على الكثير والقليل وستقوده هذه المراقبة إلى أن يتعرف أوامر الله ونواهيه فيعود إلى دراسة القرآن الكريم . كان المسلمون يتعلمون ليعرفوا ويعملوا وكانوا يحرصون الحرص كله على العمل بأوامر الدين فدانت لهم الأرض وخضعت لهم الأمم لأنهم تعلموا الدين وعملوا به وقد قال عليه الصلاة والسلام « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يئجركم الله حتى تعملوا » .

وكان الأساتذة يراقبون تلاميذهم ويتفقدون أحوالهم ويشجعونهم على العمل الصالح والنافع حتى تتعود نفوسهم على كبح جماح الشهوات وفعل الخيرات . كان شقيق البلخي من كبار علماء زمانه وكان له تلميذ يسمى حاتماً الأصم فقال له شقيق منذ كم صحبتني ؟ قال حاتم منذ ثلاث وثلاثين سنة قال : فماذا تعلمت مني في هذه المدة ؟ قال ثماني مسائل . قال شقيق له : إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثماني مسائل ؟ قال يا أستاذ لم أتعلم غيرها وإني لا أحب أن أكذب عليك. فقال هات الثماني مسائل حتى أسمعها. قال حاتم: أولا :

نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبا فهو مع محبوبه إلى القبر فإذا وصل إلى القبر فارقه ، فجعلت الحسنات محبوبي حتى إذا دخلت القبر دخل محبوبي معي. فقال الأستاذ أحسنت يا حاتم (ثانيا) نظرت إلى قول الله عز وجل **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** وعلمت أن قوله هو الحق فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله (ثالثا) إني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه ثم نظرت إلى قول الله عز وجل « **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** » فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظا. (رابعا) إني نظرت إلى هذه الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب فنظرت فيها فإذا هي لا شيء. ثم نظرت إلى قول الله تعالى « **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** » فاجتهدت في التقوى حتى أكون عند الله تقيا (خامسا) إني نظرت إلى هذا الخلق يطعن بعضهم في بعض ويلعن بعضهم بعضا وأصل هذا كله الحسد. ثم نظرت إلى قول الله عز وجل: « **نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا** » فتركت الحسد وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى (سادسا) نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضا فرجعت إلى قول الله عز وجل « **ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** » فعاديته واجتهدت في أخذ حذري منه فتركت عداوة الخلق (سابعا) نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له ثم نظرت إلى قوله تعالى: « **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها** » فعلمت إني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها فاشتغلت بما علي وتركت مالي عنده. (ثامنا) نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق هذا على تجارته وهذا على صناعته وهذا على جاهه فرجعت إلى قوله تعالى « **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** » فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي. قال شقيق يا حاتم وفقك الله وبارك فيك وأكثر من أمثالك في المسلمين فإني نظرت في علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان فوجدت جميع أنواع الخير تدور على هذه الثمان مسائل فمن إستعملها فقد إستعمل الكتب الأربعة. نرى في هذا المثل أن الإنسان كلما عمل بعلمه كلما أزداد ورعا وإيمانا بالله وسموا على الشهوات وعلت نفسه إلى مصاف

لأنه لو صديقي فقام بالمساعدتين وعلى العكس كما بين الإنسان إلى المادة والمعنى بسبب به زادت همومه وأحزانه وصل سعيه وخسر الدنيا والآخرة . والعلم بلا عمل لا يغني عن الحياة شيئاً بل لا يكون العلم علماً إلا إذا ظهرت آثاره في الخارج وإذا تظهر آثاره بالعمل فالعمل هو ما علمه الإنسان وإلا فأي فائدة من علمه إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولم ينهه عن ذلك وكعلمه أن الزراعة من أسباب الحياة البشرية ولم يعمل بذلك مع علمه بها وبفوائدها وهكذا يقال في كل علم من علوم الدين والدنيا فمن لم يعمل بما علم فعلمه وجهله سيان .

ليس هناك أضر على الأمة ولا أشر من علماء يقولون ما لا يفعلون فالطبيب الذي يعرف الداء ويصف الدواء وهو مريض بالعلل ويعرف وسائل شفائها ولا يفعل مع نفسه ولكنه يصفها لغيره هو طبيب أحمق ينهى مرضاه عن شرب الخمر وهو شريبه ولا شك أن مثل هذا الطبيب مهمـــا كان بارعاً في علمه فهو ساقط الهيبة وضعيف المكانة في القدوة لغيره .

العلم أصبح اليوم ليس وسيلة للهداية بل أداة لخدمة الشهوات وإن سلطان الأخلاق ضعف نفوذه في كبح جماح النزعات النفسية والمادية فالمهندس والطبيب والمحامي والموظف والعالم سواء أكان من علماء الوضع أو الشرع لا فارق يذكر بينهم من ناحية خضوعهم لسلطان الشهوات وليس هناك علم بل هناك مصلحة والمصالح المترتبة فوق العلم وفوق كل شيء والمصلحة صارت الغاية وقد فسد معها كل شيء لتعددها وتقاربها .

دخل الزهري على الوليد بن عبدالملك فقال له ما حديث يحدثنا به علماء الشام قال الزهري : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : يحدثوننا إن الله إذا استرعى عبداً من رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات قال : باطل يا أمير المؤمنين نبي خليفة أكرم على الله أو خليفة غير نبي؟ قال بل خليفة نبي قال فإن الله يقول لنبيه داود : **« يا داود إنا جعلناك خليفـة في الأرض فاحكم بين النـاس بالحق ولا تتبع الهـــوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »** فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة فما

ضلك خليفة غير نبي ؟ قال إن علماء السوء ليغروننا عن ديننا بتملقهم لينالوا رضانا ومعونتنا .

قد يطغى سيل الشهوات على الناس فيغرقهم ويهلكهم ولكن يجب أن يكون في الأمة طائفة للإنقاذ وإلا تعرضت الأمة للدمار والإبادة . إن أولى الناس بالإنقاذ من الفساد هم علماء الدين وإذا خصصنا علماء الدين بالذكر فذلك لأن مهمة الدين هي نجاة الناس من طغيان الشهوات وردهم إلى الطريق المستقيم قال تعالى : **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** وقال : **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان .**

الصدق في القول والإخلاص في العمل

لم يهب الله جل جلاله عباده ألسنتهم الناطقة ليستعملوها في اللغو والكذب والبهتان والهمز واللمز بل ليعبروا بها عما في نفوسهم ويكشفوا بها عن ضمائرهم كذلك لم يرزقهم القدرة على العمـــل ليعيثوا في الأرض فساداً بل ليعملوا عملا صالحا خالصاً لوجهه الكريم فإذا راعوا هذه الحكمة الالهية فصدقوا في القـول وأخلصوا في العمل استقامت لهم الأمور وحسنت الأحوال . وإن هم استعملوا اللسان في غير ما خلق له فكذبوا التوت عليهم الأمور وساءت الحال .

فالأعمال حينئذ لا تثمر ثمرة طيبة ولا تأتي بفائدتها إلا إذا اعتمدت على الإخلاص وارتكزت على الصدق لأن عليهما يتوقف صلاح حال الفرد والجماعات ولهذا جاءت الشريعة الإسلامية حاضة عليهما مرغبة فيهما قال الله تعالى : **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً .**

فالتقوى في هذه الآية هي الخوف من الله ومن خاف الله حقه أخلص في عمله وصدق في أقواله في انفراده وخلوته وفي الحديث : « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وأما القول السديد فهو الصدق وهو أجمل صفة يتحلى بها الإنسان فالرجل الصادق تراه لا يغدر ولا يفخر همته عالية وسريرته نقية يتمثل الصدق في جميع خلاله يرى ببصيرته ما لا يرى غيره بعقله وذكائه . وفي الحديث : اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله قال الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (وقال) يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم** » .

من هذه الآيات ونظائرها الكثيرة في كتاب الله يظهر مقدار عناية الدين الإسلامي بهاتين الفضيلتين وذلك لأنهما طريق السعادة في المعاش والمعاد. ولأن حياة المجتمع الإنساني من ضرورياتهـا التعاون والتآزر بين الأفراد والجماعات فإذا لم يوجد الصدق فقد التعاون الذي هـو أهم شيء في الحيـاة لأجل ذلك كان الصدق ضرورياً لحياة الفرد والمجتمع فلا يمكن أن يعيش الإنسان بدون الصدق وليس الصدق هو الإخبار عن الشيء على مـا هو عليه بل هــو أوسع من ذلك وأشمل وهو الإتصاف بكل صفات الخير التي تقوم عليها الأخلاق والمعاملات وقد جعل الله درجة الصديقين تالية لدرجة النبيين تعظيماً لصدقهم فقال: **ان المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر** وأثنى على إسماعيل عليه السلام فقال: **« واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا »** كما أثنى على إدريس عليه السلام فقال **« واذكر في الكتاب إدريس انه كان صديقاً نبياً ورفعنـاه مكاناً عليـــا »** وقال في مريم إبنة عمران: **« وصدقت بكلمات ربها وكتابه وكانت من القانتين »**.

ولما أثنى الله تعالى على الصدق والصادقين جعل الكذب من الصفات التي لا تجمع مع الإيمان فقال: **« انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بأيات الله وأولئك هم الكاذبون »** كما جعله من أشنع أنواع الظلم فقال: **« ومن اظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لا يهدي القوم الظالمين »**.

وخلاصة القـول إن كل من أراد أن يعيش شريفاً يجب عليه أن يلزم الصدق مع الله في كل مـــا كلفه به من الطاعات والصدق مع الناس في المعاملة والمحادثة والقول والفعل والأخذ والعطاء ويتمسك بقول الحكيم الذي قال: « إن سعادة الإنسان في هذه الدنيا نراها في صدقه في قوله وإخلاصه في عمله ».

والإخلاص لا يتحقق إلا بالإرادة القوية الصالحـــة التي سمت على شهوات النفس والتي لا ترى فوق الشرف مطمعاً ولا وراء رضاء الله غاية. فضعفاء الإرادة والمغلوبون على أمرهم من طمعهم ولذاتهم قل أن يتحقق معنى الإخلاص في أقوالهم وأعمالهم وإذا ما كثر العاملون المخلصون في أمة من الأمم كان ذلك داعي تقدمها وفلاحها ورفعة مكانتها بين الأمم الأخرى.

روى أن عابداً من بني إسرائيل كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قـــوم فقالوا له إن ها هنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب العابد وأخذ فأسه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له : أين تريد ؟ قال أريد أن أقطع الشجرة فقال له : كيف تترك عبادتك وتشتغل بما لا يعنيك؟ فقال : إن هذا من عبادتي . قــال : قال لا أتركك تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقـــال إبليس أطلقني حتى أكلمك فأطلقه فقال إبليس أنت رجل فقير فارجع عن هذا الأمر ولك علي أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينـــارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك فيكون ذلك أنفع لك . ففكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة وعاهد إبليس على الوفـــاء بذلك وحلف فرجع العابد إلى متعبده وبات فلما أصبح وجد دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد وفي اليوم الثالث لم يجد شيئــاً فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس فقــال له : إلى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة فقال : والله ما أنت قادر على ذلك فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقـــال هيهات فأخذه إبليس وصرعه فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال له لتنتهين على هذا الأمر وإلا ذبحتك فنظر العابد اليه وقال له يا هذا غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني الآن ؟ فقـــال له إبليس لأنك في أول الأمر غضبت لله فنصرك الله وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك .

نأخذ من هـــذه القصة أن إخلاص النيـة إلى الله في القربات إليه شرط لازم لا تقبل عبادة إلا به « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ».

والدليل على أن العبد إنما يجازى بما عقد عليه نيته أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل رياء أي ذلك يكون في سبيل الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ».

جعلنا الله من المخلصين .

وجوب العمل للدنيا والآخرة

في صحيح البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : قال رسول الله : من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يؤته من الدنيـا إلا ما كتب له ومن كانت الآخرة همه جمع الله أمره وجعل غنـاه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة .

أرشدنا هذا الحديث الشريف أن من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه فهو من خوف الفقر في الفقر ومن خوف الذل في الذل ومهمـا كد وأتعب نفسه في طلب الدنيا فإنه لا ينال منها إلا ما قدره الله له أما من كانت الآخرة همه جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه فهو غني بإيمانه غني بثقته بربه غني بما قسم الله له لأنه يعلم أن المال وسيلة لا غاية فهذا وأمثاله تنقاد لهم الدنيا وهي راغمة ومهمـا كثرت لديهم فهم زاهدون فيها وقلوبهم ليست مشغولة إلا في التزود بصالح الأعمال وإليكم قصة في هذا الموضوع يتبين لكم منها أن بعض الناس يستلذون الكسل فلا يعملون لذلك تراهم يتحيلون ويكذبون عليك كأن يقولـوا لك أنهم فقدوا أموالهم أو طردوا من أعـمالهم ويطلبون منك أن تعاونهم وتتصدق عليهم بقدر من المال وإليكم القصة :

قص علينا في أثناء الدرس بجامع الزيتونة أحد مشايخي السيد حسن بن يوسف رحمه الله رحمة واسعة أن خطيباً كان يخطب بجامع صاحب الطابع وقد صعد المنبر في أحد الأيام وهو لابس جبة فاخرة تساوي مبلغاً من المـال فرآه أحد معارفه الذي يصلي معه كل جمعة فقال في نفسه : عجباً لمشائخنا يأمروننا بالزهد في الدنيـا وينسون أنفسهم ثم حدثته نفسه أن يطلب من الشيخ أن يعطيه

الجبة وبعدما فرغ الإمام من الصلاة دخل عليه في مقصورته وقال له يـا سيدي الشيخ لقد تركت أولادي وهم في حـاجة كبيرة إلى الطعام فلو أعطيتني هذه الجبة الجميلة لأبيعها وأشتري ما يلزمني من طعام و كسوة لأولادي فأجـابه الشيخ نعم أنت أولى وأحق بهـا مني رافقني إلى الدار لأنزعهـا وأسلمها لك فرافقه ولما وصلا إلى الدار سلمها له ومن الغد ذهب بها إلى السوق وباعها وكان الذي اشتراها رجل من الأعيان وعندما اشتراها قال في نفسه هذه الجبة الجميلة لاتصلح إلا للشيخ الخطيب بجامع صاحب الطابع فهو رجل صالح ودين وأهداها له فلبسها مرة ثانية وخطب بها فرآها الرجل الذي أخذها منه فتعجب غـاية العجب وحلف أن يسأله كيف رجعت إليه ؟ وعند انتهاء الصلاة دخل على إثره في مقصورته وخاطبه قائلاً : كيف رجعت إليك هذه الجبة وقد بعتها فأجابه الشيخ وقال له : يا ولدي أنتم مشغولون بالدنيا وهمكم في جمعهـا فانصرفت عنكم أما نحن والحمد لله منصرفون عنها زاهدون في متاعها وقلوبنـا ليست مشغولة بها فجاءتنا رغم أنفها .

نأخذ من هذه القصة أن المؤمن الموفق يعمل ويكد في تحصيل الرزق ولا يطمع في ما في أيدي الناس لما في ذلك من ضياع الشرف وذهاب المروءة وفقد الكرامة فالمؤمن الموفق يعمل للدنيا والآخرة ويكسب المال الحلال لأن المال الحلال إذا اشتريت به طعاماً أفادك في جسمك وصحتك وإذا تركته ميراثـاً لأولادك كان عليهم خيراً وبركة وإذا تصدقت به قبل الله صدقتك . روي عن مسلمة بن عبدالملك أنه قال لسيدنـا عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه عند مرض موته يا عمر لقد تركت أولادك لاشيء عندهم فسيصبحون فقراء ومـا كان هذا يقع منك يـا عمر فرد عليه قـائلاً : والله ما منعتهم حقاً هو لهم فبني أحد رجلين إما رجل يتقي الله فسيجعل الله له من كل ضيق مخرجـاً ويرزقه من حيث لا يحتسب وإمـا رجل مكب على المعاصي فإني لم أكن أقويه على معصية الله . بهذه الكلمات الذهبية التي صدرت من سيدنـا عمر بن عبدالعزيز اعتز

الإسلام وساد على جميع الأمم . «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ومن أراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولائك كان سعيهم مشكوراً كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ».

أسأل الله أن يوفقنا للكسب الحلال وأن نعمل للدنيا والآخرة بجاه محمد والآل .

بين العمل والتوكل

جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

هذا الحديث ينبهنا أن الشخص الذي يعتمد على ربه ويثق بخالقه ويبذل جهده في السعي والعمل يكون من أعز الناس شأناً وأعظمهم قوة لا يغلبه غالب ولا يقهره قاهر أما الشخص الذي يترك الأسباب ويهمل العمل فلا يحصل على مرغوبه ولا يفوز بمطلوبه لذلك يقول الله عز وجل « **ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق** » . فهذه الآية تشير إلى الإيمان والإيمان عقيدة وعزيمة وإبتغاء الرزق هو طلبه والطلب يستلزم العمل والسعي ومن وراء ذلك عناية الله ورعايته ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام « لو إنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » فهذا درس يجب أن يتعلم منه المسلم فالطير لم يلزم عشه بل خرج منه صباحاً وهو جائع ثم سعى وبحث عن رزقه فحصل عليه ثم عاد في آخر النهار وبطنه ملآنة بالطعام فنام وأستراح ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » . يعني أن الإنسان يجب عليه أن يعمل ولا يقعد في بيته ويقول اللهم أرزقني . فالسعي والعمل فيهما سعادة الإنسان واللهو والكسل فيهما شقاؤه فليتدبر كل أمريء أمره ويفهم معنى التوكل على حقيقته فلا يتشبه بالشاعر **ابن زريق** من شعراء العصر العباسي وهو يقول :

والله قد قسم بين الناس رزقهم   لم يخلق الله مخلوقاً يضيعه

لكنهم ملئوا حرصاً فلست ترى مسترزقاً وسوى الفاقات تقنعه
وما مجاهدة الإنسان واصلة رزقاً ولا دعة الإنسان تقطعه

هذا الشاعر أدى به فهم التوكل إلى الكسل مع أن الله سبحانه وتعالى لا يريد ذلك بل إنه أمرنا بالسعي في آيات كثيرة من كتابه العزيز والحكيم قوله تعالى في سورة الجمعة « **يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » ولا حاجة إلى تفسير الآيات والمعنى ظاهر من نفسه .

والتوكل إحدى مراتب الإيمان فإنك تستطيع أن تميز بين المؤمن الصادق وغيره بمقدار توكل كل منهما ولا أدل على ذلك من قوله تعالى « **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** » إن الله عز وجل بيده الأمر كله وهو الذي يجازي كل أمريء بعمله ولا أظنه سبحانه يغدق نعمة على الكسول ويحرم المجتهد .

ولنتريث قليلاً ونبحث التوكل بدليل عقلي بسيط لو أن الناس جميعاً فهموا التوكل على أنه الكسل لما عملوا ولا ختل نظام الكون وضاقت الحياة في وجوه الجميع فلا يجدون ما يقتاتون حتى ينام الزارع عن بذر أرضه ويلهو التاجر عن بضاعته ويغيب الموظف عن عمله . فمن هذا نرى أن السعي ضروري والتوكل على الله يؤدي بالناس جميعاً إلى الإستقامة وسلوك الطريق القويم .

ونحن إذا قرأنا تواريخ الأمم الذين نجحوا في الحياة نجدهم لم يصلوا إلى آمالهم إلا بالعمل والاجتهاد فإذا كنت أيها التلميذ تريد أن تنجح في حياتك المدرسية فاعمل في جد ومثابرة ونظام وليكن شعارك دائما قول الشاعر :

وعلي أن أسعى وليـ ـس علي إدراك النجاح

إن كنت تريد أن تنجح في الحياة الخارجية فأعمل دائما وكن كالنحلة الدؤوب لا تمل العمل ولا تعرف الكسل واشتغل كل دقيقة من حياتك في عمل يفيدك ولا تخجل أن تحترف أي حرفة قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

«إني لا أرى الرجل فيعجبني فأقول : أله حرفة ؟ فإن قالوا لا سقط من عيني» .
وقد ورد أن النبي ﷺ كان جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة قد بكر يسعى فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله يعني في طاعة الله من صلاة وصيام وجهاد. فقال لهم الرسول : « لا تقولوا هذا فإنه إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى على نفسه ليعفها من المسألة فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان » فأي تمجيد للعمل أيها الإخوان يفوق هذا التمجيد ألا يوازي هذا على الأقل التكريم الذي تردده الإشتراكية للعمل والعمال ؟
وورد أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له » وأتى الصحابة رضي الله عنهم ذات يوم على رجل فقالوا يا رسول الله إن فلاناً يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر فقال « أيكم يكفيه طعامه

وشرابه قالوا كلنا يا رسول الله فقال: « كلكم خير منه » . فهذا يدل أن الإنقطاع للعبادة وصاحبه في حاجة إلى الناس لا يكون فضيلة لأن ذلك يسقطه من أعين الناس وفي سؤال الناس إذلال ومهانة وحقارة واستكانة فالإنسان يجب عليه أن يعمل ويسأل الله التوفيق في عمله ولا يسأل غيره . فهذا خليل الله ابراهيم عليه السلام لما ألقى به أعداؤه في النار نزل عليه أمين الوحي جبريل عليه السلام قائلاً له : يا إبراهيم ألك حاجة فقال أما إليك فلا وأما إلى الله فنعم فقال الله : **يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** . وهكذا نجى الخليل خليله وانتصر من اتخذ الله عونه ووكيله .

وهذا يعقوب عليه السلام لما أخذ ولده وفلذة كبده يوسف عليه السلام قال مقالة الواثق بربه المعتمد على خالقه : « إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون» فرد إليه يوسف سالماً ومكنه من خزائن الأرض : «رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين» وقال شعيب عليه السلام « على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين » فأيده الله وأتم نعمته » وقال موسى « يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين » فاستجاب الله دعاءهم وأنجاهم وأغرق أعداءهم .

وقال سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه (حسبي الله لا إله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) فأكمل الله دينه وأتم عليه نعمته وعصمه من الناس « والله يعصمك من الناس » .

حج هشام بن عبدالملك فدخل الكعبة فوجد فيها سالم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم فقال له الخليفة : يا سالم سلني حاجة؟فقال له سالم : إني لأستحي من الله أن أسأل في بيته غيره . فلما خرج سالم من الكعبة خرج هشام في إثره وقال له : الآن انتهينا من الطواف في الكعبة وخرجنا فسلني حاجتك . فقال سالم من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ قال هشام من حوائج الدنيا . فقال سالم : إني ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسأل من لم يملكها ؟

نأخذ من هذه القصة أن الذي أجاب به سالم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو التوكل الصحيح فالإنسان يعمل ويتوكل على الله الذي بيده كل شيء فهو الخالق الرزاق النـــافع الضار وأما العبد فلا يملك لنفسه نفعـاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً ولا حيـاة ولا موتاً « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخـير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهـار في الليـل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب »

رزقنا الله نعمة التوكل وحقق لنا العزة والسيادة والمجد والسعـــادة « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ».

ما هي عوامل النهوض؟ (١)

لابد لكل شعب كريم يريد النهوض ويسعى للتخلص من التخلف الاقتصادي والإجتماعي أن يعد العدة لهذا الإنقلاب السعيد حتى يكون له جليل الأثر في حاضره ومستقبله فنحن في عصر الإختراع والإبتداع والجهاد والنضال في عصر استأثر فيه الأقوياء العاملون بالخيرات وباء فيه الضعفاء المقصورون بالحسرات لذلك يجب علينا أن نبحث في علل تأخرنا وفي علاجه وهل الى الخلاص منه سبيل وفي المثل «ما حك جلدك غير ظفرك» وهذا أمر طبيعي إذ من يتألم لأوجاعنا أكثر منا ومن يهمه أمرنا أكثر من غيرنا فعلينا أن لا نعول على مؤازرة الغير بل الأحرى بنا أن نعتمد على أنفسنا ونبذل كل ما في وسعنا للوصول الى الغاية التي نسعى اليها. إن الأمة التي يكثر فيها العاملون والعارفون وتنتشر فيها وسائل الصحة في الأجسام والبيئات ويعظم فيها العاملون الذين تستغني بإنتاجهم الأمة عمن سواها من الأمم وتغلب فيها الأخلاق الطيبة التي تحول دون تفشي الباطل وانتشار الفساد جهرة هي الأمة الصالحة لأن يورثها الله الأرض والعاقبة للمتقين قال الله تعالى **«ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون»**. هذا وقد رأيت بعد إمعان النظر ودرس هذا الموضوع أن العوامل المؤدية الى نهوضنا هي ثلاث عوامل وسنتكلم على كل عامل منها.

العامل الاول

المحافظة على العقيدة والمراد بالعقيدة هو الإيمان بالله فالإيمان هو العنصر الفعال في نهضة الأمة فهو الذي يجمع بين أفرادها ويكون فيهم الاتحاد والمحبة

والألفة فإذا ضعفت العقيدة وهنت قوة الأمة ووجد في داخلها الاختلاف والنزاع والخصام والإنقسام والشحناء والبغضاء لذلك كانت نهضات الأمم في عصور التاريخ المختلفة تابعة لقوة العقيدة وأصدق شاهد على ذلك قيام العرب بالفتوحات العظيمة التي تعد من مدهشات التاريخ في وقت إستيلاء العقائد على قلوبهم حتى أخضعوا لحكمهم معظم الأمم المجاورة لهم كأمة الفرس والرومان ولم ترهبهم كثرة عددهم وعددهم بل أندفعت جيوشهم القليلة عليها كالسيل الجارف ففتحت لهم تلك الأمم صدرها ورحبوا بهم فعاملوهم معاملة حسنة ونشروا بينهم لواء العدل والمساواة والإخاء بحق وأزالوا كابوس الظلم والاستعباد الذي رزحوا تحته عدة قرون .

وكلما قوي سلطان العقيدة كانت الأمة عزيزة الجانب موفورة الكرامة لأن العقيدة هي التي تدفع النفوس إلى التضحية في نصرتها والمحافظة على كرامة الأمة فإذا طرأ عليها تغيير ما جر وراءه عدة تغييرات وبث عوامل التفرق بين الأفراد وتمزيق الوحدة التي هي سر عظمة الأمم فتصير الأمة فرقاً متعادية وأحزاباً متنافرة ينتصر كل منهم لرأيه فتنشأ الفتن الداخلية في الأمة وتنصرف عن الأعمال المجيدة الى الشغب الذي ليس وراءه إلا الاضمحلال والبوار . ولذلك نرى الأمة الاسلامية عندما ظهرت فيها الفرق المخالفة للسلف وأهل السنة والجماعة كالخوارج والروافض وغيرها من الفرق قد وقف سير فتوحها وظهرت عليها أعراض الأمراض الإجتماعية التي تصيب الأمم في مثل ذلك الطور من الإنحلال وصارت تضعف شيئاً فشيئاً حتى آستولت الأمم الأخرى على معالم شعوبها كما شاهدناه ولازلنا نشاهده إلى الآن ، فالخطر الدائم الذي يعتري الأمة ليس هو الضعف المادي كما يتوهمه كثير من الناس لأن الضعف المادي عارض يطرأ ويزول بمجهودات الأمة الحية اليقظة وكم من أمم غلبت على أمرها في الحروب ثم نشطت من عقالها بعد ذلك كما كان من ألمانيا بعد أن هزمت في الحرب العالمية الأخيرة فإن ذلك لم يوهن من عزيمتها بل أخذت تستعيد مجدها وعظمتها شيئاً فشيئاً وكذلك وقع لفرنسا بعد الحرب السبعينية وإنما الخطر

الداهم هو ترعزع العقيدة في الأمة فينشأ عن ذلك ضعف الوازع الديني وهو ضعف الإيمان في القلوب فيندفع الإنسان في تيار هوائه وشهواته ويصير لا يبالي بأي جريمة وها نحن عندما نقرأ الجرائد والمجلات الغربية نرى أن سلسلة الجرائم في أوربا يزداد شرها ويتفاقم أمرها والقوانين تقف أمامها مكتوفة الأيدي وهذا أعظم برهان على فشل هذه القوانين .

لذلك عني الإسلام بتقرير العقائد التي تكون الروح المعنوية للأمم عناية كبرى وبرهن عليها بالأدلة الصحيحة التي تقنع كل منصف لم تصب فطرته آفة العناد .

وعقائد الإسلام هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وعقيدة البعث وهو الإيمان باليوم الآخر لها أثر في إيقاظ الضمائر إذ جعلت المسلمين يحاسبون أنفسهم على كل جليل وحقير من أعمالهم قبل أن يحاسبهم الله عليها يوم القيامة وكانت قوانين الشريعة تقوم عندهم مقام الشرطي والحاكم وبذلك زكت نفوسهم وتطهرت قلوبهم وكان لهم من وجدانهم أعظم رادع عن المنكرات وأكبر باعث على العمل الصالح المؤدي إلى سعادة الدارين ولا أطيل الكلام في آثار كل عقيدة على حدة فإن آثار العقائد في الحياة الإنسانية كثيرة جداً وإنما أكتفي بالإلماع إلى ظاهرة جلية في حياة المسلمين نشأت من تأثير العقائد وهي ظاهرة التقدم الباهر في الفتوحات التي غيرت مجرى التاريخ وهي التي لم يقف سيرها عن التقدم العظيم إلا بعد ظهور الفرق المنابذة للسنة التي أوهت قوة الأمة وأورثتها ضعفاً لا نزال نعاني آثاره السيئة اليوم ولم يقتصر الإسلام على تقرير العقائد بل شرع الله فيه للناس العبادات والشرائع التي تنمي العقائد في القلوب وتثبت دعائم اليقين وتزكي النفوس كالصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها من أنواع الطاعات . وخلاصة القول إن العقيدة هي روح الأمة وإنه لا يمكن أن تحيا أمة بدونها لأن التدين بعقيدة ما غريزة فطرية من غرائز الإنسان الطبيعية لا يستطيع التخلص من سلطانها .

ويحدثنا التاريخ أن زعماء الثورة الفرنسية الكبرى حاولوا أن يؤسسوا

دولة على أساس الإلحاد فلم يتم لهم ذلك وما كادت الثورة تنطفيء جذوتها حتى عاد الناس إلى أحضان العقائد مرة أخرى ونبذوا تلك التعاليم الإلحادية التي بثها بينهم زعماء الثورة نبذ الرداء الخلق . وهذا مثال نسوقه للمغرورين من أبنائنا المفتونين بتقليد الغربيين في كل جليل وحقير ليعلموا أن الإجرام الحقيقي هو التعرض لعقائد الأمة بالمحو والتبديل ، فعقائد الأمة هي أقوى رابطة بين أعضائها وأنجع وسيلة لعلو شأنها وارتفاع رايتها وهذه حقيقة بينة قررها الشرع الحكيم وأقرها العقل في كل زمان ومكان وأبان أن قضية العقل تأبى الاعتقاد الفاسد ونهى على التقليد بدون حجة وذم ذلك غاية الذم وقبحه واستنكره فاستمع إليه حين يقول : « **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون** » « **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** » والناظر للقرآن الكريم يراه قد سلك بالنفوس مسلكاً حكيماً فيما يريد منها من اعتقاد صحيح ويقين خالص فتراه قد نبه على فضل العقل وأشاد بذكر العلماء والمفكرين الذين جعلهم أهلاً للتذكر والاعتبار فاستمع إليه حين يقول : « **وما يذكر إلا أولوا الألباب** » ، « **قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون** » « **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** » « **هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق نفصل الآيات لقوم يعلمون** » ثم بين العقيدة الفاسدة وما يترتب على اعتقادها من عدم الفائدة مبيناً بطلانها مكثراً في ذلك من الشواهد وضرب الأمثال فاستمع إليه حين يقول : « **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون**

بها أم لهم آذان يسمعون بها قل آدعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ان وليي الله الذي نزل الكتـــاب وهو يتولى الصالحين والذين تدعـون من دونـــه لايستطيعون نصركم ولاأنفسهم ينصرون»ومرة يضرب لنا الأمثال ليقرب البعيد ويصور المعقول بصورة المحسوس بقوله «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له» «إن الذين تدعون من دون الله ان يخلقوا ذباباً ولو آجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شئيا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ماقدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز »وهكذا تمتلأ النفس يقينا واطمئنانا إلى الحق ويزيح عنها كل شك وآرتياب هذا هو مسلك القرآن الكريم في تقرير العقائد وتركيزها فليسلكه كل شاب مسلم فالعقيدة تربي في القلوب الخوف من الله وتحيي في النفس الشعور بالكرامة والعزة.

حدثناكم في درسنا السابق عن عوامل النهوض وقلنا إنها تتلخص في ثلاث عوامل وقد تكلمنا على العـــامل الأول وهو المحافظة على العقيدة وفي هذا الدرس سنتكلم على العامل الثاني وهو الأخلاق .

العامل الثاني (الأخلاق)

قال بعض كبار الفلاسفة «ما سعـــادة الأمم بكثرة أموالهـــا ولا بقوة استحكاماتها ولا بجمال مبانيها وإنما سعادتها بأبنائها الذين حسنت تربيتهم واستنارت بصائرهم واستقامت أخلاقهم ففي هؤلاء سعادتهـــا الحقة وهم قوتها الرئيســـة وعظمتها الجوهرية . وقال أمير الشعراء بمصر :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال غيره

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءهـــا للبر ركن

الأخلاق الفاضلة قـــوة فعالة في نهضات الأمم فهي التي توقظ الشعور الحي في نفوس أفراد الأمة للقيام بالواجبات الشخصية والاجتماعية وتجعلهـــم يقدرون المسؤوليـــات الملقاة على عاتقهـــم في هذه الحيـــاة والتبعات المترتبة على أعمـــالهم

وهي التي تثير فيهم دوافع لتلبية نداء الواجب عليهم في البيئات التي

يعيشون فيها وإيثار المصالح العامة التي تتوقف عليها سعادة الأمة ورفاهيتها على الأثرة والغلو في إيثار المنافع الشخصية وهي التي تنير البصائر للسير على الصراط المستقيم وتوقظ الضمائر التي يسمو بها الإنسان في معارج الرقي والكمال وتحول بينه وبين المفاسد والرذائل التي تفسد العقل والجسم والمال ولأجل ذلك عنى علماء الأخلاق والمصلحون في كل عصر بالأخلاق وأحلوها المحل الأعلى من عنايتهم لأنهم يعلمون حق العلم أن الأمم لا تنتظم أحوالها إلا إذا استقامت أخلاق أهلها وتهذبت نفوسهم وتكونت عندهم العادات الفاضلة .

أما المفاسد والشرور فهي الداء العضال الذي يصيب مفاصل الأمم فيمزقها ويمحوها من صحيفة الوجود لأن كل مفسدة لها آثار ضارة في النفس والعقل والجسم والمال فتكدر صفاء الفطرة وتدنس النفس وبالمران عليها تتكون عند صاحبها عادة الشر والإجرام التي هي مبعث القلاقل والفتن وتفسد العقل وتصرف الإنسان عن التفكير في الأعمال النافعة لشخصه وأمته ، ولذلك نرى الرجل الذي انقاد عقله وإرادته لسيطرة أهوائه لا يستطيع النجاح في أعماله لأن كل شهوة من شهواته تجذبه إلى شهوة أخرى فيصير كالريشة في مهب الريح العاصفة ولا يجد في وقته فرصة للتفكير النافع المفيد .

وكثير من الجرائم تؤثر في ضياع العقل وإضعاف الجسم كما نراه فيمن يتعاطون المواد المخدرة لأن صاحب الهوى يحمل جسمه ما لا يطيق في سبيل أغراضه وقد يصاب من جراء شهواته بأمراض فتاكة ويحتاج إلى تبذير ماله دون أن يحسب للعواقب حسابا وقد يضطر إلى الاستدانة فإن عجز عن سداد دينه تخلص من جريرة بجريرة أخرى أو تجرع كأس الذل وعاش مهيناً محتقراً .

ومتى فسد العقل وأصيب الجسم وضاع المال ضاعت سعادة الحياة زيادة على أن الأهواء والمفاسد تعوق الناس عن توجيه مجهوداتهم إلى المصالح العامة وتجعلهم يؤثرون الهوى على تلبية نداء الواجب لذلك يحدثنا التاريخ أن كل أمة انقادت لأهوائها وشهواتها وآثرتها على الفضائل سقطت من علياء مجدها إلى هوة الزوال والفناء كما حصل لدولة الفرس والرومان فقد كان فساد الأخلاق فيهما هو

السبب في زوال عظمتهما وضياع ملكهما حيث بدلوا الصدق بالكذب والأمانة بالخيانة والإخلاص بالنفاق والطهارة بالدعارة فغلبوا على أمرهم وجاس العرب ديارهم واكتسحوها ومدوا سلطانهم عليها مع أنهم أقل عدة وعدداً وثروة ، من هذا يتبين لنا أن الأخلاق الفاضلة هي الأساس الذي تستند عليه عظمة الأمة فالأمة إنما ترتقي أو تسقط وتسود أو تذل بأخلاقها لا بثروتها ولا بعلومها لأنه مهما بلغت من الثروة ومهما تبسط أهلها في العيش فبنوا القصور وغرسوا الحدائق وافترشوا الحرير مهما يكن من ذلك فتلك الأمة لا تزال منحطة ضعيفة ما لم تكن الأخلاق الحسنة شعارها وقاعدة معاملاتها فيتعامل إذ ذاك أبناؤها بالصدق ويتخاطبون بالصراحة من غير كذب ولا غش ولا نفاق ولقد صرح رسول الله ﷺ بأن الحكمة المقصودة من رسالته إنما هي إتمام ما نقص من مكارم الأخلاق .

فإذا كنا نريد النهوض حقاً فما علينا إلا أن نهتم بمكارم الأخلاق لأن النجاح لا يتوقف على الثروة ولا على العلم ولكنه يتوقف على أحوال داخلية ترجع إلى علاقات الأفراد بعضهم ببعض .

أروني في هذه البلدة تاجراً مستقيماً ولا يكون النجاح حليفه أروني صانعاً حسن الخلق صادقاً غير مخلف لوعده ولا يكون محبوباً من الجميع أروني رجل دين لا يضر الناس ولا تخشع لهيبته القلوب أروني طبيباً همه خدمة الإنسانية لا خدمة جيبه ولا تكون أعماله مكللة بالنجاح أروني معلماً يعلم التلامذة ويقصد إفادتهم ولا يشيد تلاميذه بمكارم أخلاقه أروني موظفاً أميناً يصرف جهده إلى العمل المنتج ولا يكون محبوباً عند رؤسائه . والخلاصة أن المقياس الذي تقاس به عظمة الأمة ليس هو العلم والثراء والقوة الحربية لأن العلم بدون الأخلاق الفاضلة قد يكون شراً ووبالاً على المجتمع ودليل ذلك أنا نرى في هذا العصر كبار المجرمين يستخدمون كثيراً من العلوم في وسائل الإجرام التي تهدد الأمن العام بالخطر لأنهم ليس لهم من ضمائرهم ولا من أخلاقهم ما يردعهم عن استخدام علمهم في الشر والإجرام .

وكذلك الثراء ليس دليل على عظمة الأمة ورقيها لأنه عرض زائل ومتى

تسلطت عليه الأهواء بددته سريعاً بل لا تستطيع الأمم أن تحافظ على ثرواتها إلا إذا كان المهيمن عليها من أصحاب الفضائل والاستقامة وكذلك القوة الحربية ليست مقياساً دقيقاً لرقي الأمة فكم من أمم قوية البأس شديدة الشكيمة قد زالت من عالم الوجود لعدم وجود المناعة الخلقية التي تحول بينها وبين السقوط ولم تغن عنها القوة شيئاً وإنما المقياس الحقيقي لعظمة الأمة هو ما في نفوس عامة الشعب من الصفات الخلقية الفاضلة التي تصرف جهود الأفراد إلى العمل النافع المنتج الذي تتوقف عليه سعادة الأمة وعظمتها .

وأعظم الخصال الفاضلة التي تتوقف عليها عظمة الأمة هي : الصدق والامانة والاستقامة والعفة فإذا فشا الكذب والنفاق وعمت الخيانة وذهبت الاستقامة وانتشر الفجور حقت على الأمة كلمة الفناء ، وخلاصة القول إن الأخلاق الفاضلة هي أهم المقصود من الدين يدل على عظم شأنها أن الله تعالى مدح رسوله ﷺ بحسن الخلق فقال تعالى : **وإنك لعلى خلق عظيم** » ومن يراجع الكتاب والسنة يرى فيهما آداب المنزل وما يجب على المرء نحو والديه وزوجته وأولاده وذوي رحمه وآداب الجوار وآداب المجالس والآداب العامة وغيرها وهذه الآداب والفضائل لو عمل بها المسلمون لانتظمت بيوتهم وتهذبت بيئاتهم وصلحت جماعاتهم وأصبحت شعوبهم على أحسن ما ينبغي من الخير والكمال .

ولكنا مع الأسف الشديد نرى إهمالاً لتلك الفضائل السامية قد سرى في الشعوب الإسلامية وأصبح الناس يسيرون على حسب أهوائهم المخالفة لآداب الإسلام وبذلك فقدوا كثيراً من السجايا والخلال الحميدة التي كانت سبباً في عظمة الأمة الإسلامية سابقاً وبدت نواحي الضعف الخلقي في حياتنا ظاهرة جلية .

لا زلنا بصدد الحديث على عوامل النهوض وفي هذا الدرس سنتكلم على العامل الثالث وهو العمل

العامل الثالث (العمل)

أما العمل فهو أعظم العوامل الفعالة في رقي الأمم بل هو عماد الحياة

فردية والاجتماعية ولولاه ما استطاع الإنسان أن يعيش على ظهر الأرض والمراد بالعمل كل ما يقوم به الأفراد والجماعات البشرية من المجهودات في عالم الزراعة والصناعة والتجارة التي هي ينابيع ثروة الأفراد والأمم والإنسان مسوق إليه بدافع من غريزة حب البقاء وغريزة المحافظة على النوع لأنه لا يستطيع أن يجلب رزقه إلا من طريق العمل فلولاه لاندثرت الصناعات ووقف سير التجارة وأقفرت الأرض من النبات والحصالات وفنى عالم من هذا الوجود، فالعمل إذن ضرورة من ضروريات الحياة وسبب من أسباب الوجود وتلك سنة الله في خلقه . والعمل في هذا العصر أساس الفوز في الأمم فترى كل أمة تبذل كل مجهوداتها في منافسة غيرها في التجارة وفي الصناعة وفي الزراعة وتبتكر كل وسيلة ممكنة لاحتلال الأسواق ومزاحمة غيرها فيها وترويج منتجاتها للحصول على الثروة التي أصبحت في هذا العصر من ضرورات الحياة .

فالأمة العظيمة المثقفة هي التي تعرف كيف تستغل مواردها وتستخرج خيراتها من فاضل إنتاجها إلى البلاد الخارجية أكثر مما تستورد منها مما تمس إليه الحاجة القصوى فلو أن جماعة من جماعات المسلمين احتاجت إلى صنعة واحدة قد أهملها أهلها أثم الجميع واستحقوا المؤاخذة فإذا قام بها البعض سقط عن الباقين . وقد كان المسلمون في ما مضى يعنون بالصنائع والأعمال عناية عظيمة فكان فيهم الصناع المهرة وأرباب الفنون والحرف الذين يقومون بسد حاجات فاستقامت أحوالهم وانتظمت حياتهم والذي يؤسف له أن كثيراً من الناس يظنون أن الصناعات والأعمال اليدوية من الأمور الحقيرة في الأمة ويحسبون أن فيها خسة ومهانة لا شرفاً ولا كرامة ومن أجل ذلك نراهم يبذلون قصارى جهدهم في سبيل الحصول على وضيفة حكومية أو ما يشبهها مما يكون بعيداً عن اسم الصناعة والحرفة والزراعة .

ولست أدري ما سبب هذا الرأي وهذا الاعتقاد وقد قال رسول الله ﷺ ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده ، فرسول الله ﷺ رغب جماعة المسلمين في أن يوطنوا

.موسهم على أن يكون كسبهم لقوتهم من طريق عمل الأيدي في الصناعات والحرف وتعلمهم أن هذا الطريق فيه لأهله كرامة وشرف فنبي الله داود الذي جعله الله في الأرض في بني اسرائيل كان من عمال الدروع لرجال الحرب ولم ير في هذا الكسب خسة ولا مهانة . وما كان سبب القوت من طريق العمل اليدوي مقصوراً على داود عليه السلام بل كان أكثر الأنبياء مثله فقد روى التاريخ أن نوحا وزكرياء كانا نجارين وأن موسى كان راعياً وقصته في القرآن مع شعيب مشهورة وكان إبراهيم ولوط زراعين وكان إدريس خياطاً وكان صالح تاجراً وكذلك كان نبينا عاملاً في تجارة السيده خديجة رضي الله عنها .

وكذلك روي أن أبا بكر وعثمان بن عفان وعبدالرحمان بن عوف كانوا برازين أي تجاراً في الثياب وكان الزبير بن العوام وعمرو بن العاص حزازين وكذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ثبت أنه كان تاجراً وأن عمله بالسوق كان يشغله حيناً عن استماع بعض الأحاديث من رسول الله ﷺ وأبوبكر لم تمنعه الخلافة من التجارة والكسب فقد روي أنه لما بويع الخلافة ذهب إلى السوق في اليوم التالي ليوم للتجارة والكسب فلقيه عمرو وأبوعبيده عامر بن الجراح فقالا له كيف تصنع هذا وقد وليت أمر المسلمين فقال : ومن أين أطعم عيالي ؟ إني إن ضيعتهم كنت للمسلمين أضيع فما زالا به حتى قالا له يفرض من بيت المسلمين ما يكفيك ويكفي أهلك بالمعروف فرضي .

كل أولئك لم يروا في الصناعة خسة ولكنهم رأوا في الاشتغال بها لكسب القوت عزاً ولو أردنا أن نسوق لكم الشواهد على ما للعمل من قدر ومستقبل زاهر للشعوب ما وسعتنا هذه المحاضرة .

ولو درس المسلم دينه لما أضاع دقيقة واحدة من عمره في قيل وقال وكسل وخمود وما استهان بالوقت يقطعه في المقاهي في اللعب والمجون ولو تدبر القرآن لعرف قيمة الوقت وقدر الزمن فالله تعالى لا يقسم إلا بالأمر

الجليل والشيء العظيم وقد أقسم الله بالليل والنهار وبالفجر والضحى وبالعصر والصبح ليدلنا على عظم هذه الأوقات وليعرفنا قيمة الوقت وحسابه وضبطه حتى لا نضيعه هباء فقال في كتابه العزيز : **والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ، **والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى** ، **والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم** . **والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر هل في ذلك قسم لذي حجر** ، **والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى**

وخلاصة القول إن الإسلام قد حث على العمل حثاً لم يعهد مثله في دين من الأديان قال تعالى : **فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** وقال : **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ، والمقصود بالانتشار في الأرض السعي في طلب الرزق . فأنتم ترون أيها الإخوان كل عوامل المدنية قد تضمنها الإسلام لأنه الدين السماوي الذي أتى بأرقى نظم العمران وتكفل بسعادة الناس في الدنيا والآخرة فلو عمل المسلمون بتعاليمه الحقة لكانوا أعز أمم الأرض كما كان أسلافهم ولكنهم فرطوا فتأخروا هذا التأخير المروع فلا هم أدركوا ما كان عليه السلف من الصلاح والتقوى ولاهم عملوا لدنياهم كما عمل غيرهم ولكننا نحمد الله ونشكره أن ابتدت روح اليقظة تسري في قلوب التونسيين بعد ما أصابهم من المحن والكوارث والدروس القاسية والاستعمار .

فتونس اليوم قامت تسير في طريق التحرر من مصنوعات الغرب ومنتجاته ففتحت المصانع بأنواعها كمصانع النسيج ومعامل البلور وغيرهما كما فتحت أبواب العمل لكثير من العاطلين ولو أردنا أن نأخذ المقاييس ونقيس بها حال تونس قبل الاستقلال وبعده لوجدنا أن الخطوات التي خطتها تونس في هذه العشر سنوات من الاستقلال لوجدنا أنها خطوات واسعة لا يتسنى لأمة أخرى أن تبلغها فقبل الاستقلال كان التونسي عالة على الغرب لا يجد شيئاً من مصنوعات بلاده والآن

والحمد لله أصبح الواحد منا يمكنه أن يلبس كل ملابسه داخلاً وخارجاً من منتوج بلاده وما يقال عن الملابس يقـــال في الأثاث مثل أثاث البيوت وآلات الطبخ والمنتوجات الغذائية وغير ذلك وتلك هي أهم عوامل النهوض فإذا اجتمعت في الأمة معتقدات راسخة وأخلاق فاضلة وعلم صحيح وعمل مثمر بلغت الأمة مـا ترجوه من الحياة السعيدة المطمئنة .

ما هي وسائل النجاة ؟

روى الترمذي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك .
الإنسان إذا استنار قلبه بنور الإيمان أحب لنفسه النجاة من المهالك في حياته وبعد مماته ولقد كان سيدنا عقبة بن عامر من هذا النوع مهتماً براحة نفسه ونجاتها من المهالك فسأل الرسول عن أسباب الراحة في الدنيا والآخرة فأخبره بهذه الأشياء الثلاثة التي فيهن العظمة والعبرة لمن تذكر وتدبر .

فالأولى : من وسائل النجاة مراقبة اللسان فيما ينطق به فإن كان ينطق بخير فدعه يتكلم وإن كان بشر فامنعه من الكلام وإلا أوصلك إلى الشقاء في الدنيا وكبك في النار على وجهك في الآخرة .

فحفظ اللسان عن النهش في أعراض الناس كالغيبة والنميمة يورث المودة والمحبة أما كلمة الشر فلا تورث إلا شراً والكذب في القول يسود الوجوه الناضرة وشهادة الزور تقلب الحق باطلاً لأن كل ما ينطق به العبد من خير أو شر مسطر في صحيفته ويحاسب عليه وسيكون لسانه شهيداً عليه يوم القيامة بما نطق **« يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون »**

الثانية : من وسائل النجاة البعد عن الناس إلا فيما يعود على الإنسان بخير دنيوي وأخروي وهي قوله ﷺ : وليسعك بيتك فقد أرشدنا الرسول إلى أن الإنسان لا يحفظه إلا بيته فلا يجتمع بالناس إلا لمصلحة دنيوية أو أخروية كالسعي على الأرزاق من صناعة أو تجارة أو سماع درس أو محاضرة تعود عليه بالخير والنفع فإن لم يكن شيء من ذلك فليلتزم بيته هذا ولقد يأخذنا العجب حينما تخونن

القدم وندخل في إحدى المقاهي فنجدهـا مملوءة بالجوع من الناس وهم يقطعون النهار وهزيعـاً من الليـل منهمكين في اللعب واللهو كأنهم في مصنع حوى بين جدرانه عمالاً غيورين لا يرغبون عنه بديلاً فهؤلاء نكبة على الأمة فكأنهم لم يبلغهم أمر النبيء ﷺ أن يأخذوا من فراغهم لشغلهم ومن شبابهم لهرمهم ومن صحتهم لمرضهم ومن غناهم لفقرهم ومن حيـاتهم لموتهم ولم يعرفوا أن الوقت كالسيف أن لم يقطعه الإنسان قطعه أو قول الشاعر :

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحيـاة دقائق وثوان

فارفع لنفسـك قبل موتك ... فالذكر للإنسـان عمر ثـان

الثالثة : من وسائل النجاة التوبة من الذنوب والندم على فعلهـا وهي قوله ﷺ : « وإنك على خطيئتك » يعني أن الشخص إذا زلت قدمه ووقع في مخالفة أوامر الله واقترف ذنباً فإنه ينبغي له أن يبادر بالتوبة منه والندم عليه ويعجل بالاستغفار وعدم الإصرار على الذنب لأن الإصرار على المعصية تجـره إلى الكفر ولهذا قال الرسول عليـه السلام : « المعاصي » يريد الكفر فالواجب على الإنسـان أن يقلع عن المعصية ويندم لأن الندم على فعل الذنوب والتوبة منها يكونان للقلب كالصابون للثوب فالتوبـة تغسل القلب وتنظفه من أدران الذنوب ، كما يغسل الثوب القذر وينظف بالماء الساخن والصابون هذه الأشياء الثلاثة هي طرق النجاة من مهالك الدنيا وعذاب الآخرة وهي : حفظ اللسـان من النهش في أعراض الناس والبعد عن الناس إلا فيمـا يعود على الإنسان بالخير والتوبة من الذنوب فمن كان يحب النجاة فليعمل على تنفيذ هذه الوسائل الثلاثة يربح وينجح ويسلم في الدنيـا والآخرة .

نسأل الله أن يوفقنا إلى ما فيه رضاه ويهدينا جميعـاً إلى الخير بجاه حبيبه ومصطفاه .

العـــزة للأقويــاء

قال الله تعالى في كتابه العزيز **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ، هذه الآيــة الكريمة تضمنت قـاعدة من قواعد الحياة صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان فأي قطر إسلامي عمل بها ثم له نظام حربي يستطيع أن يعيش به آمناً مطمئناً فكلمة من قوة صالحة لأن تطبق في زمان السيف لأنه قـــوة وفي أسلحة هذا الوقت لأنها قوة فكل قوة أظهرها العالم فهي داخلة تحت هذه الآية وكلمة ما استطعتم شاملة للتجنيد العسكري في الوقت القديم والحاضر وهذه القوة التي أمرنا الله بها هو أنه يجب على المؤمنين أن يكونوا أعزاء في بلادهم لا أذلاء وأقوياء لا ضعفـاء وأن تكون خيراتهم لهم لا لعدوهم وأن يعيشوا تحت سلطاتهم لا تحت سلطـــان غيرهم والقوة تنقسم إلى قسمين مادية ومعنوية فالمادية هي الأسلحة بجميع أنواعها كالمدافع والطائرات والدبابات والطانكات والصاروخات وغير ذلك وأما المعنوية فهي قوة العقيدة والإيمان بالله وقد نبهنا القرآن إلى أن القوة المعنوية في القتال مع العدو تفعل ما لا تفعله القـــوة الحسية لأن المؤمن الذي يقـاتل في سبيل الله تراه يثق بثواب الله ورضوانه وأنه إذا مات شهيداً ويتذكر مـــا أعده الله للشهداء من الخير الجزيل والنعيم المقيم في قوله : **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بمـــا آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** . بخلاف الفاقد لهذه العقيدة فهو لا يستوي هو وصاحبها وقد أشار الله إليها في كتابه العزيز في قوله : **ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون**

من الله ما لا يرجون **وكان الله عليماً حكيماً** ، ومعنى الآية إنكم إذا حاربتم الأعداء وليس لهم عقيدة في الله وعندكم هذه العقيدة فإنهم يشتركون معكم في آلام الجسم ومشقة القتال وأنتم تمتازون عليهم بأنكم ترجون الثواب وهو ما لا يرجونه . وكم شهد التاريخ بصدق قوة هذه العقيدة فهؤلاء أصحاب محمد ﷺ كانوا في قلة من جهة عددهم ومع ذلك فتحوا في نصف قرن من الممالك ما سجله لهم التاريخ ودانت لهم الملوك والأكاسرة بالطاعة وخطبوا ودهم ففتحوا مصر والشام والعراق وفارس وشمال إفريقيا وجنوب أوروبا مما كانت فيه من إضطراب وفساد .

يحدثنا التاريخ أن سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما أراد أن يفتح مصر بعث بوفد من الصحابة لمفاوضة المقوقس حاكم مصر وفيهم عبادة بن الصامت وكان أسود البشرة وأمره أن يكون هو المتكلم ولما دخلوا على المقوقس تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده وقال نحوا علي هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني فقالوا له : إن هذا الأسود أميرنا وهو أفضلنا رأياً وقد أمره الأمير بالتكلم عنا فقال له المقوقس تقدم فتقدم إليه وقال إني أدعوكم إلى إحدى خصال ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال فقال له المقوقس نصالحكم بأن نعطي لكل واحد منكم دينارين ولأميركم ألف دينار في العام وتنصرفوا إلى بلادكم وإلا وجهنا لقتالكم مالا يحصى عدده من جند الروم وإنكم لن تطيقوهم لضعفكم وقلة ما في أيديكم فارضوا بما فرضناه لكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به فأجابه عبادة وقال له : يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك أما ما تخوفنا به من جموع الروم و كثرتهم وقوتهم وإننا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به فإننا إذا تقابلنا مع جيوشكم وقتلنا عن آخرنا تمتعنا برضوان الله وجنته فإنا منكم لعلى إحدى الحسنيين إما أن تعظم لنا غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه العزيز « **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** » وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده وأهله وولده وما همنا إلا نعيم الجنة .

وعندما سمع المقوقس هذه الكلمات تأثر وطلب من الوفد أن يمهلوه وقتا يتشاور فيه مع وزرائه ولما تشاوروا قال له قائد جيشه الأولى أن نصالحهم ونعطي لهم الجزية فقال له المقوقس إذا دفعنا الجزية نكون عبيداً لهم فأجابه القائد نكون عبيداً آمنين أهون علينا من أن نفنى عن آخرنا فلم يرض المقوقس وقال : الموت أهون علينا وبدأ بينهم القتال والمسلمون يرددون الله أكبر الله أكبر فكانوا هم الغالبين وانتصروا على أعدائهم وإن كانوا كثيرين . فأنتم ترون أيها الإخوان أن كلام المقوقس لم يرهب الصحابة ولم يضعف من عزيمتهم بل زادهم قوة على قوتهم، وإيماناً على إيمانهم وبهذا الإيمان استطاعوا أن يبسطوا سلطانهم من أسوار الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن جبال البرنات بفرنسا إلى المحيط الهندي جنوباً ولما خلف من بعدهم خلف غلبت نوازع الشهوات على قلوبهم فتقاطعوا وتدابروا وتفرقوا وبتفرق وحدتهم وتشتت شملهم ضاعت بلاد الأندلس فردوس الدنيا من أيديهم واغتصبها العدو منهم وانطفأ منها نور الإيمان وعم الكفر جميع البلدان . فقد عاشت هذه الدولة ثمانية قرون في قلب أوروبا وكان من بينهما مدينة قرطبة التي كانت كعبة القصاد وقبلة الرواد يأوي إليها كل من تدفعه عوامل الحاجة العمرانية والاقتصادية والاجتماعية وكان فيها سبعمائة مسجداً عدا المسجد الأعظم الذي يسع ثمانين ألف مصل ولاتزال آثار قصورها قائمة على أصولها تلك دولة إسلامية قد أبيدت ومحيت من عالم الوجود عندما فرطت في التمسك بوصايا الإسلام وشغلتها الأهواء النفسية فتفرق أهلها وتخاصموا وتنافروا وكان بعضهم لبعض عدواً خطيراً بعد أن كان ظهيراً ونصيراً فأراهم الله صدق قوله « **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** » وقد حدثنا التاريخ أن أبا عبد الله آخر ملوك غرناطة لما اضطر إلى الفرار إلى الشاطئ الثاني من بحر الروم أعد سفينة للهروب ولكنه قبل أن يضع قدمه عليها وقف عند الشاطيء وحوله نساؤه وأولاده ثم استدبر تلك السفينة ونظر إلى ملكه العظيم الذي خسره فغلبته عيناه وبكى وبينما هو يبكي إذ رأى شيخاً من المسلمين قائماً على صخرة يهتف بإسم ملك الأمس وطريد اليوم فاستمع إليه

فسمعه يقول : لك أن تبكي أيها الملك الذي أضاع ملكه كما تبكي النساء عند فقد الأولاد والأحباب إنك ضحكت كثيراً ولعبت كثيراً والدهر لا يلهو ولا يلعب فأبك اليوم بقدر ما ضحكت واندم على ما كان منك من لهو ولعب فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فقد اتخذ بعضكم لبعض عدواً وتخاذلتم وتقاتلتم وطلب كل منكم الملك لنفسه فتم لعدوكم ما أراد من هزيمتكم وإخراجكم من ديار أراق آباؤكم وأجدادكم في سبيلها دماءهم وباعوا نفوسهم لله الذي اشتراها منهم بجنة عرضهـــا السموات والأرض والله لتسألن يوم القيامة عن ملك أضعتموه وعن دين أضعتموه ثم ولى من حيث أتى فكانت كلمة الشيخ أشد على الملك من ضياع الملك فبكى بكاء مراً ثم نزل إلى الفلك وهو يتمنى أن يدركه الغرق .

أتذكر هذا وأتفقد أحوال المسلمين في هذه الأيام فأرى الشبه قريبـــاً ثم أتعمق في الخيال فأرى صورة الخراب قائمة ومـــاثلة أمام عيني فمعد مأساة الأندلس التي لم يفرغ التاريخ من البكاء عليها ولا تزال ذكراها حية في صدر كل مسلم غيور ضاعت فلسطين واستولت عليها دولة الصهاينة فأعملوا فيهـا سحقـاً وتنكيلاً وتعذيباً فنهبوا أموالها ودمروا بيوتهـا ودنسوا مساجدهـا وهتكوا أعراض نسائها وأمام هذا التنكيل والجور الفاحش الذي مضى عليه أكثر من سبع عشرة سنة وساسة العرب المجـاورين لهم لم تتحد إلى الآن كلمتهم على درء هذا الخطر المحدق بـإخوانهم وتخليصهم من القهر والظلم والجور والعسف الذي أصابهم من هذه الحياة التي صارت لا تطاق وعوض أن يتحدوا ويحرروا إخوانهم بالحديد والنار نراهم يضيعون أوقاتهم في أنواع الشتم والهجو والسباب وينشرون ذلك في الإذاعات مما تقشعر منه الأبدان ويقف عند استماعه شعر الإنسان.فإلى متى يا ساسة العرب هذا التطاحن والسباب والعدو لكم بالمرصـــاد يتربص بكم الدوائر ليبتلعكم لقمة سائغة كما فعل بالأندلس وفلسطين فأفيقوا حفظكم الله من هذه الغفلة وتفرق الكلمة وانصداع الوحدة وشتـات الشمل وارجعوا إلى تعاليم دينكم فهي وحدها الكفيلة بالنجاح والفلاح واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا

واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً فاتحادكم ومحبتكم لبعضكم وتعاونكم يحدث الرعب في قلوب أعدائكم وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن الله نصره بالرعب فيما مضى من الدهور والأعوام، وكونوا على حذر من عدوكم واستعدوا له كما أمركم ربكم فالحذر يورث السلامة والتهاون يجلب لكم الحسرة والندامة واسمعوا قول ربكم مخاطباً المؤمنين المتهاونين في سبيل الذود عن الوطن يوم دعاهم الرسول للجهاد فتباطؤوا وتثاقلوا « **يا أيها الذين أمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل** »

أسأل الله القادر على كل شيء أن يبصر الأمم الإسلامية بعيوبها ويقيض لها المصلحين ليعملوا على إصلاحها ومداواة أمراضها حتى نكون من السعداء الأقوياء أمام الأحباب والأعداء .

سنة الله في انجاء الأمم المستضعفة

قال الله تعالى في كتابه العزيز : « **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** » .

هذه أيها الإخوان آيات بينات حافلة بالعظات غاصة بالعبر فيها من الدروس النافعة ما لا يستغني عنه العامة ولا الخاصة ولا سيما المصلح السياسي .

يرينا الله بهذه الآيات أن فرعون كان إماماً للمستعمرين وقدوة للغاصبين ينسجون على منواله ويترسمون خطواته وفرعون هذا أول من سن للمستعمرين السنن السيئة وأرهق الناس وأذلهم وذبح أبناءهم واستحيي نساءهم وتمادى في ظلمهم وأسرف في استعبادهم فانتقم الله منه أشد الانتقام ومزق ملكه وحل به من الغرق ما حل فندم حيث لا ينفعه الندم فقال : « **آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** » **فلم يقبل الله إيمانه لأنه كان من المفسدين فأغرقه وأخرج بدنه جثة هامدة لتكون عبرة لمن يأتي بعده من الملوك الظالمين والحكام المستبدين .**

هذا ولا يخفى عليكم أنه في كل زمان توجد بطانات الظلم وأعوان السوء التي تلتف دائماً حول الظالمين وتعيش في أحضان المستبدين فهذه الفئة قالت لفرعون إن موسى يدبر لك المكائد ويتآمر عليك ويريد أن يخرجك من أرض سلطانك فكيف تتركه حراً طليقاً يفعل ما يشاء ويفسد قومك عليك فقال فرعون

عبيداً لهم . سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ومن البديهي أن تخاف بنو إسرائيل هذا الوعيد فطمنهم سيدنا موسى عليه السلام بقوله : استعينوا بالله واصبروا ـ بين لهم أن يحافظوا على وسيلتي الإيمان بالله والصبر .

وكم للإيمان من آثار جليلة في نهضات الأمم حتى أننا لو تصفحنا التاريخ لرأينا أن أعظم الأسباب في انتصار الأمة الإسلامية هو الإيمان الذي سما بها إلى أوج القوة والعظمة والسيادة فكون في العرب روحاً عالية بلغوا بها أن باعوا نفوسهم لله ورسوله فقد أوذي المؤمنون في صدر الإسلام بأشد أنواع الأذى وكان في مقدمتهم رسول الله ﷺ فقد رأى من المشركين كثير الأذى وعظيم الشدة في بدء دعوته خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت فقد كان يرمي بالقاذورات ودميت قدماه من الرمي بالأحجار هذا عدا الاستهزاء بدعوته وكما أوذي الرسول عليه الصلاة والسلام فقد أوذي أصحابه لاتباعهم له خصاصاً من ليس له عشيرة تحميه وترد كيد عدوه عنه ولم يفتنهم ذلك عن دينهم ولا إيمانهم بالله تعالى وقد صبروا وعملوا لنشر دين الله حتى أتم أمره على أيديهم وصاروا ملوك الأرض وبعد أن كانوا مستضعفين فيها كما قال تعالى : **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين .**

ومن الذين أوذوا بلال بن رباح الذي كان يخرج به في وقت الظهيرة في الرمضاء وهي الرمل الشديدة الحرارة ثم يؤتي بالحجرة العظيمة فتوضع على صدره وكان يقول : أحد ، أحد ، ومنهم زنيرة عذبت في الله حتى عميت ولم يزدها ذلك إلا إيماناً وممن عذب في الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه كانوا يعذبون بالنار ومنهم من مات تحت العذاب ولم يثنهم ذلك عن إيمانهم لأنهم فهموا الدين وعقلوه وتفهموه روحاً ومعنى فملأهم الدين بما فهموا عزة وقوة وحكمة وعلماً فوحد الله به عقائدهم وألف بين قلوبهم وربطهم بحبل من تراحم وتضامن وأحلهم من سمو الخلق والعزة مكاناً لم تبلغه قبلهم أمة في الغابرين فارتفع ذكرهم وامتد سلطانهم ومكن لهم في الأرض ما لم يمكن لغيرهم وكانوا أينما حلوا مثل العدل والإنصاف ومصابيح الهداية والعرفان .

هذا هو الإيمان الذي لابد منه لأنه من أكبر الوسائل في نجاح الحروب ويأتي بعده العامل الثاني من عوامل النجاح وهو الصبر على حدثان الدهر وبهذا استطاع بنو إسرائيل أن يتغلبوا على كيد فرعون إلى أن أنقذهم الله وفي ذلك يقول الله عز وجل: «**وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**» ثم قال سيدنا موسى «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» (وهم الذين يتقون الله بمراعاة سننه في أسباب الإرث) قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا (اي إننا لم نستفد من رسالتك لإنقاذنا من ظلم فرعون) قال عيسى «ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون» فهو يرجو لهم من فضل الله تعالى أن يهلك عدوهم الذي أذاهم بظلمه وأن يجعلهم خلفاء في الأرض التي وعدهم أياها فينظر سبحانه كيف يعملون بعد استخلافه إياهم فيهـــا هل يشكرون النعمة أم يكفرون وهل يفسدون أم يصلحون ليجازيهم في الدنيا والآخرة بما يعملون.

فليصلح كل واحد منا نفسه وليطهر قلبه من جميع الأدران لأن كل نهضة للإصلاح ووثبـــة نحو المجد والرقي والفلاح لا بد أن ترتكز على دعائم قوية من الإيمان بالله والخوف منه.

فعلينا أيها الإخوان أن ننتفع بما نلناه من الحرية والاستقلال لأن الله خلصنا من الاستعباد ومن علينا بالتحرير يجب علينـا أن نشكره وشكره ليس باللسان وإنما هـــو بالعمل الصالح كالاتحاد والمحبة والألفة والتوصي بالحـــق والإخلاص ونبذ الشقاق والنزاع وإقامة العدل والصبر على المكاره والاستعانة بالله تعالى ولا سيما عند الشدائد ونحو ذلك مما هدى إليه وحيه وأيدته التجارب فإذا اتصفت الأمة بهذه الصفات الطيبة ونبذت الأخلاق السيئة عاشت في أمن وأمان وهدوء واطمئنان لا تقهر ولا تغلب ولا تهـان وصدق الله العظيم الذي يقول: «**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إن كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً**» ويقول: «إنما المؤمنون الذين

إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» أسأل الله أن يجعل هذا الاستقلال مقرونا بالعز والإصلاح لجميع التونسيين .

نحـــو حيـــاة أفضـــل

إننا جميعاً ننشد الكمال ونتطلع إلى حياة أفضل ويتمنى كل منا أن يكون أحسن وأوفر حظاً وأهنأ عيشاً في حياته وتتجه آمالنا إلى أن نحقق لأبنائنا وذوينا أكبر نصيب من هذا الكمال وغايتنا من ذلك كله أن نظفر بقسط من السعادة والاطمئنان يملأ قلوبنا غبطة فننعم بالرضا الشامل : رضا الله ورضا الناس فماذا عسى أن يكون هذا الكمال ؟ ولمن ننشده ؟

إننا ننشد الكمال لأنفسنا ولا متنا وللإنسانية فما مظاهر هذا الكمال وما مقوماته ؟ هل كمال الفرد في ثروته وجاهه ؟ أم هو في علمه وذكائه وسداد آرائه ؟ أم هو في صحة جسمه وقوة عضلاته ؟ أم في خلقه وطهارة ضميره ونبل مقاصده ؟ وهل كمال الأمم في تلك المباني الشاهقة ؟ أم في خصب الأرض ووفرة ما تدر من خير ؟ أم في تسابق أفرادها إلى تحصيل العلم وإحراز الشهادات الدراسية وما كمال الإنسانية ؟ أهو في السلام والوئام بين الشعوب المختلفة أم هو في الكفاح والنضال ؟ أم هو فيما تنطوي عليه النفوس من حسن الطوية ونبل المقصد؟ الحق أن الكمال يتضمن كثيراً من هذا وإن تحقيق أغراضنا التي ترمي إلى حياة أفضل يتطلب اهتماماً وعناية بتحديد أطراف المنهج الإصلاحي الذي يوصل إلى الغاية . ثم إقراره ثم إعداد العدة لوضعه موضع الرعاية والتنفيذ ولعل خير من يهدينا إلى هذا المنهج الإصلاحي ويوضح لنا عناصره هو أن ننظر إلى حياتنا في ضوء ما وصلت إليه الأمم الأخرى وأحرزت من نصيب في المدنية وما تقوم به في إمداد الحضارة وفي التجديد والاختراع . بل لعل الأولى أن ننظر إلى حاضرنا في ضوء ماضينا المجيد وما بذل أسلافنا من جهود في إقامة دعائم الإصلاح وما قدموا من خير

أفاد منه من صحت عزائمهم وعلت هممهم من الشعوب التي تحاول الآن أن تنشبه بها وتتعلق بأذيالها ثم نوازن بين ما بنى أوائلنا وما بنينا وما غرس السابقون وما جنينا ونتبين كل هذا ففيه عبرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ننظر فيما سطره التاريخ لمعرف الدعائم التي قام عليها نهوض الأمم ولنرى نصيبنا من وضع هذه الدعائم وماذا أعددنا لحاضرنا ومستقبلنا فإذا اهتدينا إلى المنهج القريم الذي يوصلنا إلى الكمال أو يقربنا من غاياته سرنا في تنفيذه بعزيمة ثابتة وهمة صادقة ولعل أهم المقومات في هذا المنهج هذه الدعائم الثلاث :

العلم . المال . الخلق

ولكن أي هذه الدعائم يجيء في الطليعة ؟ وأيها أقوى أثراً ؟ أما العلم فلا نجادل في فائدته ولكنا لا نستطيع أن نقول أن أفراد الشعب يجب أن ينالوا جميعاً ثقافة عالية فليس هذا من طبيعة الواقع في الحياة العملية وليس العلم الغزير للجميع شرطاً في السعادة التي تنشدها الأمم وليس التفوق في الدراسات العالية ضرورياً للجميع لما هناك من فروق بين الأفراد في المواهب والاستعداد العقلي .

وأما المال الكثير والغنى الوافر فليس شرطاً للسعادة ولا مفر من أن يتفاوت الناس في نصيبهم من الثراء إما للحظ المقسوم وإما للإهمال والقعود عن طلب الرزق وعن السعي والكد في الحياة .

ومن ناحية أخرى نجد أن كلا من العلم والمال سلاح ذو حدين فقد يكون العلم عوناً على اختراع آلات الفتك والتدمير وقد يكون المال مطية للفساد إذا صحبه الفراغ وقاده الهوى .

وأما الخلق فهو الميدان الذي يتساوي الجميع في التسابق في نواحيه وهو الذخيرة الخالدة والثروة التي يستطيع الجميع أن ينهلوا منها بغير حساب وهو أيضاً سلاح أمن واطمئنان وهو فوق هذا الدرع الحصين للعلم والمال يقينا شرورهما ويعصمنا من ويلاتهما وهو من أقوى العوامل التي تقرب من أفراد الأمة وتوحد مقاصدهم وتؤلف بين قلوبهم وتجعل منهم وحدة متماسكة متضامنة قوية الجانب ورحم الله شاعر النيل حافظ إبراهيم إذ يقول في هذه الدعائم الثلاث :

فالناس هذا حظه مال وذا　　علم وذاك مكارم الأخلاق
والمال إن لم تدخره محصناً　　بالعلم كان نهاية الإملاق
والعلم إن لم تكتنفه شمائل　　تعليه كان مطية الإخفاق

فالخلق إذن هو أقوى الدعائم التي تقوم عليها الحياة الصالحة ولكننا في عصرنا الحاضر ألفنا أن نسمع الغلو في تمجيد العلم وتقديس المال ولعل السبب في هذه الظاهرة التي تغلبت على تفكيرنا في عصرنا الحديث وهي ميلنا إلى أن نضع العلم والمال في طليعة وسائل الرقي والنهوض هو ما أحاط بنا من قيود وأغلال كبلنا بها ما توالى علينا من استعمار واستعباد فحين تيقظنا في نهضتنا الحديثة وجدنا ميادين الأمم الأوربية تموج بالعلم وبالمادة وبالتسابق في إحراز الثروة فتحيرنا في أمرنا وصرنا نخاطب أنفسنا مـــاذا نعمل حتى نخرج من هذا العسر الذي ألم بنا ؟

لقد كنا فيما مضى نلصق بالمستعمر كل وجوه نقصنا فنحمله جهلنا وفقرنا واليوم والحمد لله قد زال ذلك العذر وخرج المستعمر إلى غير رجعة وحصلنا على استقلالنا وحريتنا وصرنا نباشر أمورنا بأنفسنا لذلك يجب أن نشمر عن ساعد الجد ونبني حياتنا من جديد ونتعاون مع بعضنا على تغيير الوضع الفاسد الذي كان قائماً على التفقير والجهل ونعوضه بإرساء قواعد جديدة لأوضاع جديدة يهدف إليها الشعب وهذه الأوضاع تتمثل في التخلص من التخلف الاقتصـــادي والاجتماعي .

فهل نحن في مسعانا مفلحون ؟

نعم إننا مفلحون بإذن الله إننا مفلحون بفضل عزيمة هي كالحسام أو أمضى عزيمة أمة مجدولة الساعد متقدة الذهن ملتهبة الفؤاد وما تلك الأمة بالفتيان دون الكهول والشيوخ فقد اتخذوا كلهم مسعى وتساووا همة ونشاطاً في خدمة تونس ورجوع مجدها الغابر وبفضل هذه العزيمة الصادقة أقبلت الأمة التونسية على العمل كل على قدر جهوده بعزم وحزم ونزاهة فأثمرت تلك الجهود وازدهرت البلاد وظهرت الأمة التونسية بين الأمم أمة حية عاملة راقية يجب أن يكون لها مكانها اللائق بين الأمم العصرية النافعة .

موقف الاسلام من الاشتراكية (1)

الإشتراكية معناها العام هي أن يتشارك الناس في الخير وأن يتقاسموا النعم الإلهية التي خلقها الله لهم بحيث يشيع بينهم الرخاء والهناء وتزول من بينهم الأحقاد والبغضاء وهذا المعنى للاشتراكية نجده واضحاً في مبادىء الإسلام الحنيف وتعاليمه فالله تبارك وتعالى يحدثنا في القرآن الكريم بأن كل ما في السموات والأرض ملك له في الحقيقة والواقع «**لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء**» ثم يحدثنا بأنه هو الذي يهب الناس ما يشاء من نعم وخيرات «**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء**».

ثم يذكرنا في الوقت نفسه بأن الملك والمال في يد الإنسان أشبه بالوديعة أو العارية والشيء الذي استخلف الله فيه الإنسان ووكله عنه للتصرف فيه ولذ يقول «**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**» ويقول «**وآتوهم من مال الله الذي آتاكم**» ويقول الرسول ﷺ: «المال مال الله وأنا عبده» ويحدثنا القرآن كذلك بأن ما خلقه في الكون من نعم وخيرات ليس وقفاً على طائفة دون طائفة بل هو شركة بين العباد لأن الخلق عيال الله وعباده والله قد خلق لهم ما في الأرض جميعاً ولذلك يقول «**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً**» والرسول ﷺ يقول «الناس شركاء في ثلاثة الماء والكلام والنار» وأضافت بعض الروايات «الملح» إلى هذه الثلاثة وهذه المواد الأربعة كانت عصب الحياة والمعيشة على عهد الرسول

وقد يقابلها الآن ويماثلها ما في حكمها من مرافق عامة وطاقات أساسية فمن حق ولي الأمر باسم الإسلام أن يجعل الناس شركاء في هذه المرافق لأنهم جميعاً محتاجون إليها فقد ثبت أن الرسول جعل أرض النقيع بالمدينة لعامة المسلمين لا يجوز منع واحد منهم عنها

. الإسلام أول دين نادى بالاشتراكية ودعا الناس للعدل والعطاء والإيثار ولا أدل على ذلك مما سجله القرآن في مدح الأنصار الذين فرحوا بقدوم المهاجرين إليهم وآثروهم على أنفسهم في آيات من سورة الحشر والتي يقول فيها

« والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ».

فهذه الآيات تتجلى فيها الاشتراكية قولاً وعملاً فالمهاجر من المسلمين إنما استطاع أن يفر بدينه راضياً بهجر بلده وترك مسقط رأسه والخروج من ماله وهو مسرور أن يصل إلى دار الهجرة سالما والانصاري وهو في بلده مع أهله وذويه وماله قبل راضياً مسروراً أن يشارك أخاه المهاجر بكل معنى الاشتراكية فقسم ماله بينه وبين أخيه في كل ما يملك من تجارة وزراعة حتى المسكن فإذا كان الاشتراكيون أمثال « كارل ماركس » وغيرهم يبغون من وراء اشتراكيتهم تعاون الجماعات في سبيل الخير العام ونصرة الضعيف فالإسلام قد سبقهم إلى ذلك منذ ألوف السنين .

فالشريعة الإسلامية والحمد لله مليئة بالاشتراكية وحسبنا هنا ما سجله القرآن من أن كفار قريش طلبوا من الرسول أن يقاطع الفقراء ويطردهم ولا يجلس معهم فنهاه الله عن ذلك وأستمر مجالساً ومصاحباً لهم وفي ذلك يقول الله عز وجل :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه »

وبذلك أستطاع الإسلام أن يحطم الرجعية وينشر الاشتراكية والمحبة بين الناس وبهذا العمل الجليل الصادر من الرسول ﷺ من مصاحبة الفقراء ومجالستهم أصبح الفقير يدخل على مجالس الأغنياء مرفوع الرأس معتدل القامة لأن محمداً علمه الاعتزاز بالنفس وحب الكرامة .

وقد أشاد شوقي بسيدنا محمد ﷺ لأنه حقق أسمى أنواع العدل والاشتراكية فيقول في مناجاته :

الاشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوي القوم والغلواء

داويت متئداً وداوو طفرة   وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة   لا منة ممنونة وجباء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى   فالكل في حق الحياة سواء

وضرب الله مثلاً آخر في سورة الكهف لذلك الرجل الذي له بستانان فيهما جميع أنواع الفاكهة من أعناب وكروم وزروع ونخل فلما أبطرته النعمة كفر وأنكر قيام الساعة فانتقم الله منه وأهلك ما بالجنتين من زرع وثمر ذلك مصداق قوله تعالى : « **واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلبا قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً** » وشوقي يعجب من أناس يصلون ويصومون رياء للناس وتظاهراً بمعالم التقوى ولكنهم صمم عن تلبية من يهيب بهم إلى أداء الزكاة كأنها ليست ركناً من أركان الإسلام مثل الصلاة والصوم وكأنهم بذلك لا يعلمون أن الزكاة حق في مالهم لله

وإنهم إذ يبخلون بها يؤثرون المال على حب الله وطاعته

عجبت لمعشر صلوا وصاموا   ظواهر خشية وتقى كذابا
وتلقيهم حيال المال صماً   إذا داعي الزكاة بهم أهابا
لقد كتموا نصيب الله منه   كأن الله لم يحص النصابا

ومن يعدل بحب الله شيئـــاً كحب المال ظل هوى وخابا
أراد الله بالفقــراء بـــراً وبالأيتام حبـاً وارتبابـــا
يريد الخالق الرزق اشتراكاً وإن يك خص أقواماً وحابى
فما حرم المجد جني يديـه ولا نسي الشقا ولا المصابـــا

وحافظ إبراهيم يشيد بعمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه قاسم ابنه إبله التي أرعاها في المرعى العام وقال له إنك لو لم تكن ابن أمير المؤمنين ما توفر لك المرعى الخصيب المعشب .

ما الاشتراكية المنشود جانبهـا بين الورى غير معنى من معانيها
فإن نكن نحن أهليها ومنبتهـــا فإنهم عرفوهـا قبل أهليهــــا

موقف الإسلام من الاشتراكية (٢)

لا زلنا بصدد الحديث على موضوع الاشتراكية التي شغلت أذهان الناس جميعاً صغيرهم وكبيرهم ضعيفهم وقويهم فقيرهم وغنيهم .

ونحن إذا قارنا بين الاشتراكية الإسلامية والاشتراكية الماركسية وجدنا البون شاسعاً فالاشتراكية التي جاء بها محمد ﷺ تعلي ثقتها بالإنسان وأنه إلى الخير أقرب منه إلى الشر وأن الإنسان إذا اتبع هدى الله وامتثل لأوامره لا يضل الطريق « **فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى** ».

وأما الاشتراكية الماركسية التي جاء بها « كارل ماركس » فإنها لا تثق بالإنسان حيث إنها لا دين لها ولا تثق بضميره الذي يهب نفسه وإنها ترى أن سبب الشقاء في هذا العالم هو التفاوت بين الناس في المعاش وأنه لا سبيل إلى إصلاح حالة العمال إلا بالقضاء على هذا التفاوت وهو محاربة الملكية الفردية من صناعة وتجارة وزراعة وإن تكون المساواة بين الناس جميعاً قانوناً عاماً وإن يكون العمل إجبارياً على كل فرد قادر يدير هذه الملكية العامة وبذلك يصلح حال الطبقة الفقيرة .

والإسلام يقول إن الناس مختلفون في المواهب والقوى فمنهم المكد والكسلان والذكي والغبي والعاجز والخامل فمن الطبيعي أن تختلف أعمالهم وتتفاوت مكاسبهم وأرزاقهم وليس من الطبيعي أن يتساووا في المال والثراء وهذه سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تغييراً قال تعالى « **نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون** » والمراد بالرحمة

في الآية الكريمة التراحم والإحساس بآلام الآخرين ومشاركتهم في البأساء والضراء وهنا تظهر الاشتراكية الصحيحة وقال تعالى : « **والله فضل بعضكم على بعض في الرزق** » وقال : **أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات** ».

هذه النصوص قد يفهم منها البعض أن الإسلام دين طبقي ولعل ظاهر النصوص يشير إلى هذا فعلاً ولكن ما أكثر ما تخدع الظواهر إنما الحقيقة هنا إن هذه النصوص تعبر عن حقيقة كونية . فالتعاون شيء خلقي فهناك القوي والضعيف والناهض والقاعد والذكي والغبي وليست ظاهرة التعاون هنا محصورة في المال فقط ولكنها أيضاً في الطبائع والغرائز وهل يعمر الكون لو تساوت مدارك الناس وأفهامهم ؟

لا يمكن أن يكون ذلك وهذه الآيات الكريمة إنما تشير إلى هذه الحقيقة .

وتعالوا بنا ننظر إلى موقف الإسلام من المال هذا العنصر الذي يطغى ويفتن . إن الإسلام يقول : « **إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** » يعني أن الإنسان متى أحس من نفسه قدرة وثروة يعد نفسه بها فوق من دونه من الناس فلا يرى أنه معهم أعضاء جماعة واحدة يحتاج كل إلى الآخر وأنذر الله بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة لمن كنز ماله وبخل به في سبيل الله ورقي الأمة وإصلاحها فقال : « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** » وقد ورد أنه لما نزلت هذه الآية كبر ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقي بعده فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنا أفرج عنكم فانطلق واتبعه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية فقال له الرسول : « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم فكبر عمر .

وفي الحديث الشريف عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ : « من أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين » .

ودعونا نعرف الحقوق الواجبة على صاحب المال : مثلاً الزكاة : الزكاة

ليست شيئاً هيناً فلقد قاتل عليها الخليفة الأول أبو بكر الصديق وهي ليست إحساناً وليست عطاء ولكنها حق معلوم للسائل والمحروم وقد برهنت الزكاة في العصور الإسلامية كلها أنها تفي بحاجات المسلمين جميعاً ولما أعرض المسلمون وبخلوا بمالهم في البذل في سبيل سعادة أوطانهم حق عليهم قول ربهم « **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم .** »

فالمسلمون تولوا وأعرضوا فنفذ الله وعيده فيهم ورماهم بالاستعمار البغيض الذي يسومهم سوء العذاب والهوان جزاء سيء أعمالهم وبخلهم وجبنهم .

فإذا أراد المسلمون استرداد عزهم المفقود ورد هيبتهم وكرامتهم فعليهم أن يتوبوا عما هم فيه من الشح والبخل ويتمسكوا بقرآنهم ويتبعوا سنة نبيهم فيصبحو سادة في بلادهم أعزة في أوطانهم .

فالقرآن الكريم فتح أمام البشر أبواب الخير للدنيا والآخرة وجاء لتربية الروح والجسد بعد أن أوصد غيره من الأديان تلك الأبواب وإذا أراد الإنسان أن يعرف شيئاً من هذا فليقرأ القرآن فيرى أن كثيراً من أنظمته تستعمل في وقتنا هذا وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة فالإسلام والحمد لله مليء بالاشتراكية وهو صالح لكل قوم ولكل زمان في أمر الدين والدنيا معاً ولا عجب في ذلك لأنه من صنع الله الذي اتقن كل شيء وليس من وضع البشر الذين يصيبون ويخطئون « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا .** »

فتعاليم الإسلام سمحة سهلة فهي تظل بظلها الاشتراكي الوارف المسلمين وغير المسلمين من أبناء آدم عليه السلام بدليل قوله تعالى : « **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » .

ولقد رسم الله لنا مبدأ اشتراكياً هاماً في قوله الكريم « **إنما المؤمنون**

إخوة» وهذه الأخوة كان لها في الإسلام أثر بالغ فبفضلها آوى الأنصار إخوانهم المهاجرين وقاسموهم ديارهم وأموالهم فأثنى الله عليهم وفي ذلك يقول القرآن :

« والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

موقف الاسلام من الاشتراكية (3)

لا زلنا بصدد الحديث على الاشتراكية وقد تبين لكم من الدروس السابقة أن الاشتراكية الحقيقية لا توجد إلا في الديانة الإسلامية وفي هذا الدرس سأذكر لكم صوراً من اشتراكية سيدنا محمد ﷺ يتجلى لكم منها رحمته بالضعيف والمسكين والأرملة ووقوفه بجانب المظلوم حتى يأخذ حقه من الظالم فقد ورد في حديث البخاري أن الرسول لما بلغ العاشرة من عمره جمع صفوة من الشباب المكي وكان الرسول دونهم سناً واجتمع بهم في دار سيدنا عثمان ابن مظعون وكون حلفاً (حزباً) لنصرة الضعيف وحفظ مال الأرامل واليتيم والوقوف بجانب المظلوم حتى يأخذ حقه من الظالم وقال لأصحابه في ذلك المجلس هل ترضون هذا الهوان لأخيكم الإنسان : استبداد ماحق وعقوق مارق وحقوق مأكولة وضعفاء أذلاء وأيتام وأرامل مهضومو الحقوق تؤكل أموالهم أكلا لماً ومظلومون لا تسمع دعواهم ولا يقام لهم وزن وطلب من هؤلاء الشباب تكوين جماعة لها دستور قوامه الوقوف بجانب المظلوم حتى يأخذ حقه وبجانب الضيف حتى ينتصر وبجانب اليتيم حتى يقوى وبجانب الأرملة حتى لا يمسها أحد بسوء وباشر ذلك الحلف «الحزب» الحر الثوري عمله بنشاط وجد لا يخشى لومة لائم وكان أول عامل سعى إلى تنفيذ أغراض الحزب ذلك الشباب المستقيم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب

فقد روي أنه دخل السوق يوماً فوجد أبا جهل يساوم رجلاً على جمل ببخس الثمن والناس حوله لم يستطع أحد منهم أن يتقدم ويرفع الثمن لجبروت أبي جهل فتقدم رسول الله وزاد في الثمن فزاد أبو جهل فزاد رسول الله فزاد

أبو جهل فزاد رسول الله فزاد أبو جهل وهكذا أخذ الرسول يزيد ويزيد حتى بلغ ثمن الجمل أضعــافــاً مضاعفة وعجز أبو جهل وترك الجمل فباعه رسول الله بالثمن المرتفع وأعطى صاحب الجمل حقه الطبيعي فتصدق رسول الله بالربح الفائض على أرامل مكة .

ومرة اخرى كانت أشد جرأة وقوة ، فقد روي أن رجلا باع جملا لأبي جهل واشتراه أبو جهل بثمن مؤجل ووعده بدفع الثمن في موعد معين فلما فــات الموعد ذهب الرجل إلى أبي جهل وطالبه بثمن الجمل فماطله ثم جاء إليه فأجل وهكذا حتى ظهر أبو جهل بمظهر المماطلة فتوسل الرجل إلى أصحاب أبي جهل فلم يغثه أحد منهم ثم ذهب إلى رسول الله وقص ﷺ عليه أمره فقال له الرسول تعالى معي وأخذ بيده إلى دار أبي جهل ولما وصل دق عليه الباب فخرج أبوجهل فقال له يا أبا جهل إن هذا الرجل قد بـــاع لك جملا وماطلته في الثمن ومطل الغني ظلم فأد إليه حقه الآن فما كان من أبي جهــل إلا أن أسرع ودفع الثمن ولم ينبس ببنت شفة ، وسئل أبو جهل في هذا كيف خرس لسانك وطاوعت محمداً قال حين نـــاداني محمد أحسست بأن البيت كان يتزلزل بي ولو لم أدفع له الثمن لخسف بي وبداري فكان ذلك سبباً في إسلام الرجل بعد أن ظهر أن ذلك الشاب الذي كان يدعو إلى نصرة الضعيف هو رسول السلام ولذلك كان ظهور الإسلام ط... قاسية على الرجعية والطغيان والظلم والاستبداد والاستغلال وعلى ذكر الاستغلال نذكر لكم على سبيل المثال ما حصل في أيام الرسول فقد استعمل واليا على بني سليم فسمع أن الوالي استغل نفوذه وجاهه فجمع أموالاً كثيرة ولما قدم وحاسبه قال له الوالي هذا لكم وهذه هدايا أهديت إلي فظهر الغضب في وجه النبي، وقام وخطب الناس فقال : « أما بعد فإني أستعمل رجلاً منكم على أمور مما ولاني الله فيأتي أحدهم فيقول هذا لكم وهذه هدايــا أهديت إلي فهلا جلس في بيت أمه وأبيه فينظر هل يهدى إليه أم لا » فترك الوالي ما أهدي إليه وطبق هذا المبدأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان يصادر ما يكسبه الولاة من أموال تأتيهم نتيجة لاستغلال نفوذهم من ذلك أنه بلغه أن أبا سفيان حضر من الشام

ومعه حرج من الدنانير الذهبية فلما سأله من أين لك هذا ؟ قال من عند ولدي معاوية وكان واليا على الشام فتاجر وهذا من ربحه فقال عمر إني أرسلت ابنك واليا لخدمة المسلمين لا تاجراً وهذا المال هو من حق بيت مال المسلمين وأخذ منه جميع المال ووضعه في بيت مال المسلمين . وقد رأى يوما بيتا زاهيا جميلا لسعد ابن وقاص وكان واليا على البصرة فأمر الدلال أن ينزل هذا البيت في الدلالة لبيعه وسأل سعد من أين لك هذا ؟ قال : جعلت لي راتبا فكنت أقتصد نصفه فلما توفر لي المال أشتريت هذا البيت فقال له عمر أما وقد أعلمتني بأنه يكفيك نصف المرتب فهو لك من الآن والنصف الآخر من حق بيت مال المسلمين ويباع هذا البيت ويشترى لك بيت كبيوت أواسط المسلمين وما زاد عن الثمن يرد إلى بيت مال المسلمين .

فانظروا أيها الإخوان إلى هذه الأعمال الجليلة التي صدرت من الرسول ومن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب فهل تحدثنا الاشتراكية بأمثال هؤلاء الزعماء الذين عطروا التاريخ بذكرهم كلا ثم كلا كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا فهؤلاء الذين يدعون الاشتراكية نراهم يسكنون القصور ويتدثرون بالدثور ويعيشون عيشة المترفين وهم متفقون جميعا على استعباد الأمم الضعيفة وأخذ أرزاقهم باسم الديمقراطية وسفك دمائهم باسم الحرية الكاذبة والاشتراكية الفاسدة .

فإذا أراد المسلمون استرداد عزهم المفقود فعليهم أن يتوبوا عما هم فيه من الشح والبخل والجبن ويتمسكوا بدينهم وبذلك يصبحون سادة في أوطانهم .

التضامن الاجتماعي دستور إسلامي

قد يتراءى لأبناء الجيل الحاضر أن فكرة الضمان الاجتماعي من مبتكرات القرن العشرين اقتضتها التطورات الفكرية وضرورة الحياة الاجتماعية والحاجة العمرانية وليس لها في الشريعة الإسلامية أصل ترجع إليه ولا حكم تستند عليه وهذا الظن الخاطيء يرجع إلى تقصير في معرفة الأهداف التي ترنو إليها الشريعة الإسلامية وعدم دراسة أدوار البعثة المحمدية وسياسة الخلفاء الراشدين وأمراء المسلمين في أزهى عصور الإسلام إذ أن هذه الشريعة الإسلامية لم تقتصر على تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه بل تجاوزته إلى تنظيم الإصلاح الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بما أودع الله فيها من سنن مبادىء العدل وتقرير المساواة بين طبقات الشعب ووضع القواعد العامة التي يستنبط منها العلماء العالمون بمقاصد الشريعة والذين درسوا الحيـــاة حلوها ومرها وأحاطوا علماً بما في كتاب الله وسنة نبيه من أحكام وعقـــائد وآداب بهذا المقصد الأسمى وهذا العنصر الحي عنصر المرونة وهو الإجتهاد . واجهت الشريعة الأحداث وسايرت الأزمان في تقلباتها وتطوراتها في بداوتها وحضارتها في تقدمها وتأخرها فمن الجحود أن نغمط الإسلام حقه ونتنكر فضله ومن الوفـــاء للحق أن نقرأ تاريخ الإسلام حتى لا يخالطنـــا ريب ولا يحيك في صدورنا شك في أن الشريعة الإسلامية لم تنس من أعوزتهم الحاجة أو مسهم الضر وأنهـــا أول النظم التي كفلت الضمان الاجتماعي بل تجاوزته إلى ما هو أبعد غاية وأوسع مدى إذ أنها جعلت الحاكم مسؤولا عن استتباب الأمن وتوفير الراحة لأبناء الشعب وحماية الأفراد من ذل السؤال والتردي في مهاوي الضعة والاحتقار فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه

قال : أنا أولى بكل مؤمن عن نفسه من ترك مالاً فلأهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلي وعلي . ومعروف أن الضياع بالفتح هو العيال . فهذا الحديث يصفع ناصية الذين يتهمون الشريعة بالركود والجمود ويشعر الحاكم بخطر الحكم وعظيم المسؤولية ويحصن الأسرة بحصن منيع . وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : كلكم راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته وكلكم راع ومسؤول عن رعيته. ومما لا ريب فيه أن مسؤولية الراعي أقل مـــا تحمله كفالة اليتيم والأرملة والمسكين وذوي العاهة وابن السبيل . عرف هذا حكام المسلمين فطبقوه في حكمهم تطبيقاً قولياً وعملياً وهاهو الخليفة الثاني لرسول الله ﷺ رأى قوماً يحيون حياة الترف وغيرهم في شظف من العيش فقال رضي الله عنه « ألا إن قوماً يريدون أن يستأثروا بمال الله دون عباده فأما وابن الخطاب حي فلا إني قائم آخذ بحلاقيم قريش وبحجزها أن يتهافتوا في النـار » .

وأما تطبيقه العملي فإن ولي أمر المسلمين كان لا يخص نفسه بنعيم والناس يشقون قال ابن سعيد في الطبقات : أصاب الناس جدب وشدة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى سموا تلك السنة «بالسنة الرمضاء» لشدة سواد الأرض من قلة الأمطار فرأى عمر بطيخة في يد بعض ولده فقال : «بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى ؟ قال يزيد بن أسلم : لو لم يرفع الله عام الرمادة لظننا عمر يموت هماً بأمر المسلمين وتلك مأثرة يتضاءل أمامها كل ثناء وديمقراطية لم يجد بمثلها الزمان. وورد أن عمر كان جالساً مع أصحابه ذات يوم فمر رجل من أهل الذمة يتسول فنظر عمر لجالسيه وقال لهم : إننا لم ننصف الرجل أيصح أن نأخذ منه الجزية وهو شاب ونتركه يتسول وهو شيخ ثم أمر له بجراية تدفع له من بيت المال . ولقد فرض عمر جزءاً من مال المسلمين لكل طفل جاوز الرضاع ثم رأى رضي الله عنه أن المراضع من الأمهات يحتلن على القانون فيسرعن بفطام أولادهن فتألم لهذا فنادى : لا تعجلوا صبيانكم على الفطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام جزءاً من المال يصرف إليه عند ولادته وكتب بذلك في الآفاق . وكذلك جاء في التاريخ أن عمر بن عبد العزيز

رضي الله عنه جعل الكفالة الاجتماعية في مقدمة سياسته الرشيدة فإذا أضفنا إلى ذلك ما فرضه الإسلام على كل ذي مال وجعله ركناً من أركان الدين نحو الضعفاء والمساكين والتبعة الملقاة على عاتق من لا يحث نفسه ولا غيره على إطعام مسكين قال تعالى : **أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين** وكذلك إعزازه بالسخاء وتفريج الكربات حتى جعل الأمة كالجسد الواحد كما جاء في صحيح مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . وفي هذا المعنى يجب أن نتذكر الإخاء الإسلامي الذي عقده الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار حينما انتقل من مكة المكرمة دار الآمان إلى المدينة المنورة دار السلام فقد تجلى فيه كل معاني التضحية والبذل وتلاشت فيه المادية الجارفة والأثرة الطاغية فقد كان الأنصاري يبسط يده بكل ما يملك من متاع الدنيا لأخيه المهاجر ويقول له : دونك يا أخي خذ ما شئت ودع ما شئت حتى لا يستأثر منه الأنصاري بشيء دونه وقد سجل القرآن الكريم ذلك كله قال تعالى : **والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .**

هذه أمثال قليلة أتينا بها يتبين لكم منها أن الشريعة الإسلامية أتت بكل ما يحتاجه الناس في دينهم ودنياهم فهل بعد هذا يستطيع مكابر أن يتهم الإسلام بأن التضامن الاجتماعي فن جديد ظهر في أوربا وأن الإسلام لا علم له به .

هذا ويجب أن نعبر عن ابتهاجنا بالمجهودات الجبارة التي تقدمها الأمة التونسية بالأخذ بيد المشردين واليتامى والتلاميذ المعوزين الذين يتابعون تعلمهم بالمدارس الثانوية فقد بلغ عدد التلاميذ الذين يتمتعون بإعانة التضامن الاجتماعي الألوف وهذا فيما يخص إيواءهم وطعامهم وكسوتهم أما إعانة العائلات البائسات فحدث عنهم ولا حرج فقد رأينا بأعيننا أن الدولة وصلت إلى درجة

عالية من العناية بهم حيث يقدم لهم جميع مـا يحتاجون إليه فتعولهم إذا عجزوا ونداويهم إذا مرضوا فبـارك الله في الأمة التونسـية وبارك الله في قائدنا العظيم فخامة الرئيس **الحبيب بورقيبة** فبحنانه وعطفه على البائسين وفضل توجيهات الثمينة تقشعت تلك الأيام المظلمة والتعاسة التي كانت موجودة في العهد السـائد وحل محلها عهد النور والتضامن والخير العميم .

أمد الله في أنفاسه وجزاه عن المعوزين خيراً .

الإسلام والمساواة

قال الله تعالى في كتابه العزيز : « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** » جمع الله في هذه الآية الشريفة الأطوار التي تمر على الإنسان في هذه الحياة فقوله : «**إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** » إشارة إلى طبيعتهم الأولى وفطرتهم التي فطروا عليها من التماثل والتساوي وقوله : « **وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** » إشارة إلى حياتهم الاجتماعية ودخولهم في معترك المعيشة وقوله : **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** إشارة إلى ما به يقع التمايز والتفاضل بين الناس فلا فرق بين ملك وسوقي ولا بين غني وفقير إلا بالتقوى بل إن العقوبة التي يعاقب بها صعلوك الأمة هي التي يعاقب بها السيد المطاع فيها متى كان الذنب واحداً ، ولا أدل على ذلك من الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن قريشاً قد أهمهم أمر المخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ وقالوا : من يجتريء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله فكلمه أسامة في شأنها فقال عليه السلام : أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟ ثم قام فخطب الناس فكان مما قال إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

وتتجلى لنا المساواة في حديث جبلة بن الأيهم ملك غسان مع الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وملخصه أن جبلة قدم هو وقومه على عمر فقام ليطوف بالبيت وكان وراءه رجل من بني فزاره فداس الفزاري إزار جبلة فانحل من

أعلى كتفه فالتفت إليه جبلة ولطمه فشكاه الفزاري إلى الخليفة عمر فقضى عمر للفزاري بالقصاص من جبلة فقال جبلة يقتص مني وأنا ملك وهو سوقة فقال له عمر إن الإسلام سوى بينكما فلا ملك ولا سوقة والكل أمام أحكام الإسلام سواء فعظم الأمر على جبلة وأخذته العزة بالإثم وقال ألا تنظرني إلى الغد فقال عمر ذلك لخصمك لا لي فقبل الفزاري أن ينتظره إلى غد فلما كان الليل تشاور جبلة في الأمر مع قومه فاتفقوا على الردة والفرار من مكة وقد حدث التاريخ أن جبلة ندم أشد الندم على ارتداده وقال :

تنصرت الأشراف من عار لطمة وما كان منها لو صبرت لها ضرر

فيا ليت أمي لم تلدني وليتني رجعت إلى القول الذي قاله عمر

هذا ولم يكن مبدأ العدالة والمساواة محققا بين جماعات المسلمين فقط بل كان الولاة أيضاً عادلين في أحكامهم بين الخصوم مسلمين كانوا أو غير مسلمين . شكا يهودي علي بن أبي طالب في أيام خلافة عمر ابن الخطاب فلما مثلا بين يدي أمير المؤمنين نظر إلى علي وقال له : اجلس يا أبا الحسن فظهرت آثار الغضب على أسارير وجه علي فقال له عمر أكرهت يا علي أن يكون خصمك يهوديا وأن تمثل وإياه أمام القضاء ؟ فقال علي : لا ولكني غضبت لأنك لم تسو بيني وبينه فلقد كنيتني فقلت لي يا أبا الحسن والتكنية تعظيم .

وروي أيضاً أن ولداً لعمرو بن العاص قد تسابق مع شاب من أهل الذمة المسيحين فسبقه المسيحي فضربه ابن عمر بالسوط فأقسم المسيحي ليشكونه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبينما كان عمر بن الخطاب بالمسجد في موسم الحج إذ بأبي القبط قائم فقال يا أمير المؤمنين إن ابن عمرو بن العاص ضرب ابني وقال له اذهب فأنا ابن الأكرمين فأمر عمر بإحضار ابن عمرو ابن العاص فلما حضر قال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ثم التفت إلى الشاكي وأعطاه درته وقال له : اضرب ابن الأكرمين كما ضربك فضربه بها . أرأيتم أيها الإخوان مبلغ العدل والإنصاف وكيف ساوى عمر بين ابن الأكرمين وابن القبطي وانظروا كيف يعطي الدرة للمسيحي ويقول له

ضرب ابن الأكرمين وهذا يمثل لكم مبلغ احترام الإسلام للمساواة وعناية المسلمين بها حتى شعرت النفوس باستقلالها وعزتها وسيادتها فاستروح الناس نسيم العدل وتمتعوا بحرية لم ينعم الناس بمثلها في عصر من العصور سواء من أسلم منهم ومن لم يسلم. وسأقص عليكم قصة أخرى تجدون من ثنايا آياتها سماحة الإسلام وعدالته وعدم المجاملة والمحاباة وأنه لم يفرق بين الأبيض والأسود فقد روي في الصحيح أن أباذر الغفاري تخاصم مع عبد أسود زنجي في حضرة النبي ﷺ واحتد أبو ذر على الزنجي وقال له: يا ابن السوداء فغضب النبي، وقال: طف الصاع طف الصاع أي زاد الأمر على المألوف «ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء إلا بالتقوى أو بعمل صالح» عند ذلك وضع أبو ذر خده على الأرض وقال للأسود: قم فطأ على خدي تكفيراً عن ذنبه فأين هذا من التفرقة العنصرية التي تسود كثيراً من البلاد المتحضرة في هذه الأيام والتي تدعي أنها حاملة لواء الديمقراطية.

وأين هذا من تلك المذابح الرهيبة التي تحدث أمام المدارس والكليات والمطاعم والملاهي والحافلات لأن شخصاً أسود تجرأ فأراد أن يركب في حافلة مع البيض أو أن يأكل في مطعم أو أن يدخل إلى مدرسة ليجلس في مقعد مع البيض.

من هذا يتضح لكم أن دين الإسلام دين سلام وأمن وطمأنينة بما أودعه من حب الخير للناس لا فرق عنده بين جنس ولون ودين لكن لما انقضى ذلك العهد الزاهر وقام بالأمر في المسلمين قوم أشربوا حب الاستبداد عم الظلم وعظم الخطب «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم».

من هو الكيس؟

روى الترمذي بسنده إلى شداد بن أوس قال : قـال رسول الله ﷺ : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .

بين الرسول ﷺ في هذا الحديث أن الكيس هو الرجل العاقل الحـازم الذكي الفطن « من دان نفسه » يعني من حاسب نفسه في هذه الدنيا وعمل لما ينفعه في الدار الآخرة دار البقاء فيؤدي فرائض الله في أوقاتها المحددة لها ويفر مما يبغض الله من المخالفات ويغتنم شبابه فيجد في الطاعات وهو صغير قبل أن يعجز عنها وهو كبير . ويغتنم صحته قبل مرضه وفراغه قبل شغله وغنـاه قبل فقره وحياته قبل موته فيملؤها بالأعمال الصالحة والخيرات ولا يتركها تمر عليه بين غفلة ولهو ونوم وكسل . وأمـا الثـاني وهو الرجل الأحمق الضعيف العقل فهو الذي يعطي نفسه حظها من الشهوات من غير خوف من الله وهو مع ذلك يتمنى على الله الأماني الكاذبة فيرتكب الجرائم والموبقات ويقول الله غفور رحيم سبقت رحمته غضبه ، نحن من ذرية محمد إلى آخره ، ونحن نقول له : حقاً إن الله غفور رحيم ولكنه شديد العقاب أيضاً وقد أشار الله إلى ذلك بقوله : **نبّيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم** . فالكيس حينئذ هو من انتهز فرصة وجوده في الدنيا وتزود منها لآخرته وعمل لما بعد الموت ولم تلهه حلاوة ساعة عن عذاب الأبد . والأحمق من غرته دنياه وأضاع نعيم الأبد من أجل حلاوة ساعة وبذلك ، يجر على نفسه شقاء لا ينقضي وقد عبر الله عن هذا المعنى بقوله : **حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا**

إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون .

فهذه الآية الكريمة تعلمنا أن الإنسان إذا دنا أجله وحس أمارات الموت تبين له الحق والباطل فيتمنى أن يطول أجله فيندم على ما فرط في جنب الله فيقول يا رب عجل شفائي لعلي أتدارك ما فاتني وأعمل صالحاً يعوض على ما ضيعته من عمري في ترك عبادة الله فيكون الجواب كلا : إنها كلمة هو قائلها لا تفيده شيئاً لأن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها . ونحن نأسف أشد الأسف حيث ماتت قلوبنا وغفلنا عن الموت فكم من أصدقاء وأحباب وأقارب تخطفتهم المنايا من بيننا فلم نتعظ ولم نعتبر بذهابهم مع أننا نعلم علم اليقين أن الباب الذي طرقوه سنطرقه نحن غداً وأن المنايا التي تخطفتهم سوف تخطفنا ، لا العظات تنبهنا ولا رواية الموت تخوفنا ولا قرب الرحيل يرشدنا . يا ويلنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ولو قرأتم تاريخ السلف الصالح رضي الله عنهم لتعجبتم من خوفهم وأمننا وتنبههم وغفلتنا .

فقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ **إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت** حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى : **وإذا الصحف نشرت** خر مغشياً عليه ومر يوماً بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى : **إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع** ، نزل ورجع إلى منزله فمرض أياماً يعوده الناس ولا يدرون ما به . وعن الحسن البصري رحمه الله أنه مر بشاب وهو يستغرق في ضحكه جالس مع شبان فقال له الحسن يا فتى هل

مررت بالصراط قال لا قال : فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار ، قال : لا ، قال : فما هذا الضحك قال فما روي ذلك الفتى بعدها ضاحكاً .

لقد كنا أجدر بالخوف من الصديقين لأنهم أطاعوا الله وعصينا وأجابوه وأبينا وليس الخوف من الله أن تبكي ساعة ثم تصير على المعصية وإنما الخوف الحقيقي هو الذي يمنع صاحبه عن مخالفة ربه ويحمله على ملازمة طاعته فهذا هو الخوف النافع .

أسأل الله أن يتداركنا بفضله ويعمر قلوبنا بتوبته .

الجهر بالحق وأثره

من مقومات الأمم ومميزاتها عن غيرها في ميدان الادب والاجتماع الصراحة في القول والجهر بالحق فهما من أجل الصفات وأحسن الأخلاق ولأنهما عنوان الشجاعة ومثال الإقدام والتضحية وهما سبيل كل إصلاح وحافز كل تقدم وما شاع هذا الخلق بين الأفراد إلا وكان عنواناً على رجولتهم وإنهم يشعرون بكرامتهم ويحلونها المحل الأول في حياتهم . والفارق بين الحق والباطل هو الفارق بين الظلام والنور وهو الفارق بين الضعف والقوة بل هو الفارق بين الحياة والموت والسعادة والشقاء فالحق وهو وضع الأشياء مواضعها واستعمالها فيما خلقت من أجله يهدي إليه الدين الحنيف والفطرة السليمة وتعارف الناس واصطلاحهم على ما ينفعهم في الدنيا والآخرة .

والباطل هو تنكب الجادة المستقيمة والسير في طرق ملتوية تظهر غير ما تبطن وتسر غير ما تعلن . والحق يسير في وضح النهار ، والباطل يمشي في ظلمة الليل رعديداً لا يستطيع أن يظهر إلا في لباس الرياء من القول والفعل . والحق يشد إزره قوة الإيمان وصدق العزيمة والباطل لا يستند إلا إلى ضعف النفس ونزغات الشيطان والتدليس بمظاهر القوة من سلاح ومعدات وقد جعل الله النصر للحق والهزيمة للباطل مهما طال أمده وكثر جنده وعلا نجمه .

وخصومة الباطل للحق هي خصومة الشهوات التي طغت على عقل الإنسان فنازع ربه الألوهية والعبادة وهي خصومة لم يحظ منها الإنسان إلا بالفشل والخذلان في جميع أطوار الحياة من يوم خلق الله الخلق قال تعالى : « وإذا قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها

كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » .

لقد قص الله علينا عاقبة الباطل وأن ما شايعه من بني الإنسان فهو مجرم له في الدنيا خزي وفي الآخرة عذاب أليم فقال يصف حاله عاقبة أنصار الباطل ومشايعيه الذين أطلق عليهم لقب المجرمين **«إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » .**

والإنسان موضع نزاع بين عقله وشهواته فمن جعل سلاحه الإخلاص ووجهته الحق ولم تستعبده شهواته ولم تشمئز نفسه من الموت في سبيل الحق فهو السعيد الذي اتخذ من عزته ملكا وإن كان فقيراً معدما . والحياة الدنيا لم تكن إلا صراعاً بين الحق والباطل فمن أخذ بالحق عز وساد مهما لاقى من أذى ومشقة ولقد كان رسول ﷺ المثل العالي في الجهر بالحق والدفاع عنه ولاقى في سبيله الهول الكثير والعناء المر وتابعه في ذلك أصحابه وأتباعهم من العلماء العاملين لأنهم كانوا يشعرون بعزة الإسلام وجلال الدين ولهم في ذلك نوادر وقصص هي مضرب المثل وحجة بالغة على قوة نفوسهم وصلابة عزائمهم وإنهم لا يخشون في الله لومة لائم .

من ذلك ما حدثنا به التاريخ أنه لما سقطت الدولة الأموية وذهبت دولتها خرج عبد الرحمان الناصر الأموي والتحق ببلاد الأندلس الفردوس الإسلامي المفقود ونادى بنفسه خليفة في تلك الديار وكان في ذلك العصر الذهبي القاضي منذر بن سعيد عالم الدولة وأديبها وفقيها الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ويكفي دليلا على علمه أنه كان صدر العلماء في ذلك الوقت لا يضاهيه غيره في البلاغة والأدب وأعظم دليل على ذلك وقوفه خطيباً يوم الحفلة الجامعة التي أقيمت بقصر قرطبة لسفير الإمبراطورية البيزنطية يوم أجبلت قريحة أبي علي القالي ونهت من هول الموقف فتقدم منذر بن سعيد فارتجل آيات المنثور والمنظوم ببلاغة بهرت العقول وحيرت الألباب فدهش السفير وقال : هذا كبش الدولة .

وأما تقواه وشجاعته فقد بلغ فيهما مبلغاً قل من بلغه إلا أفذاذاً من العلماء في أزمنة التاريخ يجعلهم الله حجة على عباده . وكفاه هذا الموقف المشرف الذي يحدثنا به التاريخ من أنه لم يحرز أحد ما أحرز منذر من الهيبة في قلوب الناس خاصة عند بناء عبدالرحمان الناصر لمدينة الزهراء واشتغاله بها حتى جبهه منذر بالتقريع غير مرة وإليكم هذه المشادة والحوار الذي جرى بينهما لتعلموا منه كيف كان منذر قائماً بحق النصح وكيف كان الخليفة عظيماً في استماع النصيحة وبهذا وحده بلغ الإسلام ما بلغ من العظمة والعزة والقوة وإن في ذلك لذكرى للذاكرين . لما بنى عبدالرحمان الناصر مدينة الزهراء في الأندلس وجعلها من أعاجب المدن في العالم نهاه منذر بن سعيد عن قراميد الذهب والفضة التي سقف بها قبة الصرح الممرد «أحد أقسام القصر» وكان القاضي منذر بن سعيد يأسف كثيراً على مايذهب من أوقات الخليفة في التردد على مكان البناء والإشراف على سير العمل .

ولقد دخل المنذر يوماً على الناصر وهو مكب على الاشتغال بالبنيان فوعظه فأنشده عبدالرحمان :

هم الملوك إذا أرادوا كرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقياوكم ... ملك محته حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

لما انتهى البناء وزمن تشييد الزهراء حضر القاضي منذر مع الخليفة يوماً لمشاهدتها فقام الرئيس أبو عثمان بن إدريس فأنشد الناصر قصيدة منها :

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن ... مضيعاً وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى ... وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج وأطرق منذر بن سعيد ساعة ثم قام فأنشد :

يا باني الزهراء مستغرقاً ... أوقاته فيها ما تهمل
لله ما أحسنها رونقاً ... لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر هذه الكلمة العجيبة : إذا هب عليها نسيم الصبا والحنين

وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل إن شاء الله تعالى فأجابه المنذر اللهم أشهد أني قد بلغت وبثثت ما عندي ولم آل نصحا .

وبعد الانتهاء من بناء الزهراء انهمك عبد الرحمان الناصر في زخرفتها وتجملها وفي اليوم الذي احتفل بافتتاحها خطب القاضي منذر بن سعيد في مسجدها فصدر خطبته بقول الله تعالى : **« أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم »** ثم أخذ يذم تشييد البنيان والإسراف في الانفاق عليه حتى خشع القوم وبكوا وضجوا ثم التفت إلى الناصر وقال له أمام الجماهير الحاشدة يومئذ : ما ظننت أن الشيطان أخزاه الله يبلغ بك هذا المبلغ وتمكنه من نفسك هذا التمكين مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين حتى أنزلك منازل الكافرين فاقشعر الناصر من قوله وقال له : انظر كيف أنزلتني منازل الكافرين ؟ قال نعم أليس الله تبارك وتعالى يقول : **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين »** . فوجم الخليفة الناصر ونكس رأسه ودموعه تجري على لحيته خشوعاً لله تبارك وتعالى وندم على ما فعل ثم أقبل بعد الانتهاء من الخطبة والصلاة على قاضيه منذر بن سعيد فقبله وقال له جزاك الله يا قاضي خيرا عنا وعن المسلمين وكثر من أمثالك في الناس فالذي قلت والله هو الحق وقام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله وأمر بأن ينقض سقف القبة وأن تكون قراميدها تراباً .

وعندما خرج من المسجد وانصرف إلى داره قال له ولده الحكم : إن القاضي منذر بن سعيد قد تعمدك بخطبته وأسرف في ترويعك وأفرط في تقريعك ولم يحسن السياسة في وعظك فأعزله واستبدل به غيره وعندما سمع عبد الرحمان الناصر من ولده هذا الكلام زجره وانتهره وقال : أمثل عمر بن سعيد في فضله

وورعه وعلمه وحلمه يعزل في إرضا نفسي هذا مالا يكون أبداً . كيف أعزله وقد دلني على عيبي ونصحني بالحكمة والموعظة الحسنه ، فأثرت نصيحته في قلبي ونفعتني .

من هذه القصة ترون أيها الإخوان أن عبد الرحمان خضع للحق لما عرفه ولم ير النصح مرا على نفسه ولو كان ذلك في زماننا هذا لما تجرأ الناصح على نصح الأمير بل رأى أن في ذلك فرصة لمالاته ومداهنته كي ينـال رضاه فرحم الله زماناً يجاهر الناصح فيه بنصحه ولكن الفضل للدين الذي ملأ حبه قلوب السلف فهو يأمر العلماء أن يقولوا الحق ولا يكتموه ويأمر الملوك أن يقبلوا النصح ولو كان مرا لذلك كانت الأمة في السلف الصالح تنعم بحكم عادل ورفاهية شاملة وسعادة كاملة ولو أن العلماء لم يتملقوا الحاكمين ولم يسمعوهم كلمات الثناء الكاذب والمديح الباطل لما كان يجد الطغاة من الحاكمين ما يزيدهم طغياناً وبطشا واستخفافاً بإرادة الشعب وكرامته .

إن النصح للأصدقاء والحكام فضيلة لأنه ليس أحد في الدنيا إلا وهو معرض للخطإ والغفلة والانحراف وليس كل إنسان يعرف عيب نفسه . تالله لن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا إذا رجعت إلى الدين وعملت به وتخلقت بأخلاق الرسول ﷺ وعملت بسيرته وسيرة أصحابه رضي الله عنهم فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا فيقوم إليه رجل ليقول له لا والله لا نسمع ولا نطيع فيسأله عمر عن ذلك فيجيب الرجل بأن الناس يشكون فيما يلبس عمر من ثيـاب ويطلبون لذلك حساباً عليه ويسألونه من أين لك هذا يا أمير المؤمنين ؟ فلا يضيق عمر بطلب الشعب ولكنه يقدم له حسابه حتى إذا اقتنع النـاس بطهارة يد عمر قالوا الآن : سمعاً وطاعة .

ولقد كان عمر يوماً مع أصحابه فقـال له رجل يا أمير المؤمنين اتق الله فقال بعض الحاضرين لذلك الرجل كيف تقول لأمير المؤمنين ذلك ؟ فقـال عمر دعوه فليقلها ؟ لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نقبلها .

بمثل هذه الأخلاق الحميدة نعرف سر عظمة عمر بن الخطاب وعصره والجيل الذي كان يعيش فيه . وحكى ضبة بن محصن العنزي فقال : كان علينا أبو

موسى الأشعري أميراً بالبصرة فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وأنشأ يدعو لعمر رضي الله عنه قال فغاضني ذلك منه فقمت إليه فقلت أين عمر من أبي بكر فالأولى أن تدعو له فلم يسمع كلامي ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول إن ضبة بن محصن العنزي يتعرض لي في خطبتي فكتب إليه عمر أن أشخصه إلي قال فأشخصني إليه فقدمت فطرقت الباب فخرج إلي فقال من أنت؟ فقلت أنا ضبة فقال لي: لا مرحباً ولا أهلاً. قلت أما المرحب فمن الله وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال، فبماذا استحللت يا عمر إشخاصي من بلدي بلا ذنب أذنبته؟ فقال ما الذي شجر بينك وبين عاملي؟ قلت الآن أخبرك وحكيت له ما جرى قال: فاندفع عمر باكياً وهو يقول: أنت والله أوفق من عاملي وأرشد فهل أنت غافر لي ذنبي؟ فقلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين قال ثم اندفع باكياً وهو يقول: والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر. وآل عمر فهل لك أن أحدثك بليلته ويومه؟ قلت: نعم. قال أما الليلة فإن رسول الله ﷺ لما أراد الخروج من مكة مهاجراً خرج ليلاً فتبعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره فقال يا رسول الله: ما هذا يا أبا بكر؟ فقال يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك وأذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك ولما وصلا إلى فم الغار قال أبو بكر لا تدخله يا رسول الله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك فدخل فلم ير فيه شيئاً إلا بعض حجر فقطع من ثوبه وسد تلك الحجر ثم خرج وقال لرسول الله ﷺ ادخل يا رسول الله قد هيأت لك الغار فدخل الرسول ومن شدة التعب نام على ركبة الصديق وفي أثناء نومه رأى أبو بكر جحراً غفل عنه ولم يسهده فسده بقدمه فلدغته حية ومن شدة الألم تبكي فانحدرت دمعة على خد النبي فاستيقظ وقال: ما الذي ألم بك يا أبا بكر فأخبره أن حية لدغته فتفل النبي على موضع اللدغة فبرئت بإذن الله.

ولما وصل فرسان قريش أمام الغار رآهم أبو بكر فقال يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا فقال له النبي: لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه والطمأنينة لأبي بكر فهذه ليلته وأما يومه فلما توفي رسول الله ﷺ ارتدت

العرب فقال بعضهم نصلي ولا نزكي فأتيته لا آلوه نصحاً فقلت يا خليفة رسول الله ارفق بالمرتدين ولا تقاتلهم فغضب وقال لي أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام فوالله لو منعوني عقالاً كانوا يعطونه رسول الله لقاتلتهم عليه وقاتلهم حتى انتصر عليهم وبذلك رد للإسلام هيبته وعزته فهذا يومه ثم كتب إلى أبي موسى الأشعري يلومه .

هذه أمثلة من تاريخنا المجيد رأيتم منها أيها الإخوان كيف كان يغار المسلم على الحق في صدر الإسلام فيجهر به ورأيتم كيف يعنو أمير المؤمنين وخليفة الرسول الصادق الأمير ويمين على الحق ويخضع له وكيف يعرف الفضل لأهله وذويه .

بهذا الخلق السامي والميزة العالية ارتفع مجد الإسلام وساد المسلمون أمم الأرض . وإذا أردنا أن نعدد مواقف أهل الحق والدفاع عنه والانتصار له ولقاء الموت في سبيله لطال بنا المقام ولما وسعنا الزمان والمكان وفي هذا القدر كفاية والسلام على من اتبع الهدى .

الإسلام لا يكتم الحق بل يقرره

للحق أهل في كل أمة وفي كل ملة والنفوس الطيبة مولعة بحب الحق، والرجل العظيم يقدس الحق ويتعلق بأهدابه ولا تسمح نفسه بأن يحيد عنه قيد شعره سواء أكان له أم عليه.

والدين الإسلامي لا يكتم الحق ولكن يقرره ويعرف الشيء لأصحابه ولو كانوا أعداء له ولأهله يدلكم على هذا قوله تعالى: (**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين**) فها أنتم قد سمعتم أن القرآن مدح قوماً من النصارى لأنهم كانوا متواضعين ذوي رأفة ورحمة وقلوب تصغي لسماع الحق وعيون تجود بالدمع حين تسمعه وهؤلاء النصارى كانوا مقيمين على نصرانيتهم لكن القرآن يعرف الخير لأهله وإن لم يكونوا من حزبه ومن جنده وهكذا يكون المنصف الصادق.

أما الذين نزلت فيهم هذه الآيات فهم على أصح الأقوال النجاشي وبعض قومه كما روى ذلك عبد الله بن عباس ترجمان القرآن.

وقد شهدت فئة أدركت المصريين عصر الجاهلية وعصر الإسلام وخبرت ما كان عليه أهل هذين العهدين بأن الإسلام هو الذي يدعو إلى الهدى والخير وخير الشهادات ما كانت عن رؤية وعلم.

هذه القلة هي الصادقة التي آمنت بالله ورسوله في أول الدعوة ثم رحلت إلى الحبشة فراراً بدينها من ظلم المشركين وعسف مشركي مكة لقد رحلوا إلى الحبشة وطلبوا حماية ملكها وقالوا : أيها الملك إنا كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأتي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويظلم القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث إلينا رسول منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده ونترك ما كان يعبد آباؤنا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام وصدق الحديث وأداء الأمانه إلى أهلها وصلة الأرحام وحسن الجوار والكف عن المحارم ونهانا عن قول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات فصدقناه وآمنا به واتبعناه فلما سمع قولهم أمنهم وحماهم من أعدائهم المشركين .

وقد سجل التاريخ أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي كتاباً قال فيه : بسم الله الرحمان الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو القدوس السلام المؤمن المهيمن أشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته (يعني قال له كن فكان) خلقه الله كما خلق آدم من تراب وإني أدعوك إلى الله وحده وقد بلغت نصيحتي فاقبلوا والسلام على من اتبع الهدى) .

وقد بعث رسول الله ﷺ بهذا الكتاب إليه مع عمرو بن أمية الضمري وقد حدث التاريخ أن النجاشي قال بعد أن قرأ الكتاب : أشهد بالله أنه هو النبي الأمي الذي ننتظره وأن البشارة براكب الحمار (يعني عيسى) كالبشارة براكب الجمل (يعني محمداً) ثم كتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً قال فيه : بسم الله الرحمان الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشي ملك الحبشة : أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله وما ذكرت فيه من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى عليه السلام لا يزيد على ما ذكرت تفروقاً (يعني نقيراً أو فتيلا وهو بلسان الحبشة) وقد عرفنا ما بعثت به إلينا فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وهو جعفر بن أبي طالب أخو علي كرم الله وجهه وكان من المهاجرين بالحبشة وأسلمت لله رب العالمين .

إن حديث إسلام النجاشي مستفيض ومشهور فقد روى الإمام مسلم أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : نعى لنا رسول الله ﷺ النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه فقال : استغفروا لصاحبكم وإنه خرج إلى المصلى فكبر أربع تكبيرات وصلينا بصلاته .

ومن العظماء أيضاً الذين سجل التاريخ لهم العظمة ودون لهم حبهم للحق وتقديرهم له هرقل قيصر الروم في عصر النبي محمد ﷺ وذلك أنه اعترف بأن محمداً نبي بعثه الله وحاول أن يحمل شعبه وأتباعه على أن يدخلوا في هذا الدين الجديد الذي ظهر في جزيرة العرب على يد نبي آخر الزمان فلم يوفق الله شعبه لذلك وقد بحث في الكتاب الذي أرسله إليه رسول الله وسأل عن صفات الرسول وأحواله في قومه حتى استدل على صدق نبوته .

اقرأوا إذا ما شئتم ما رواه البخاري ومسلم في هذا الشأن فقد رويا من حديث عبد الله بن عباس أن أبا سفيان أخبره من فيه إلى فيه (يعني مشافهة) فقال : « انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله وهي زمن الهدنة التي وقعت بعد صلح الحديبية إلى الشام فبينما أنا بها إذ جاء كتاب رسول الله إلى هرقل وقد كان دحية بن خليفة أحد أصحاب رسول الله جاء به فقال هرقل : هل هنا (يعني بالشام) أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقالوا نعم. قال أبو سفيان فدعيت أنا ونفر من أصحابي فدخلنا على هرقل فأجلسنا بين يديه وأجلس أصحابي خلفي ثم دعا هرقل ترجمانه فقال : قل لهم إني سائل هذا الرجل (يعني أبا سفيان) عن الرجل الذي يزعم أنه نبي فإن كذبني فكذبوه (يعني يشيرون بأيديهم أنه كاذب) .

قال أبو سفيان : والله لولا مخافة أن يؤثر علي الكذب لكذبت على محمد ثم قال هرقل لترجمانه : سله كيف حسب هذا الرجل فيكم ؟

قال أبو سفيان : فقلت إنه ذو حسب فينا .

قال هرقل : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قال أبو سفيان : قلت لا ،

قال هرقل : ومن اتبعه ـ أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟
قال أبو سفيان : قلت ضعفاؤهم .
قال هرقل : أيزيدون أم ينقصون ؟
قال أبو سفيان : قلت بل يزيدون .
قال هرقل : هل يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له (يعني كراهة فيه) .
قال أبو سفيان : قلت لا .
قال هرقل : هل قاتلتموه .
قال أبو سفيان : نعم .
قال هرقل : فكيف كان قتالكم إياه ؟
قال أبو سفيان: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً يصيب منا ونصيب منه .
قال هرقل : هل يغدر .
قال أبو سفيان : لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها .
ثم قال أبو سفيان : فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه .
قال هرقل : فهل قال هذا القول أحد قبله ؟
قال أبو سفيان : لا .

قال هرقل لترجمانه قل له إني سألتك عن حسبه فزعمت أنه فيكم ذو حسب وكذلك الرسل تبعث في حسب أقوامها وسألتك هل كان من آبائه ملك وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم شرفاؤهم فقلت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليترك الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله . وسألتك هل يرتد أحد ممن يتبعه عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له وكرهاً فيه فزعمت أن لا . وكذلك الإيمان إذا خالطت محبته القلوب وسألتك أيزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الحق حتى يتم وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر وسألتك هل قال هذا القول قبله أحد منكم فزعمت أن لا . فقلت لو قال هذا القول أحد قبله لقلت أنتم بقول قيل فيه .

ثم قال هرقل : بم يأمركم ؟

قال أبو سفيان : يأمرنا بالصلاة والزكاة ؟ والعفاف

قال هرقل : أن يكون ما يقوله حقاً فهو نبي ولو أعلم اني اخلص إليه لأحببت لقاءه وليبلغني ملكه ما تحت قدمي .

ثم دعا بكتاب رسول الله فقرأه فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (يعني الرعية) يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

قال أبو سفيان : فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط وأمر بنا فأخرجنا ثم جمع هرقل عظماء الروم في دسكرة له بحمص وغلق أبوابها ثم طلع عليهم فقال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن تثبت مملكتكم ؟ تبايعون هذا النبي فصاحوا صيحة الحمر الوحشية وذهبوا نحو الأبواب يريدون الخروج فوجدوها مغلقة .

فلما رأى هرقل نفرتهم أيس من إيمانهم وقال : ردوهم علي ثم قال : يا معشر الروم قلت مقالتي آنفا لأختبر بها شدتكم على دينكم فسجدوا له ورضوا عنه .

أيها الإخــوان

هذا ملك الروم وعظيمهم وأكبر رجل في العالم المسيحي في ذلك العهد وقد رأيتم مبلغ عقله وفهمه ودهائه وذكائه وعلمه بالكتب السماوية المنزلةالتي عرف منها كيف يكون الأنبياء ووجد فيها الخبر الحق بظهور نبي آخر الزمان بعد عيسى عليه السلام وقد سمعتم أنه أحب الدخول في الإسلام وأن يبايع هو وقومه ولكنهم ولوا عنه مدبرين ومعرضين وعرف أنه سيملك الشام وسواها من بقاع الأرض وأنه لم يمنعه من دخوله في الإسلام إلا خوفه على نفسه وعلى ملكه .

وإنه ليسرنا أن نجد في هذا العصر الذي ملكت فيه المادة قلوب الناس تحركاً لعواطف بعض من الأوروبيين فيقرون الحق لأنه الحق وإن لم يعملوا بما يوجبه ويقتضيه ومن أمثلة ذلك قول « السير وليم سوير » في كتابه سيرة محمد ﷺ فقد قال : امتاز محمد بوضوح كلامه وسحر بيانه وبأنه أتم من الأعمال ما يدهش الألباب فلم يعرف التاريخ مصلحا أيقظ النفوس وأحيى جميل الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كمحمد .

وقال : ليون روش السياسي الفرنسي في كتابه الذي عنوانه « ثلاثون عاماً في الإسلام » اعتنقت الإسلام فوجدته أفضل دين إنساني أدبي اقتصادي فيه الرحمة والخير والمعروف وهو لا يعرف الشر ولا الكذب فالمسلم لا يظن بأحد سوءا ولا يستحل محرما ولقد وجدت فيه حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان بال العالم : الأولى في قول القرآن : « إنما المؤمنون إخوة » فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية . والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال . وإنه دين المحامد والفضائل ولو أنه وجد رجالا يعلمونه الناس حق التعليم لكان المسلمون اليوم أرقى العالمين .

رب قائل يقول : إذا كان الإسلام كما يقولون فلماذا تأخر المسلمون وهذا كتابهم بين أيديهم لم يتغير ولم يتبدل ؟ الجواب أن الذي وقف في سبيل تقدم المسلمين هو جهلهم بكتاب الله وسنة رسوله وإعراضهم عنهما وانغماسهم في الشهوات والملذات فباعوا دينهم بدنياهم وعاشوا كل لنفسه . والذي يورث الكمد والحزن هو أن ترى بعض الشبان من المسلمين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ومن أجل ذلك تراهم يستوي لديهم الإسلام وسواه فيسهل على المضلين إخراجهم من حضيرته .

هذا وإننا لو استقصينا شهادات الأجانب في فضل دين الإسلام لطال بنا الكلام ولسنا نريد من ذكر شهاداتهم لهذا الدين إقامة البراهين على أن دين الإسلام هو دين المدنية والرقي فذلك أمر واضح لا يحتاج إلى برهان وإنما أردنا بذكر هذه الشهادات أن نذكر الناس كيف اعترف علماء الغرب بفضل دين الإسلام والفضل ما شهدت به الأعداء وكيف دخلوا فيه من تلقاء أنفسهم بدون إكراه بسيف أو

لسان، دخلوا فيه وهم يعلمون أن العالم الإسلامي متأخر في العلم وفي المادة وأنه قليل الحظ في الحياة والقوة لكن الحق محبوب في ذاته وللحق في كل زمان ومكان أحباب وأنصار . وعلماء الغرب ليسوا أهل جمود وجحود لأجل ذلك جهر كثير منهم بمدح الإسلام وقالوا هو دين العقل والعلم والأخلاق والحرية الصحيحة والأخوة والمساواة إذ لا يوجد مثله في العالمين .

ونحن يؤسفنا أن هذا الدين بينما يشهد له بالفضل أعداؤه ويحترمه إذ بفئة ممن يمتون إليه بصلة يهجرونه ولم يقتصر هجرهم عن الإعراض عنه بل تراهم يحرضون سواهم على كراهته ونبذه فالمدنية في عرفهم التمرد على الدين وطرح الفضائل ونبذ العادات القومية والجري وراء إشباع النفس بالملاذ والشهوات والتهتك والمجون من غير استحياء وفي غير خجل حتى اعتلج الهم والأسى في صدور الغيورين على الأخلاق والفضيلة وضاقوا ذرعا بتلك الحال المنذرة بالويل والثبور .

فليقلع هؤلاء الشبان عن غيهم ويثوبوا الى رشدهم فيتمسكوا بدينهم ويحافظوا على تقاليد قومهم وتراث أجدادهم الذين لما عملوا به دانت لهم الأرض مشرقها ومغربها وكانوا هم خلفاء الله لا سلطان فوق سلطانهم إلا سلطان الله وسيعلم هؤلاء أن هذا الدين القويم وإن لم يحفظه أهله قد حفظه الله ونصره ووقاه من كل كيد . **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون .**

التملق الممقوت

روى الترمذي بسنده الى عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس». هذا الحديث الشريف يطلب من المؤمن أن يسير في كل أموره بما يرضي الله من غير خوف أحد من الناس ولو غضب عليه الناس لأن الناس لايعجبهم إلا أن تشاركهم في عوائدهم وتجاريهم في ضلالهم ولو كان في ذلك غضب الله فمن اعتز بمولاه وعمل بما يرضيه كان الله في عونه وكفاه شرهم وأغناه عنهم بل ربما أحبوه ورضوا عنه لأنهم عرفوا فيه الثبات على الحق وإنه لا يخشى فيه لومة لائم ، ومن سعى في غير مرضاة الله بمخالفة أوامره ليرضي فريقاً من خلقه كأن يكون في وليمة عرس أو ضيافة فتدور على الجالسين كؤوس الخمر فيسكت عن هذا المنكر مراعاة لأصدقائه ومجاملة لهم أو كمن يجلس مع أصحابه فينهش أصحابه أعراض الناس ويغتابونهم فيقرهم على ما فعلوا محافظة على الصحبة معهم من فعل ذلك غضب الله عليه لأنه أرضى الناس وأغضب الله والرسول ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين أما المؤمن الذي قد اعتمد على ربه وعلم أن الضر والنفع بيد الله تراه لا يتملق ولا يتزلف لأحد من الناس لأنه على ثقة من أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه فما أضاع الدين إلا التملق وإرضاء الناس بما يغضب الله وما أضل الناس إلا سكوت العلماء عن المنكر مجاملة لهم ومراعاة لعواطفهم وهذا هو التملق الممقوت وعلى ذكر هذا الموضوع أقص عليكم أيها الإخوان قصة يظهر لكم منها أن الحق دائماً كان أكبر من الملك والسلطان وأن الذي يقول الحق ينصره الله ويحفظه ويرعاه. قال

بعض الرواة : حج هشام بن عبد الملك فلمـــا دخل الحرم قال ائتوني برجل من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : يا أمير المؤمنين لقد انتقلوا كلهم إلى جوار الله ولم يبق منهم أحد قال : إذن ائتوني برجل من التـابعين فجاؤوا له بطاووس اليماني فلمـــا دخل عليه خلع نعليه بجانب بساطه وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ولم يكنه ثم جلس بجواره بغير إذن وقـال كيف أنت يا هشام فغضب هشام من هذا التصرف غضباً شديداً وثار الدم في وجهه وهم بقتل طاووس ولكن جماعة من أصحابه أسرعوا إليه قائلين : مهلا يـا أمير المؤمنين فأنت في حرم الله الذي من دخله كان آمنا ولا يجوز أن تمسه بسوء ثم أخذوا يتوسلون إليه أن يصفح ويغفر حتى هدأت أعصابه ثم التفت إلى طاووس وقـــال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال طاووس : وماذا صنعت ؟ فازداد غضب هشام وقال له : ألم تدر ماذا صنعت ، لقد خلعت نعليك بجـــانب بساطي ولم تقبل يدي ولم تكنني ثم جلست بجانبي من غير إذن وقلت في كبر وعدم اكتراث كيف أنت ؟ وتلك والله جرأة وتطاول منك علينا يا طاووس فظل طاووس ثابتـاً في مكانه لم يبد عليه أي أثر للخوف والاضطراب ورد على هشام بكل هدوء ورباطة جأش قائلا: أنا لم أرتكب جرمـاً ولم آت منكراً ولست أخاف والله شيئـاً ما دمت لم أفعل ما يغضب الله فأما عن اعتراضك الأول وهو أنني خلعت نعلي بجانب بساطك فـإني أخلعهـا بين يدي الله كل يوم خمس مرات فلا يغضب علي ولا ينقم مني وهو ذو الجلال والإكرام وأما عن الثـــاني وهو أنني لم أقبل يدك فإني قد سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه يقول : لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة وأما عن الثالث وهو أنني لم أكنك فإن الله سمى أنبياءه فقال : يا داوود يا يحيى يا عيسى وكنى أعـــداءه فقال « تبت يدا أبي لهب » وأما عن الرابع وهو جلوسي بإزائك فإني قد سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول : إذا أردت أن تنظر الى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيـام فسكت هشام وكأنمـا قد راجعه عقله وأنبه ضميره ثم قال عظني يا طاووس فقـال طاووس وهو يتأهب للقيام يا

أمير المؤمنين إن أمر الناس عيشا أشدهم كبراً وبطشاً وإن أخفهم حملا أكثرهم حلماً وعدلا فكن بين الطرفين قواماً ليدوم لك الملك دهوراً وأعواما فهذا الملك الذي أصبحت فيه إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج من يدك بمثل ما صار إليك فاتق الله فيما حولك من هذه الأمة. فإن الله سائلك عن النقير والقطمير قال تعالى : **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون .**

من هذه القصة رأينا أن المؤمن إذا احترم دينه وعمل بما يرضي الله ولم يرهب ولم يخف من مخلوق مثله نصره الله وحفظه من كل سوء .

من أمراضنا الخلقية : السب واللعن والانتحار

لقد ساءت الحال الأخلاقية العامة وشاع الجهل بأحكام الدين بين عموم الطبقات وتفشت في الناس عادة سب الدين وانتشرت انتشاراً مروعاً ينذر بسخط الله وغضبه فمهما سرت في أي ناحية من نواحي البلاد التونسية إلا ويطرق سمعك كلمات بذيئة يتبادلها بعض الشبان الجهلاء أو الكهول الذين يحلو لهم إطلاق ألسنتهم في معرض النزاع أو المزاح بشتم الدين والعقيدة وسب المذهب والملة دون أي تحرج قد تتأثر إلى حد بعيد إذا سمعت بأذنيك شخصين من المسلمين يسبان دينهما عند حصول نزاع بينهما أو مزاح وقد ينصدع قلبك وتتمزق كبدك وتنكمش أساريرك وجبينك تألماً وغيضاً وغيرة على دين أبلى فيه سلفه الصالح بلاء حسناً وضحوا فيه بأموالهم وأنفسهم حتى خلفوه لنا تراثاً خالداً ومجداً تليداً فلم نعمل بمقتضاه ولم نحافظ عليه بل تهاونا فيه حتى أقدمنا أخيراً على سبه وشتمه .

قد تتأثر إذا كنت قوي الإيمان شديد الغيرة ولكن ماذا يجدي تأثرك وماذا يفيدك تألمك وأنت واحد يجابه ألوفاً ضعفت عقيدتهم وانحطت أخلاقهم ووهن إيمانهم فسلطوا ألسنتهم البذيئة على الدين يشتمونه حتى إنك إذا نهيت هؤلاء السفهاء عن سب الدين وبينت لهم أن السب ذنب عظيم وكفر صريح لأن من سب شيئاً فقد أعلن كرهه له وعدم الرضا به ومن كان هذا حاله إزاء دينه فقد خرج عن دائرة الإسلام لأن في شتم المسلم وسبه خروجاً عن طاعة الله وبعداً عن دائرة الآداب . والشتائم أمارة عن خسة النفس وفوق ذلك تعود اللسان بالنطق القبيح الذي يقطع الأرحام ويفرق الروابط بين المسلمين ويبذر

القلوب المتحابة والمؤمن ليس بالسباب ولا باللعان تسمعهم يجيبونك بأن السب صار عادة انغمس فيه الكبير والصغير فلا تقدر أن تقلعه من النفوس وفي يقيني أن هؤلاء السفلة لا يردعهم نصح الناصحين ولا يخوفهم بطش الله الأخروي ولا يرهبهم إنذار بعذاب الله ما دام خلوا من التنكيل الجسماني المادي لذلك أهيب بولاة الأمور أن يلتفتوا إلى هذه المسألة بعين الاهتمام غيرة على الدين الذي اعتبرته الدولة دينها الرسمي ويقبضوا على كل من يعتدي على دين الله الحنيف بالسب والشتم لنأخذ جزاء الطائشين الصارم ويلقى عقوبته الرادعة وإن الدولة لو فعلت ذلك لتهيب السابون من العقاب حتى تتلاشى تدريجيا أما أن نترك هؤلاء الطائشين على عادتهم يسب الواحد منهم دين الآخر فلا يعاقب ولا يجزى فذلك ما يدعو إلى استفحال الشتم وخطر المصيبة وفداحة البلاء والعداوة والبغضاء بين المواطنين فليعمل كل واحد منا على تلقين أبنائه منذ الصغر مبادىء دينهم فلم تعن شريعة من الشرائع بغرس التآلف والتوادد والكلام الطيب بين معتنقيها عناية الشريعة الإسلامية بذلك انظروا إلى كتاب الله الكريم كيف ضرب الله مثلا للكلمة الطيبة ليدعم التآلف والمحبة بين أفراد الأمة الإسلامية ويكون منها كتلة متحابة متعارفة غير متباغضة ولا متنكرة بعضها لبعض وكيف نهى عن الكلمة الخبيثة التي ينشأ عنها التفرق والعداوة والبغضاء فقال وهو أصدق القائلين : « **ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار** » فالله في هذه الآية الكريمة شبه الكلمة الطيبة بشجرة عروقها ضاربة في بطن الأرض وهذا كناية على ثبات أصلها ينتفع الناس بثمرتها ويستظلون بظلها وينتفعون بخشبها وكذلك حسن النطق والكلام اللين يؤدي إلى التحابب والتعاطف .

وشبه الكلمة الخبيثة بشجرة خبيثة كالحنظلة مثلا يقطعها كل من وجدها في بستانه لمرارة ثمرها وعدم نفعها وكذلك الكلام القبيح يؤذي الناس وينشأ عنه التفرق والتفكك .

لو أخذ المسلمون بهذه التعاليم الإسلامية التي جاء بها كتابهم كما أخذ بها المسلمون الأولون لأصبحوا وقد وجدوا أنفسهم قوة تهاب ومجموعة ترهب وكتلة يصعب على الطامع الجشع أن يقطعها ويتعسر على الغاصب النهم أن يزعزعها.

الانتحار

ومن أمراضنا أيضا الانتحار وقد فشا في هذه الأيام بين الشبان والشابات وأصبح سلاحاً خطراً يطعنون به أنفسهم كلما أصابهم ما يكرهون أو فاتهم ما يحبون وكلما أخذت أفكار الإلحاد بين الرجال والشبان والنساء في الانتشار وتقلص ظل الدين من النفوس فأصبحت تعبد المادة من دون الله وإذا ما بحثنا عن السبب الأصيل في نفس المنتحر نراه يرجع إلى جهله بحقيقة الحياة ومعرفته لغايتها وإنه يتوهم أن الحياة يجب أن يسير فيها من فوز الى فوز ومن حظ الى حظ وإلا صارت عبئا ثقيلا يجب ان يخلص منها بقتل نفسه إما خنقاً أو غرقاً أو حرقاً أو رمياً بالرصاص أو بتناول مادة سامة وما إلى ذلك من كثير من الوسائل ليتخلص من الشدة التي أصابته وضعف عن مقاومتها وان هذا الانتحار ينجيه من الألم والغم والهم ولكن هيهات هيهات :

ولو أنـا إذا متنا تركنـا ... لكان المـوت راحة كل حي
ولكنـا إذا متنـا بعثنـا ... ونسأل بعـد ذا عن كل شيء

ويقول علماء الاجتماع اليوم : إن الانتحار مرض من الأمراض المعدية ينتاب العقل كما تنتـاب الأمراض المعدية الأخرى باقي الجسم وإنه معروف من قديم الأزمنة منتشر بين بعض الأمم حتى أنه لمن المتعذر استئصال جرثومته ويرددون عن ذلك حكايات كثيرة : ففي عصرنابليون تفشى الانتحـار بين جيشه حتى أن ستة من حرسه انتحروا مرة واحدة فأمر بإحراق الموضع الذي انتحروا فيه ليقف باب الانتحار بإحراقه إلى غير ذلك من الحكايات ونحن لا نجادل في أنـه مرض معد خبيث يدفع إليه الحرمان من لذة الحياة لفقد جاه أو منصب أو لفقر حل به أو زوجة خرجت عن طاعته أو امتحان لم يصحبه فيه التوفيق أو ابنة لعب بها الشيطان إلى غير ذلك ولكن الذي يدفعنا إلى العجب أن الصغار صاروا يقلدون فيه الكبار ولكن لا غرابة في ذلك فغريزة التقليد تجد مرتعاً خصباً في

عقول الضعيفة السهلة التأثر لذلك يجب علينا أن لا نقف أمام هذا المرض الخبيث مكتوفي الأيدي متعللين بأنه من أنواع الجنون الذي استعصى علاجه أو بأنه قديم العهد أو بأن التقليد يدعو إليه إلى غير ذلك بل يجب أن نبث في نفوس ناشئتنا تعاليم الدين ونمزجها بأرواحهم فإذا عرف الناشيء معنى قوله تعالى : « **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** » وقوله : « **ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** » . وإن الدنيا لا تدوم على حال فدوام الحال من المحال فلا يطرأ عسر إلا ويصحبه يسر وما ضاق شيء إلا وقد انفرج وإن الرجولة الحقة في الصبر على الشدائد إذا عرف المسلم هذا لم ينتزع روحه بيده .

دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال أمؤمنون أنتم ؟ فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله. قال : وما علامة إيمانكم ؟ قال : نشكر على الرجاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال ﷺ : مؤمنون ورب الكعبة وقال المسيح عليه السلام « إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون » قال الله تعالى : « **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالــوا إنا لله وإنا إليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** » .

والمؤمن إذا قرأ كتاب الله بتدبر وتفكر يجد فيه أن الحياة ما هي إلا اختبار دائم في يسرها وعسرها وضيقها وخيرها وشرها قال تعالى : « **تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحيـاة ليبلوكم** أي يختبركم، **أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور** ».

فليتق الله هؤلاء العابثون بأرواحهم فإن المسلم حقاً هو الثابت الرزين الذي يخاف الله ويخشى عقابه فلا يجزع من مكروه نزل به أو لما فاته من لذة وحظ قال تعالى : « **ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيماً** » فالانتحار وقتل الإنسان نفسه بأي وسيلة حرام شرعاً وكبيرة من أكبر الكبائر وجريمة ضد الدين والوطن والإنسانية فلا عجب إذا كان إثمه عظيماً ووعيده شديدا وعذابه أليماً . روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار

جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ومن تحسى سماً فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ».

هذا ونحن لم نسمع ولم نعرف في صدر الإسلام إلا حادثة واحدة من حوادث الانتحار وذلك أن رجلاً قاتل مع المصطفى ﷺ في إحدى الغزوات وأبلى بلاء حسناً فأخبر الرسول أصحابه أن ذلك الرجل من أهل النار فعجبوا كثيراً وما لبثوا غير قليل حتى جرح الرجل جراحاً بليغة فتسرب اليأس إلى قلبه ووسوس إليه الشيطان الإجهاز على نفسه فأطاعه وطعنها طعنة كانت هي القاضية فكان من أهل النار .

أيها الإخوان

لا نجاة لنا في هذه الحياة إلا أن نحسن الظن بالله عز وجل فإذا أعطى الله لعبده ما يريد فهو كريم وإذا منحه بعض ما يشتهي فهو رحيم لأنه يعلم أن في الحرمان مصلحته وفائدته إذ قد يكون الشر فيما يحب الإنسان لأجل ذلك يجب أن نتغلب على شهواتنا وأن تكون المادة وسيلة لا غاية لنا وأن نتحلى بالصبر الجميل والعمل الصالح وقد ورد في القول المأثور : أن الله أوحى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاقي وإن من أخلاقي أني أنا الصبور .

الخمر ومضارها

إن الخمر قد انتشرت بين أهالي القطر التونسي انتشار الهباء في الفضاء وقد قام الخطباء والوعاظ وأكثروا من النصح والإرشاد وأنذروا وحذروا فلم يجدوا آذانا صاغية ولا قلوبا واعية ولو وقفوا على مقدار مضارها وما تجره عليهم من الوبال وسوء الحال لانصرفوا عنها وطلبوا الخلاص منها .

أسباب تعاطي الخمر

أسباب تعاطي الخمور كثيرة منها حب التقليد ودافع الغواية الشيطانية إلى شرب الخمر ولو مرة واحدة ليرى الإنسان تأثيرها ويتعرف على نشوتها في نفسه وكم كانت هذه الكأس الأولى سببا في الإدمان والخسران ومفتاحا للذل والهوان .

قال المرحوم المنفلوطي في نظراته عن الكأس الأولى وسوء نتائجها الحكاية الآتية :

كان لي صديق أحبه وأحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفائه في حالي بعده وقربه فرق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات فأنا اليوم أبكيه حيا أكثر مما كنت أبكيه ميتا . سألت عنه فقيل لي إنه مريض فذهبت إليه لأعوده ولما دخلت عليه لم أجد عنده طبيبا ولا عائدا لأنه فقير ثم تقدمت إلى سريره وسألته مم تشكو ؟ فزفر زفرة مشى قلبه منها في صدره وأجاب : أشكو الكأس الأولى : فقلت أي كأس تريد ؟ فقال : الكأس التي أضعت فيها مالي وعقلي وصحتي وشرفي وها أنذا اليوم أودع فيها حياتي فقلت له : طالما نصحتك

وعظتك وبينت لك من سوء المصير ما أنت فيه اليوم فقال : مـــا كنت أعلم حين نصحتني من عواقب هذه المعيشة النكدة أكثر مما كنت أعلم ولكني كنت شربت الكأس الأولى فخرج الأمر من يدي . كل كأس شربتها جرتها على الكأس الأولى أما هي فلم يجرها علي غير قصور عقلي عن إدراك خداع الخلطـــاء وغش قرناء السوء إذ قالوا لي :

إن حياتك حياة أكدار وأحزان وهموم وأفكار ولا دواء لهذه الأدواء إلا الشراب وزينوا لي وحسنوا وقالوا : إن الشراب يزيد رونق الجسم ويفيد في صحته وإنه يفتق عقدة اللسان ويعلم الإنسان المنطق والبيان وإنه يبعث في النفس الجراءة والإقدام .

هذا مـــا سمعته منهم فصدقته وخدعت فيه . صدقت أن في الشراب أربع مزايا : السعادة والصحة والفصاحة والإقدام فوجدت فيه أربع رزايـــا الفقر والمرض والسقوط والجنون ولولا الكأس الأولى مـــا هلكت ولا شكوت الذي شكوت ولولاها ما عافني الأصدقـــاء ولا زهد في الأقربـــاء فكن أنت وحدك صديق السراء والضراء فعاهدته على ذلك ثم تركته في حالة قيل فيها .

تصم السميع وتعمى البصير ويسأل من مثلها العافية

ومنها ما يكذبه بعض الناس في شأن الخمر من أنها تكسب صاحبها صحة وعافية وتعين على مسألة النساء بلذة فائقة وتسلي الهموم وتفرج النفس وغير ذلك وكل هذا اختلاق محض وكذب لا شك فيـه لأنهـــا تخدر العقـل فشاربهـــا يفقد شعوره وإحساسه مدة ولكنه بعد أن يصحو يكون كئيبا وحزينا ومريضا وضعيفا وبئست العاقبة .

مضار الخمر من الوجهة الصحية

قرر الأطباء أن المسكرات مضرة بالجسم نظرا لاشتمالهـا على جزء عظيم من الكحول فهي تؤثر في المعدة فتحرم المدمن من لذة العيش وتضعف حركتهـا فيكون ذلك سببا في تأخر الهضم وتتلف العصير المعدي فيفقد شهية الطعـــام وتكثر أسقامه وأمراضه وهذا دليل كاف على كذب المدعين المحرضين على تعاطيها

وكثيرا ما يكون المسكر سببا في تكوين دمل في المعدة تعجز الأطباء عن معالجتها بل لابد فيها من عملية جراحية تنتهي في الغالب بموت العليل كما أن المسكر يؤثر في القلب فيضعف عمله ويحدث فيه تمددا فيصاب صاحبه بداء السكتة والموت المفاجيء والعياذ بالله وكثيرا ما يكون المسكر سببا لأمراض صدرية ونزلات شعبية والتهابات رئوية خطيرة كما يضر بأعضاء التناسل ضررا بليغا .

من الوجهة الخلقية

أما مضارها من الوجهة الخلقية فحدث عنها ولا حرج فمنها ذهاب الهيبة والكرامة والوقار من أعين الناس ومنها أنها توقع النزاع والخصام بين الناس فإن السكير يسب ويلعن ويضرب ويعتدي على عفاف النساء فيزني ويفسق وينسى نفسه وبيته وأولاده وينسى واجبه ودينه وحقوق الناس عليه لذلك حرمها الله لأنها مفتاح كل شر قال تعالى : « **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** » وقال رسول الله ﷺ « الخمر أم الخبائث » وقد سميت بذلك لأنها تخرج الإنسان عن حد العقل فيفعل فعل البهائم . قيل سقى قوم أعرابية مسكرا وأثر فيها فقالت : أيشرب نساؤكم هذا الشراب ؟ قالوا نعم . قالت : إذن ما يدري أحدكم من أبوه وقال أحد الشعراء :

أرى كل قوم يحفظون حريمهم ... وليس لأصحاب النبيذ حريم
إذا جئتهم حيوك ألفا ورحبوا ... وإن غبت عنهم ساعة فذميم
إخاؤهم ما دارت الكأس بينهم ... وكلهم رث الوصال سؤوم
فهذا بياني لم أقل بجهالة ... ولكنني بالفاسقين عليم

وبالجملة إن مضار الخمر تنحصر في ذهاب الصحة والعقل وضياع الأموال وإيقاع المرء في الفقر والخراب العاجل والموت السريع .

تحريم الخمر في الجاهلية

حرم كثير من عقلاء العرب الخمر على أنفسهم بأنفسهم لما رأوا فعلها في العقل وممن حرمها في الجاهلية وأدرك الإسلام أسد بن كرز وهو القائل حين أدرك الإسلام :

كتاب الله ليس له شريك ووعدت المدامة والندامى
وحرمت الخمر وقد أراني بها سدكا وإن كانت حراما

(سدكا) : اي مولعا.

ومن حرمها على نفسه طول حياته أبو بكر الصديق رضي الله عنه. أخرج ابن عساكر عن أبي العالية الرياحي قال : قيل لأبي بكر في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ : هل شربت الخمر في الجاهلية؟ فقال : أعوذ بالله فقيل له : ولم؟ قال : كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي فإن من شرب الخمر كان مضيعاً عرضه ومروءته.

ومن حرمها على نفسه أيضا عبد الرحمان بن عوف والعباس بن مرداس وقد قيل له حين كبر : لو أخذت من الشراب شيئا فإنه يزيد في قوتك فقال : لا أدخل برأسي شيئا يحول بيني وبين عقلي وكذلك كان عثمان بن عفان.

تحريم الخمر في كتاب الله العزيز

كان المسلمون يشربون الخمر في أول أيام الإسلام ثم أنزل الله عز وجل بالمدينة : « **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما** » ونزلت هذه الآية في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله افتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل سالبة للمال. فأنزل الله هذه الآية فشربها قوم وتركها قوم وكانوا يستمتعون بمنافعها ويتجنبون مآثمها إلى أن صنع عبد الرحمن بن عوف طعاما ودعا إليه ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا وحضرت صلاة المغرب وقدموا بعضهم ليصلي بهم فقرأ : « **قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون** » بحذف «لا» فأنزل الله عز وجل : **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** ».

ثم نزلت آية التحريم العام وهي قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** »

فقال عمر : انتهينا يارب.وروي أن هذه الآية الكريمة التي نزلت في تحريم الخمر كان نزولها في شهر ربيع الأول سنة أربع من الهجرة وقيل في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة والله أعلم .

قال أنس رضي الله عنه : حرمت الخمر ولم يكن يومئذ شيء أعجب منها وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر .

فالشريعة الإسلامية هي أول من أنقذ الإنسانية من مخالب المسكرات إذ أخذت على أيدي السكارى وجعلت عقابهم شديدا محافظة على أبدانهم وأموالهم وأولادهم .

تحريم الخمر في السنة النبوية

قد ورد في سنة رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في ذم الخمور وتحريمها منها عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب حرمها في الآخرة.رواه البخاري. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن. رواه البخاري .

وقال الإمام ابن الوردي في تحريمها :

واهجر الخمرة إن كنت فتى　　كيف يسعى في جنون من عقل

وقال الشاعر :

أدمن الكل للشراب وهاموا　　وتفشى الضنا وعز الدواء
كرهوا نعمة العقول فضلوا　　وعجيب أن تكره النعماء

مجنون خير من عاقل

دخل ملك من الملوك إلى مستشفى الأمراض العصبية مستطلعا فرأى شابا حسن الهندام طلق المحيا باسم الثغر نظيف الثياب فسر من هيئته ثم دنا منه وسأله عن حقيقته فأجابه بأحسن لفظ وأرق تعبير وألطف أسلوب فدهش وبهت وبعد أن أتم زيارته ورجع لقصره تذكر ما عليه هذا المجنون من فصاحة ورقة وظرف وأمر بإحضاره فلما جاء مثل بين يدي الملك وسلم بأحسن ما يكون من

التحية وجلس كما أمر دون تأخير قائلا : إن امتثالي لمولاي خير من الأدب لديه وكان في محادثته خير أديب أريب فسر الملك لمحادثته وأمر بإحضار آنية الشراب وملأ كأسا لشربه وملأ آخر وقدمه للمجنون الذي انقلبت سحنته وتغيرت هيئته وقال :

أيها الملك ما الذي جنيته حتى تعاقبني بهذا العقاب أنا رجل مجنون، وأنت تشرب هذا الخمر لتكون مثلي أمـــا أنا فمثل من أكون إذا شربته . إن مولاي قربني لسدته وأدناني من عرشه بدعوى استظرافه إياي ثم انشد بقول

ليس الظريف بكامل في ظرفه حتى يكون عن الشراب عفيفا
فإذا تعفف عن معـاصي ربه فهناك يدعى في الأنـام شريفا

فأمر الملك برفع أوعية الشراب تائبا من وقته فهل للسكيرين أن يتعظوا بهذه القصة وأن يعلموا أن أكبر نعمة أنعم الله بها على الإنسان هي العقل بهـــا فضله على الحيوانـــات وبها عرفه الخير من الشر فكيف يفرط في هذه النعمة ويشتري الجنون بماله الذي تعب في جمعه ويخسر كرامته ونخوته ويصبح أضحوكة عند الصبيان يرمونه بالحصى ويرجمونه بالأحجار ويكون سخرية عندهم فالعاقل يفكر في العاقبة ويفتح آذان قلبه لعله يرجع عن غيه ويسأل الله الهداية والتوفيق وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

ماهو الشباب ؟

قد اخترت أن أجعل موضوع درسي في الحديث عن الشباب ومهمته في هذه البلاد لأن الشباب عنوان الأمة ورمز نهضتها ومحط أمانيها وعلى أكتافه ستقام هذه النهضة الجديدة فلا غرو إن اهتمت حكومتنا الرشيدة بتعليمه وتثقيفه وأنشأت له النوادي الخاصة والمجلس الأعلى لرعايته وتوجهت هذه الرعاية بإنشائها وزارة للشباب والرياضة وحق لها أن تهتم بالشباب لأنها تعلم أنه معقد الآمال في يومها وغدها لأن شباب كل أمة هم عدتها ومصدر قوتها وعزتها ، والمرحلة التي يقاس بها تقدم الأمم وتأخرها هي مرحلة الشباب فكلما كان شباب الأمة قائمين بالواجب نحوها نشطت من عقالها وفاقت غيرها من الأمم . والشباب قادر على أن يبث في الأمة من قوته ما يحول ذلها عزا وشقاءها سعادة وأدوار الضعف في الأمة قد تكثر كما تتعدد أدوار القوة إلى أن ينتهي أمدها ويحين حينها ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

وحسبكم دليلا على ذلك بعض الأمم الغربية فقد مرت بأدوار ضعف وأدوار قوة وغالبا ما كانت أدوار ضعفها سببا لتفكير الكهول والشيوخ من كبرائها لدعوة شبابها للنهوض .

ولقد عني الإسلام بمرحلة الشباب فضرب القرآن أحسن الأمثال لمن آتاه الله الحكم صبيا وعلمه الحكمة وفهمه الكتاب وقص علينا أصدق القصص ومنه نبأ الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى أولئك الفتية هم أصحاب الكهف الذين جهروا بدعوة التوحيد ونادوا بالإصلاح واحتملوا أذى ونصبا كبيرا ثم هاجروا من ديارهم إلى كهف سكنوه وكانوا لمن بعدهم آية عجبا وعبرة وعظة وقد أشار القرآن إليهم

بقوله : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)

وكذلك قص علينا قصة يوسف عليه السلام وكيف كانت العصمة في الشباب وقد عرض يوسف عن فتنة النساء وقال : رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه .

وناهيكم بقصة سيدنا عيسى عليه السلام ذلك الشاب الذي جعله الله للعالمين آية وعلمه الكتاب والتوراة والإنجيل وقد بعث شابا وتوفي شابا ونحن لا ننسى يحيى وسليمان عليهما السلام وغيرهما من ذرياتهم وإخوانهم الشباب فقد كانوا أسوة حسنة لمن بعدهم ومثلا يضرب في التقى والطهر والعفاف والقوة والشجاعة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

وكان النبي ﷺ في شبابه خير مثل يضرب لمن أراد الهدى فقد كان معروفا بالصدق والأمانة في معاملته للناس جميعا وساهم في المحالفات لنصرة المظلوم وإغاثة الملهوف والإصلاح بين الناس في بيئة كلها جهل وعمى وعصبية هوجاء وعداء وحين كان الشباب في ضلالهم يعمهون وعلى شركهم عاكفين كان محمد ﷺ يتفكر في خلق السموات والأرض ويخلو لعبادة ربه حتى استعد لتلقي الوحي وتبليغ الرسالة . ولقد دعا رسول الله ﷺ كل شاب إلى حفظ شبابه ليحفظ له حياته فقال : احفظ الله يحفظك (معناه احفظ الله في شبابك يحفظك في كهولتك) وقال عليه الصلاة والسلام : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج وقال : اغتنم خمسا قبل خمس حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وشبابك قبل هرمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك . هذه دعوات صريحة لاغتنام الشباب والاستعداد للعزة في الدنيا والآخرة إن الشباب الصالح في الإسلام هو آية الفخر وقد عده النبي ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

وليس المقصود بصلاح الشباب الاعتكاف في الزوايـــا ولكن الصلاح هو القيام بما هو مفروض على المرء من حقوق الله وحقوق الوطن وحقوق الناس .

شباب السلف الصالح

علمتم أن الإسلام قد عني بالشباب وحض على اقتنـــاص فرصته للتزود للمشيب ولما بعد المشيب من النقلة إلى الآخرة ولقد أشار القرآن إلى أن أتباع موسى عليه السلام كانوا شبابا فقال تعالى : **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين .**

كيف قامت الدعوة إلى الإسلام

قد ابتدأ النبي دعوته فآمن به نفر قليل نحو الثلاثين كان منهم الأرقم بن أبي الأرقم ، وقد رأى أن هذه الجماعة القليله لا دار تجمعها ، ولا مسجد تؤدي فيه عبادتها ، ولا نادي تقصده للاجتماع بهذا النبي الكريم ، ولتتلقى عنه الكتاب والحكمة . فقدم لهم داره فكانت لهم ناديا ومدرسة ومسجدا . وتألفت من هؤلاء الشبان جمعية سرية يدعو أفرادها إلى دينهم الجديد إلى أن زيد عددهم إلى أربعين شابا . وكان رئيسهم هو النبي ﷺ ؛ فدعاهم إلى المؤاخاة بين كل شابين متقاربين في السن والمشرب والدار ، فآخى بين طلحة والزبير والأرقم وسعيد بن زيد وحمزة وعبيدة بن الحـــارث وسعد بن أبي وقاص وابن مسعود وغيرهم .

ما فعله هؤلاء الشبان

الاستعانة بالشبان الأقوياء في نصرة إخوانهم الضعفاء وكـــانوا يقومون بالدعوة في بادئ الأمر فرادى بطريقة السر ثم جماعة ثم جهرا ؛ فكان أحدهم يقابل أخاه فيمثل معه حال التلميذ والأستاذ ؛ وذلك أن أحدهما يسأل صاحبه عن محمد وما جاء به ، فكأنه لا يعرف ما يسأل عنه ، فيجيبه الآخر بما يدل السامعين على أن الخير في اتباع محمد ﷺ .

أمثلة من شباب الصدر الأول

1) علي بن أبي طالب : أسلم وهو ابن ثمان سنين . وكان عقله رشيدا ، ورأيه سديدا ، دخل على النبيء بعد إسلام خديجة بيوم فوجدهما يصليان ، فقال علي : يا محمد ما هذا ؟. فقال له : هذا دين الله الذي بعث به رسله فأدعوك إلى الله وأن تكفر باللات والعزى . فقال : لست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب ، يعني أباه ، فخشي النبيء ﷺ أن يؤثر الشيخ على عقل الغلام ، وكره أن يفشي سره قبل أن يتم أمره . فقال : يا علي إن لم تسلم فاكتم . فمكث علي ليلته ، وما طلع الصبح حتى بادر إلى النبيء فآمن به وسبق أعمامه .

2) الزبير بن العوام : أسلم الزبير وهو ابن ثمان سنين . ومات أبوه وهو طفل . وكانت أمه تشتد عليه في التربية. فكان عمه يرميها ببغضها له، فتقول : من قال أبغضه فقد كذب ، وإنما أضربه لكي يلب ، (يعني يصير لبيبا) .

نشأ الغلام قويا صلبا حازما . وما كاد يعلن إسلامه حتى انقلب حنان عمه عليه نقمة وتعذيبا . وقد كان الأذى المنصب عليه من عمه سببا في هجرته بدينه إلى الحبشة مع رفقائه من شباب المسلمين . وكان الزبير أول من سل السيف على المشركين . وقد شهد المواقع كلها مع رسول الله ﷺ . وقد أرسله عمر بن الخطاب رضي الله عنه لفتح مصر لما يعرفه عنه من البطولة والمقدرة الحربية . ويذكر المؤرخون أنه لما طال الحصار الذي ضربه المسلمون على حصن بابليون قال الزبير : « إني أهب نفسي لله وأرجو أن يفتح الله على المسلمين » . فأعد العدة للذي عزم عليه ، ودك الخندق في الموضع الذي اختاره لتنفيذ ذلك بمهارة غريبة ، ثم نفذ خطته تحت الظلام .

3) عبد الله بن مسعود : كان راعيا للغنم وهو غلام ؛ ولما سمع بخبر الرسول أتاه ليسأله ويطلب منه أن يعلمه ما يوحى إليه من الكتاب والحكمة . وكان ميالا إلى العلم فانقطع له حتى نبغ فيه وكان أول من جهر في مكة بالقرآن ، فكان المشركون يضربونه في وجهه وهو يقرأ حتى بلغ سورة الرحمن . فقال له

أصحابه هذا الذي خشينا عليك . فقال : ما كان أعمال لله فهو أعون علي منهم الآن ، ولئن شئتم قرأت عليهم مثلها غدا . فقالوا : حسبك فقد أسمعتهم ما بكوا هو . وقد لزم النبيء ﷺ وأكثر من خدمته ، وامتزج الإيمان بلحمه ودمه حتى شهد له الرسول بذلك حينما أنزل عليه « **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين** ». فقال له الرسول أنت منهم . وكان أعلم الصحابة بالقرآن والفقه وقد أحبه الرسول واختصه بما لم يأذن فيه لغيره من كبار الصحابة من الاطلاع على سره دون غيره . روى البخاري أن النبيء ﷺ قال لعبد الله بن مسعود : اقرأ علي القرآن . فقال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : إني أحب أن أسمعه من غيري . فقرأ عليه من أول سورة النساء إلى قوله تعالى . « **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا** » . بكى الرسول وقال : حسبك « يعني كفى » وروى البخاري أن ابن مسعود قال : والذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت وما نزلت آية إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ولو كنت أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تعالى تبلغه الإبل لركبت إليه .

4) أسامة بن زيد بن حارثة : هو الصحابي حب رسول الله ﷺ . نشأ في الإسلام صغيرا فكان الرسول يجلسه وهو صغير على فخذه ، ويجلس الحسن بن علي على فخذه الأخرى ويقول : اللهم إني أحبهما فأحبهما كما ذكره البخاري .

أول غزوة لأسامة

كانت أول غزوة لأسامة في السنة الثامنة قبل الفتح . فقد أرسله النبيء لقتال الحرقة وقومه والحرقة هو رجل من جهينة بالغ في إحراق قوم فسمي الحرقة مبالغة في ذلك كهمزة ولمزة في الهمز واللمز فسار إليهما وانتصر عليهم وقتل الحرقة .

أسامة والقرشية في غزوة الفتح

من القواعد التي أسس عليها الدين الإسلامي إزالة الفوارق بين الطبقات .

والمســـاواة في حدود الدين ، لا فــرق في ذلك بين العظيم والحقير ، والوزير والأمير ، والصغير والكبير . تلك المساواة التي تعتز بها دول العـالم الآن وقد نادى بها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا مضت فقال : الناس سواسيــة كأسنان المشط . يتضح لكم هذا جليا فيما يأتي :

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن قريشا قد اهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : من يجترىء عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ . فكلمه أسامة في شأنها . فقال رسول الله له : أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة . ثم قام فخطب الناس فكان ممـــا قال : إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . رأى أسامة أن الشفاعة مأجور عليها وأنها كثيرا ما حث عليها الدين . قال تعالى : « **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها** » . وقــال ﷺ : « اشفعوا تؤجروا » . رأى أسامة ذلك فطلب من الرسول أن يعفو عنهــا ، فلم يقبل منه . وأمر بقطع يدها فقطعت . وقبل وفــاة الرسول بمدة وجيزة جهز أسامة ليذهب إلى الشام للأخذ بثأر من قتل فيها من الصحابة . فقد قتل في تلك الغزوة عبدالله بن رواحة فجعفر بن أبي طالب وزيد بن حــارثة وغيرهم . ثم توفي النبيء ﷺ ولم يسر الجيش . وكان ما كان من ارتداد أحياء العرب حول المدينة وامتناع الآخرين عن الزكاة . وأصبح المسلمون لا يدرون مــاذا يصنعون لقلة عددهم وعددهم وكثرة عدوهم . وبعد بيعــة أبي بكـر بيوم واحد أشار كثير من الناس على أبي بكر الا يسير جيش أسامة إلى الشام لاحتيــاج المسلمين إليه فيما هو أهم ، ولكن أبا بكر لم يقبل ذلك . وقـال : والله لا أحل عقدة عقدها النبيء ﷺ ولو أن الطير تخطفنا والسباع تأكلنا . ثم خــاطب الجيش وأمره بالاستعداد للغزو ، وشيعه وهو ماش وأسامة راكب . فقــال أسامـة : يا خليفة رسول الله ، والله لأنزلن ولتركبن . فقال أبــو بكر : والله لا تنزل ولا أركب وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة . ثم أخذ يوصي أسامـة

بقوله : اصنع ما أمرك بـه رسول الله ﷺ فابدأ ببلاد قضاعـة ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله ﷺ . ثم أوصى الجيش بعدم الخيانة والغدر والتمثيل . ورجع . ولما وصل أسامة إلى بلاد الشام فرق جمعهم وأسر منهم كثيرا ثم عـاد سالما بعد أربعين يوما ولم يفقد أحدا من جيشه . وبعـد أن استراح قليلا سيره أبو بكر لمحاربة المرتدين فانتصر عليهم ورد للإسلام هيبته وكرامتـه ، رضي الله عنه .

أيها الشبان النجباء

هذه أمثلة قليلة صورنا لكم فيها بعض نفوس أولئك الشبان النجبـاء ، الذين اختارهم الله لإظهار دينه ، ونصر رسولـه . يتجلى لكم منها فضلهم في رفعة الإسلام والمسلمين . وإنه والله قد يتولاكم العجب ، وتعروكم الدهشة عندما تفكرون في سرعة انقلاب هؤلاء الشبان الذين نشؤوا ، وتربوا على مبـادىء وثنية ، ونزعات جاهلية ، وطباع همجية ، أميين لا عهد لهم بمطالعة كتاب ، ولا جمعتهم مدرسة . انقلبوا دفعة واحدة إلى العلم والأدب والصدق والوفـاء والنجدة والشهامة والثبات والعفة . أي والله قد يتولاكم ذلك ، لكنكم حينمـا تعلمون أنهم كانوا تلاميذ النبي ﷺ ، الذي لقنهم الحكمـة شفهيـا ، فأصبحوا أساتذة العالم ، يذهب عنكم ذلك العجب وتتسرب تلك الدهشة من نفوسكم . فما رأت الدنيا مثلهم تلاميذ ولا شهد العالم مثل معلمهم مرشدا .

أيها الشباب الناهض

إن كنتم تريدون عزا في بلادكم ، وهناءة في عيشكم ، وسعـادة لوطنكم . فعليكم بالتمسك بدينكم ، والمحافظة عليه ، والدفاع عنه ، كما تدافعون عن أعراضكم وأموالكم . فما ورث العرب خلافة الأرض بالاستهتـار ، والمسكنة والتكالب على لذات الحياة ، وهدم شعائر الدين ، بل ورثوهـا بالإيمـان ، واليقين والجهاد والثبـات والبعد عن الشهوات . بذلك استطـاعوا نشر دعوة الحق ، واستحقوا وراثة الأرض التي أشار الله إليها في كتابه المبين : **« ولقـد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصـالحون ، إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »** .

الشباب الصالح وأثره في سعادة الأمة

ليس أحب للواعظ من أن يرى وعظه قد أثمر، ونصحه قد نفع، كما لا شيء أبعث للسرور على نفسه، وأدخل للحبور على قلبه، من رؤية هؤلاء الشبان الذين يؤمون المسجد، وعلامات الابتهاج والسرور بادية على وجوههم، ليستفيدوا من الموعظة التي ستسوقهم بحول الله إلى الهدى والخير والإصلاح. وبذلك يكونون قدوة حسنة لزملائهم من الشبان، فينسجون على منوالهم. فإقبالكم أيها الشبان النجباء على إقامة صلاة الجمعة، وحرصكم على سماع الموعظة، كان بلا شك نتيجة النصائح التي سمعتموها في ليالي رمضان. فقد كونت فيكم هذه الدروس محبة في دينكم، ففاضت قلوبكم بنور هدايتها، وتأثرت نفوسكم بسماعها، وغرست فيكم حب الخير والإصلاح فبارك الله فيكم وبارك الله في كل شاب سار على منوالكم. فالتمسك بالدين، والاعتصام بحبله، هو أول واجب يقوم به الشباب. وبذلك يتبع ما أمر الله به، وينتهي عما نهى عنه. قال تعالى: **«فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى»**. فكل عمل لا يقوم على عقيدة سليمة، وإيمان صحيح، يكون قريب العطب، سريع الزوال. والله تعالى يدعو إلى الخير والبر بالإنسانية جميعا. قال تعالى: **«يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون»**.

إن العصر الذهبي لكل أمة هو العصر الذي تسمو فيه أخلاق شبابها، لأن الشباب كالراعي إذا صلح صلحت الأمة، وإذا فسدت كانت لا قيمة لها. فإذا أردت أن تعرف حال أمة من الرفعة والانحطاط، فانظر إلى شبابها تستطيع أن تحكم الحكم الصائب الذي لا تجد لك فيه معارضا، ولا لائما. فالأمة التي يسلك شبابها سبيل الفضيلة، ولا تنحرف عن طريقها القويم، لا شك تكون أبدا ظافرة وفي طليعة الأمم المتقدمة قوة ورفعة. وشر الأمم أمة أهمل شبابها أمر الفضيلة، لأن بهذا الإهمال تفقد حماستها وشجاعتها الأدبية، ويموت فيها كل شعور حي وإحساس شريف وتصبح في عداد الموتى. وهذه سنة الله في خلقه. ولن تجد لسنة الله تبديلا. فما نهضت أمة من الأمم ولا

... أمرها إلا بالفضيلة ، والتاريخ أعظم شاهد على ما نقول . فالأمة الإسلامية في الصدر الأول ما بلغت ما بلغته من المجد والرقي ، إلا عندما ... بحبل الله وسنة رسوله . فتمت لها الكلمة النافذة . وفتح رجالها ممالك العظيمة ، مما لم تفتحه أقوى الأمم في مئات السنين ، حتى وقفت أعظم الدول مصعوقة أمام ذلك السير الحثيث الذي يضارع سرعة الكهرباء .

لقد قطعت تونس في العلوم والثقافة في العشر سنوات الأخيرة التي تلتها فيها استقلالنا ، شوطا لا بأس به . وأصبح الناس مقبلين على التعليم إقبالا عظيما . ... صرفت الدولة مبالغ طائلة من المال في بناء المعاهد ، والجامعات ، وتحسين طرق التعليم . ولكن مما يدعو إلى الأسف أن نجد بجنب هذه النهضة المباركة نهضة سوء يتبارى فيها بعض الشبان حيث أن فريقا منهم انحلت أخلاقهم ... أن طريق المدنية في هجر الدين ، وعدم المبالاة بالأخلاق الكريمة ، والإخلاد إلى الشهوات ، والترف والتنعيم ، ولبس الأقمشة الحريرية التي تنافي الرجولة . فليكن الشباب نظيفا حسن المنظر لكن بشرط أن لا يخرجه ذلك عن حدود الرجولة الكاملة . فهذا رسول الله ﷺ ، قد زار قوما ، ورأى رجلا عليه ثياب قذرة . فقال : أما يجد هذا ما يغسل به ثوبه ؟ من هذا الحديث يتضح لنا أن الشريعة الإسلامية ، تمنع الشبان من أن يعنوا بهيئتهم ما داموا لم يتجاوزوا في ذلك حد الاعتدال ، أو يخرجوا عن العادة المألوفة ، فلا يحسن بهم أن يستغرقوا كل أوقاتهم في عملية « التواليت » من خضب ودهان وغير ذلك ، لأن هذا خاص بالنساء دون الرجال . إن الرجل لا تزرى به دمامة ولا تعيبه خشونة ، وإنما الذي يعيبه ويشينه الأخلاق السيئة ، والعادات الحقيرة ، ولا سيما مزاحمة النساء في قص الشعر وتلوينه وكيه ولفه ونشره .

والآن هل لنا أن نتساءل كيف يتسنى للشباب أن يتغلب على شهواته ؟ والجواب على ذلك سهل ولا يحتاج إلى جهد أو كبير عناء فالشاب الموفق الذي يريد أن يتخلص من شهواته المنافية للدين والعقل عليه أن يقاوم نفسه الأمارة بالسوء ، ويبتعد عن مصاحبة من ساءت أخلاقهم ، وقبحت سيرتهم ، مهما

كلفه ذلك من تضحية بشهواته ، ويحرص على أداء حقوق الله ومراقبته في السر والعلن . وقد أبان الله لنا الطريق في كتابه العزيز ، وهو الذكر والفكر وهما من أنجع الوسائل في تربية النفس وترقيتها إلى ذروة الفضائل والبعد عن الشهوات الحقيرة . فالذكر هو مراقبة الله عز وجل فيما يفعله الإنسان . فالصلاة ذكر ، وتلاوة القرآن ذكر ، والقيام بكل عمل مفيد ذكر ، واجتهاد التلميذ في تحضير دروسه ذكر . فهو من أكبر الوسائل في محاربة الوسواس الخناس لأنه يشغل النفس عن مطالبها الحقيرة ، ويذكرها بقوة الله عز وجل **« إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »** . وأما الفكر فهو البحث والاستنباط والتفكر في خلق السموات والأرض ، مما يدل على عظمة الصانع . فالفكر حينئذ هو المفتاح للخيرات كلها . قال تعالى : **« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار »** .

وفي الحديث الشريف ، قال رسول الله ﷺ : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » . فإذا فكر الشاب في عظمة الله وكبير قدرته اهتدى قلبه إلى طاعة الله عز وجل . وإذا اهتدى قلبه تغيرت أعمال جوارحه ، فيبتعد عن الشهوات وارتكاب المحرمات وهما القصد من التربية وغاية الحياة .

كان الحكيم لقمان يطيل الجلوس وحده . فكان يمر به مولاه فيقول : يا لقمان إنك تطيل الجلوس وحدك ، فلو جلست مع الناس كان آنس لك. فيقول لقمان : إن طول الوحدة افهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة . وقال الفضيل بن عياض : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك . قال الحواريون لعيسى بن مريم : يا روح الله هل في الأرض مثلك ؟ قال : نعم من منطقه ذكر وصمته فكر ونظره عبرة فإنه مثلي . وقال الحسن البصري : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو . ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو . ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو . وقال تعالى : **« سأصرف عن آياتي الذين**

يتكبرون في الأرض بغير الحق » يعني : أمنع قلوبهم التفكر في أمـــري .
وخلاصة القول ليس لنا خلاص مما نحن فيه معشر الشباب من سوء الحال ، إلا بالرجوع إلى الله عز وجل والنزول على أوامره وأخذ أنفسنا بالفضيلة والتمسك بديننا . فالدين هو الذي يقوم الأخلاق ، ويربي النفـوس ويهذبهـــا ، ويصلح الفاسد منها .

وقد نشطت أروبا للرجوع إلى الدين نشاطـا لم يسبق له مثيل ، فسنت القوانين لحمايته والدفاع عن تقاليده . فأصدرت ألمانيا قانونا يعاقب كل من ينشر أو يكتب ضد الدين المسيحي . وقد دفعها إلى ذلك ما تخشاه من الحملة الشيوعية التي تريد أن تقضي عن المسيحية . وهاهي بلاد السويد التي تعتبر من أرقى بلاد العالم مدنية لانتشار التعليم فيها انتشارا واسعا ، حتى أصبح لا يوجد فيها أمي واحد ، قد أصدرت قانونا يعاقب كل من يغير دينه ، أو يدعو إلى ديـن آخر غير الدين المسيحي . وقد اطلعت في هذه المدة الأخيرة ، في بعض المجلات ، أن اعتنق أحد علمائها ، وهو أستاذ في جامعة أبسالا ، الدين الإسلامي فكان جزاءه الطرد من وظيفته ، وحرمانه من التمتع بالحقوق السياسيـة والمدنيـة .
وأضرب لكم أيها الشباب مثلين صغيرين ، لتدركوا مقدار عنـــاية الدولـة الأميركية بالدين ، ومحافظتها عليه . فقد حدث في المدة الأخيرة أن أستـاذا في المدرسة العليا ، بولاية تنسي ، ألقى محاضرة عن مذهب داروين ونظريتـه في الدين ، لأنه ملحد فهاج الرأي العام وحكم على الأستاذ بالطرد من المدرسة وقد أعلن وزير المعارف في اجتماع عقده في المدة الأخيرة ، أن غرض حكومته من زيادة الحصص الدينية في المدارس ، هو حماية الدين والدفـاع عن التقـاليد المسيحية . أمـــا في أنجلترا فيكفي أن أقول لكم أن كل ملك يتوج يقسم يوم تتويجه على حماية مذهب الدولة الرسمي وهو البر وتستنتية .

فأنتم قد سمعتم أيها الشبان ، كيف تعنى أمم أروبا بدينهـــا ، وتحافظ على حمايته في الكنائس ، وفي البيوت ، و كيف أن فئة من بعض شبابنا الملحدين يهجرون دينهم ، ويعرضون عنه ، بل تراهم يحرضون غيرهم على كراهتـــه

وبعده ، مع أن دين الإسلام هو خير الأديان الصالح لكل قوم ولكل زمان . وقد قال الله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » .

فحافظوا أيها الشبان على دينكم ، فأنتم أزهار الوطن ورياحين الأمة ورجال الغد . وإذا صلحتم صلحت الأمة معكم . وإذا شقيتم – لا قدر الله – شقيت الأمة بكم . وفقكم الله وهداكم .

المجتمع وواجب الشباب نحوه

ما أسعد الشاب الذي يعرف واجبه نحو المجتمع فيؤديه على وجهه الأكمل ، من غير كسل أو إبطاء أو تقاعس أو إهمال ، لأن الواجب شعلة من النور ينبعث نورها فيضيء للأنام ما تعثر وينير له من السبيل المظلم ما اكفهر ، بل هو الوازع الإلهي في الإنسان ، والمصباح الذي يستضاء به على ممر الليالي والأيام ، جعله الله نورا يهتدى به مثلما تجعل المنائر على شطوط البحار بشق نورها الساطع تلك الظلمات فتهتدي به السفن إلى ميناء السلام .

من أجل ذلك ، وجب على كل شاب أن يبين لأخيه الشاب ما هو واجب له ، وما هو واجب عليه ، رضي أم سخط ، وغضب أم أحب . وأن يعرفه أن حياته مستمدة من حياة أمته ، وأنه جزء لا يتجزأ منها وأن لا سعادة للفرد ما لم يسعد المجتمع . والواجبات تتعدد وتتنوع حسب الأفراد والزمان والمكان ، إلا أنها ستظل تحت راية واحدة شعارها : المنفعة العامة مقدمة على المنفعة الخاصة ، وسعادة المجموع مقدمة على سعادة الفرد . وإن هذه الواجبات تسير في طريق خاص هو العمل الصالح . فكل شاب أدى واجبه كاملا غير منقوص ، فقد استحق كل تقدير وثناء ، وكل فخر وولاء ، ورفع أمته إلى أوج المعالي ومعارج الارتقاء . وكل شاب نبذ العمل وتهاون في أداء واجبه ، فقد ترك ثغرة في بنيان أمته يطعنها فيه العدو ويزعزع من صلابة هذا البنيان .

أول جهاد يلقاه الشباب نحو المجتمع ، هو تهذيب أنفسهم ، ومقاومة شهواتهم ، وضبط عواطفهم . فإذا استطاع الشاب أن يخضع شهواته ، أمكنه أن يخضع له كل شيء . وإذا ملكته شهواته ، ملكه كل شيء . ولا يكون الشاب حرا لأمته إذا كان عبدا لشهواته .

وإذا كان لكل شيء في هذه الحياة سبب في السعادة والشقـــاء ، فسبب شقاء المجتمع هو تقصير أفراده ، أو جماعته في أداء الواجبـــات . وإن المجتمع كطائرة تجوب الأقطار والأمصار ، لا حصر لادواتها ، ولا منتهى لعدد عمالها ، ولن تطير الطائرة حتى يتفقدها عمالها . فإذا تعطل منها شيء ثم ازداد التعطل يوما بعد يوم ، لم يلبث أن ينتقل التعطيل إلى كثير من أدوات الطـائرة . فإذا دورتها خائرة ، ثم تصبح بعد ذلك جثة هامدة . فكذلك إذا سرت في الأفراد أمراض النكوص ، والقعود ، والتثبيط عن أداء الواجب ، فقد سرت في الأمة سارية الفساد ، وأذنت شمس حياتها بمغيب لا عود معه ، وأهملت في زوايـــا الإهمال والنسيان ، وأصبحت هشيما تذروه الرياح ، ولقمة سائغة تلوكها ألسنة المجدين المخلصين .

لن يرقى الشبـاب بـالمجتمع إلى ذروة المجد ، إلا إذا أنكروا أنفسهم في في سبيل أداء واجباتهم ، وكان شعارهم : « اعط ولا تأخذ » ، أي اعط وقتك وجهدك وعقلك ونفسك للعمل في رقي أمتك ولا تنتظر على ذلك أجـراً وإن الذي يتولى مكافأتك هو الله وحده عز وجل .

لا تتمايز الامم ، وتتفاوت بعدد أفرادها ومساحة أرضها ، وإنما تتبـاين بقوة شباب علمائها العاملين المصلحين .

إن الوطنية الصحيحة ، لا تقوم إلا على الفضيلـة ، ولا تحيـــا إلا بالعمل الصالح لخير المجموع . فعلى الشاب أن يؤدب نفسه ، ويطهرها بالخلق الفاضل ، ويكملها بالعلم والمعرفـة ، حتى تكون نفسا شريفة ، سباقـــة إلى المكارم ، ميالة للخير ، بعيدة عن كل سوء وشر .

ولما كانت الفضائل أساس الوطنية الصحيحة التي على منوالهـا تنسج محبـة الأوطان ، كان قلب الرجل العظيم في أشد الحاجـات لأن يتحلى بهـــا حتى لا تنفر منه قلوب مواطنيه إذا حلت الرذيلة محل أحدهما .

وهذه الفضائل كثيرة ، نذكر منهـا : الإرادة . والاعتمـاد على النفس . والصدق . والأمانة . والسعي في الخير . وقوة الخطابـة مع الصراحة التامـة .

وليحذر الشباب أن يدعوا إلى غير ما يفعلون ، بل يجب أن يكون البرهـــان قائما على صحة مــا يدعون إليه من عمل ، وإلا اتهموا في نصيحتهم ، وطعن في وطنيتهم . وقد قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، رحمه الله : « إذا كان السعي في خدمة الوطن من أول وجوه الخير ، فكذلك يجب على الرجل العظيم أن يكون بارا بأهله وعشيرته ، مؤلفـــا بين قلوبهم ، خاطبا ود جامدهم ، شفيقا بالفقراء واليتامى ، داعيا الموسرين الإنفاق في سبيل تعليمهم ، وتثقيف عقولهم ، وتذليل مرافق الحياة أمامهم » .

إن منار القوة في نفوس الشباب ، قوة إيمـــانهم ، وثقتهم بالله عز وجل . فهو وحده القادر على كل شيء . وهو وحده الذي بيده أزمة الأمور ، وإليـه يرجع الأمر كله . فيجب أن تكون الصلة متينـة بين الشبــاب وربه . فإذا انقطعت هذه الصلة ، حيل بين الشاب والنجاح ، وكان من الهالكين . وصلـة الشباب بربه تتوثق وتتوطد باتباع ما أمر به الله تعالى ، والانتهاء عما نهى عنه. قال تعالى : « **فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** » .

فكل عمل لا يقوم على عقيدة سليمة ، وإيمان صحيح ، يكون قريب العطب سريع الزوال . فما أحوج العبد أن يجاهد نفسه ، ويحملها على طاعة الله ، وأداء فرائضه ، ويكفها عن شهواتها ، ويصرفها عن ملذاتها التي هي في الحقيقة سموم قتالة ، وأمراض فتــاكة . فكم جرت على أصحابها من العـــار ، والفضيحة والخزي في الدنيا « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

فالله لا يكتفي منا بالإيمان المجرد عن العمل الصالح، بل أمرنا ونهانـــا وطالبنا بإقامة البراهين والأدلة على قوة إيماننا ورسوخ قدمنا فيه . قال الله عز وجل : « **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** » وقال : « **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم** » .

من هذا نعلم أنه لابد من جهاد النفس ، وهو الجهاد الأكبر . فقد ثبت عن

رسول الله ﷺ أنه قال ، وقد رجع من إحدى غزواته : « رجعنـــا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » . يعني جهاد النفس الذي يتطلب إعداد العدة : من قوة العزيمة ، وتنبيه العقل ، وإيقاظ القلب لصد مـــا يهجم عليه من خواطر السوء ، حتى لا يدع لهذا العدو ، الرابض في القلوب الكامن في النفوس ، بابـا إلا رده ، ولا هجوما إلا صده .

نعم هذا هو الجهاد الأكبر الذي حث عليه المربي الأكبر والقـائد الأعظم لنا يعلم ، صلوات الله وسلامه عليـه ، أن هناك فرقـــا بين عدو يراك وتراه ، ويخشاك وتخشاه ، تصول عليه إذا صال ، وتطعنه بالسيف ، وترميه بالنبال ، وسواء قهرته أم قهرك ، فأنت البالغ ظفرك ، المنتصر بقتله أو قتلك ، المحمود لك عملك ، الفائز بالحيـاة الأبديـة في مقعد صدق عند مليك مقتدر وأين ذلك من جهادك لعدو لا تراه ولا يراك ، وتخشاه ولا يخشاك ، يهجم عليك بخيلـه ورجله حقا إنه الجهاد الأكبر . ومن جـاهد نفسه وهواه ، والتزم حدود الله ، أعانه مولاه وهداه ، وحفظه من الهلاك ، وأعطاه ما يتمناه . وصدق الله العظيم الذي يقول : **« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين »** .
وإنها لآية باهرة يشع ضوء جلالهـا على قلب من خضع لعظمـة التنزيل ، ويشع نور جمالها على من يخشع لهيبة الترتيل . ورحم الله الإمام البصيري الذي يقول :

وخالف النفس والشيطان واعصهما * وإن هما محضاك النصح فاتهم

ماذا أقول للشباب الإسلامي الذي تخطى أسوار الحدود القرآنية ، وألقى بنفسه في تيار المدنية الغربيـة ، وعشق التخنث والخلاعـــة ، والجري وراء النسوة الساقطات . كأن ذلك أصبح شارة المدنيـة ، وعنوانا على الحضارة ، والتحرر مما يسمونه أغلال الرجعية والجمود . فضرب بذلك الرقم القيـــاسي في اللهو والمجون . وأصبح لا يلوي إلا على تبرمه من الدين الذي هو كرامته وشرفه .

فجدير بالشباب العاقل ، أن يعرف واجبه ، والغاية التي خلق من أجلها . فالله لم يخلقه لهوا ولا لعبـا . ولم يفرض عليه من الاعتقادات إلا مـــا يتفق والفطرة السليمة ، والعقل الصحيح . ولم يكلفه في عبادته إلا بقدر مـا يحتمل

وبقدر ما يقربه من ربه . كما شرع له اتباع أسباب الخير بما بينه له من مزايا الصدق ، والأمانة ، والبر بالناس ، والعفو عند المقدرة ، والتعاون على البر والتقوى ، والتواصي بالصبر . كما أمره باحترام الأعراض ، والمحافظة على أموال الناس ، والضرب على أيدي المفسدين الذين يعيثون في الأرض فسادا ، حتى يقف المعتدي عند حده ، فتزول الجرائم . ويعيش الناس في أمن وسلام وراحة بال . قال تعالى : **« والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم »** .

إن فلاح الإنسان ، في هذه الدنيا ، منوط بطهارة أخلاقه ، وصلاح أعماله . فالأخلاق في الشباب هي العنصر الجوهري في مادة حياته . عنها يصدر وإليها يرد . وحولها يحوم وصوبها يقصد ، لأنه متى استشعر الشباب الكرامة لنفسه ولشعبه ، وأيقن أن هذه الكرامة أمانة في عنقه لا يحل له التفريط فيها ، ومتى احتقر المادة فلم يحكمها في ضميره . ولا في عمله ، ولا في حياته . ومتى استخف بالحياة في سبيل الشرف ، أتته الحياة صاغرة وأدرك برفعته وعزته أضعاف ما كان يفوته بضعفه وذلته . إنا نعيش لا في دنيانا وحدنا ، ولكن في دنيا الناس جميعا . وليست حياتنا سرا ينطوي في أنفسنا بما له وما عليه . ولكن حياتنا مكشوفة للأعين تحت المجهر ، والآذان تحت المذياع . فالأمم ترمقنا وتتسمع علينا وتتحسس منا مواطن الضعف لتنفذ إلينا بأطماعها من خلال الشهوات والنزعات .

فما أحرى كل شاب تونسي أن يكون في نفسه كالجندي القائم على حراسة ثغر . فإنه . إن ونى أو تلهى أو تشاغل . اقتحم عليه من مأمنه فكان من المدبرين .

وما أحراه أن يصبر ، ويثابر على أداء واجبه في خدمة المجتمع . فالصبر رأس الفضائل . والمثابرة عدة النجاح ، وسبيل الفلاح . وإن كل المشاريع الحيوية في حاجة قصوى لأن يتصف القائمون بهاتين الصفتين فالصبر على المكاره ، والصبر على مغالبة الصعاب ، كل هذا لا بد منه لكل من يتصدى لخدمة المجتمع وإلا خاب عمله ، وفشل سعيه .

والمثابرة على العمل ، والمواظبة على إتمامه ، مهما لاقى الإنسان من عنت وشدة ، ومهما كانت التضحية من الوقت والمال ، لا بد منها لإتمام المشاريع النافعة وتشييد أركان المجتمع في ميدان التقدم والرقي .

لا يمتاز الغربي على الشاب التونسي بقوة الذكاء ، ولا بصلابة العود ، ولا بمواهب وراثية . وقد يكون التونسي له من هذه المواهب زيادة عما لغيره ، ولكن الصفتين البارزتين المميزتين للغربي على التونسي ، هما الصبر والمثابرة . فبهما فاز في ميدان العلوم. وبهما أفلحت التجارة والصناعة ، وتقدمت الزراعة . وبهما ملكوا ناصية العالم؛ فأعدوا القوة في الارض والسماء، وفي طيات الهواء والماء. حتى ضاق البر والبحر بأعمالهم ومخترعاتهم . وبالجملة إنهم لم يدعوا شاردة ولا واردة إلا استنبطوا منها علما ؛ فأحدثوا الكهرباء من الماء ، وسخروا الهواء بين الأرجاء .

أيها الشبان النجباء

إن الأمة التونسية في حاجة إلى شبان يخرجون إلى ميادين الكفاح والعمل ، مسلحين بالفضيلة ، مزودين بالمكارم ، وهم ذوو إرادة قوية وعزيمة ماضية ، معتمدين بعد الله على أنفسهم . يشعرون الناس بوجودهم أينما كانوا وحيثما حلوا . فالأرض لم تضق بمن يريد الحياة . وفي ميدان المجد متسع للجميع ، لا كمن يجعلون منتهى آمالهم وقصارى غايتهم الاندماج في سلك موظفي الحكومة .

إني خلقت لأحيا ... حتى يشاء القضاء
ولي فؤاد لبيب ... يجول حيث يشاء
إن ضاقت الأرض دوني ... فما تضيق السماء

أيها الشباب الناهض

إن الشعب التونسي يجتاز الآن مرحلة من أدق مراحل حياته ، تصل بين دورين مختلفين : دور حالك انقضى ، ودور مشرق بدأ . فالدور المظلم الذي ساده في عهده الأخير : عهد الذل والاستعمار ، قد ذهب إلى غير رجعة. وها قد لاحت تباشير الفجر في أفقه . معلنة قدوم الصباح المشرق . وما تعاقب

الأدوار على الشعوب والأفراد إلا كتعاقب الليل والنهار . فحيوا معي هذه النهضة المباركة الحاملة لبشائر النور والخير والإصلاح ، والرقي والفلاح : واطرحوا اليأس جانبا على أنفسكم . متعاونين مستمدين العون والقوة من الله: فأنتم لستم بأقل من الغربيين استعدادا للسؤدد والمجد . وأنتم الوارثون لأعظم مدنية في الأرض استضاء بنورها من أدركوا معنى الحياة الصحيحة : حياة الجد والعمل ، حياة المنافسة والرفعة ، حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من مدنية زاهرة : وحضارة باهرة .

فهل من راغب في العبادة ينال بها الفوز والسعادة ؟ فالجنة لا يدخلها المرء بدون عمل : والتقدم والرقي لا يتأتى باللهو والنوم والكسل . ورحم الله صفي الدين إذ يقول :

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا * ولا ينال العلا من قدم الحذرا

ومن أراد العلا عفوا بلا تعب * مضى ولم يقض من إدراكها وطرا

فيا شباب تونس إلى الأمام : فأنتم جند الأمة . وخليق بالجنود أن يكونوا شجعانا يحملون قلوب الرجال . فكونوا أولئك الجنود ، ودعوا التكاسل والركود . وخلوا التجمل للغواني . وتحلوا بالمجد والعوالي . وخذوا من الغربيين فضائلهم ، ودعوا لهم رذائلهم . ودونكم الاختراع والابتكار في العلوم والصناعة ، لا في الأزياء والخلاعة . واسهروا على تقدمكم ، وجدوا في تحصيل دروسكم ، لتحققوا للشعب ما يرجوه منكم ويؤمله فيكم .

فالبلاد التي ربتكم تنتظر منكم الخير الكثير . فكونوا عند حسن ظنها بكم كونوا لها أبناء مخلصين تسعد بكم . فالأمة بأبنائها وهم عزها ومجدها : وليكن شعاركم تقوى الله في السر والعلانية . فإن الله مطلع على سرائركم ، ويعلم ما تكنه ضمائركم وهو خير من يتولى جزاءكم : **« ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم »** . وفقكم الله وهداكم . وحفظكم ونجاكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تربيـــة النشء في الإســـلام

في تونس اليوم عنـــاية كبرى بتربية الأطفـــال تربية صالحة جسمياً وعقلياً وخلقيـاً واجتماعياً . وإن نظرة إلى حالة الأطفـــال اليوم ، وحالتهم قبل الاستقلال ، تظهر لنا فرقاً كبيراً بينهم اليوم والأمس . وهذا يدل دلالة واضحة على مقدار عناية دولتنا الرشيدة بالطفل ، وعلى النهضة الشاملة في التربية والتعليم. فنظرة إلى قوة أجسام الأطفـــال وحسن لباسهم ، تدلكم على التحسين الكبير في مستوى المعيشة ، وتغنيكم عن المنـــاقشة في نهضة التعليم عندنا . فالطفل صار لا يعتنى به في المنزل فقط بل يجد هذه العناية في روضة الأطفال وفي المدرسة . كما أنه يجد عطفاً كبيراً وعنـــاية ومعاملة حسنة في حجرة الدراسة وخارجها . فهو متمتع بالحيـــاة يرى السعادة أينما ذهب ، وأصبح يشعر بالراحة والسرور ، ولم يعد يشعر بذلك الحمل الثقيل الذي كان يثقل كاهله في العهد البـــائد الذي كان الضرب والتعذيب فيه من أعظم وسائل التربية . والقول المشهور الذي كان يقوله الأب للمعلم « لك اللحم ولي العظم » . أمـــا اليوم فقد تغيرت طرق التربيـــة ، وأصبح الطفل شريكا لمربيه في تربيته وتربية عقله . وهذا يفرحنـــا كثيراً لأنه ليس شيء أحب للإنسان في حياته من أن يرى ولده أرفع النـــاس شأنا وأوفرهم حظا ونصيباً ، فيتعاون مع المدرسة ويربيه تربية صالحة ، وبذلك يسعد به في كبره إذ الطفل طـــاهر النفس سليم القلب ، فإذا ما عوده أبـــواه على الأخلاق الطيبة نشأ على الخير محباً لفعله . وإذا رأيا منه ما ينـــافي الأدب جنباه إياه بلين ورفق ليشب عالي النفس .

وينشأ ناشيء الفتيان منا *** على ما كان عوده أبوه

فالاب هو القدوة الحسنة لأبنائه. فالولد إذا أسعده الحظ ونشأ بين أب صالح متدين، وأم صالحة، شاب لا يعرف إلا ما شاهده من والديه من حب للصدق والأمانة، والعفة، فيقتدي بوالديه في عمله. فتراه لا يكذب ولا يسب ولا يدنو من النقائص. وبذلك ينفع نفسه وأسرته ووطنه، بخلاف الابن الذي ينشأ بين أب صالح وأم جاهلة، تراه على النقيض من ذلك. وهذا ما نشكو منه اليوم، حتى أصبح من العسير تقويم أخلاق الشبان المنحرفين الذين نبذوا الأخلاق الفاضلة. وهذا كله يرجع إلى تربية الوالدين؛ فالبيت هو الأساس الأول للتربية والمدرسة تكمل ما بدأه المنزل في هذه الناحية. ودليلي على ذلك تجربتي التي قمت بها عندما كنت عاملاً في الحقل الدراسي، فقد شاهدت أثناء تتبعي لأحوال الأطفال النفسية كثيراً من الحوادث المدرسية التي تدل على نقص التربية عند بعض الأطفال. فمثلا هذان تلميذان يتلقيان العلم في مدرسة واحدة، ويجلسان في حجرة واحدة، وفي مقعد واحد، فترى التلميذ الذي نشأ بين أبوين كريمين يخشى الله لا يشتم ولا يسب، وعلى النقيض من ذلك، ترى التلميذ الآخر يسب ويتشاجر مع أصحابه ويأخذ أمتعتهم ويمزقها ويخرب الأبواب، فإذا نصحته وألقيت عليه درساً في الأخلاق من الآيات المقررة في القرآن الكريم كآية مثلا **« ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار »** وشرحتها له شرحاً كافياً شافياً تراه لا يقلع عن عادته. فإذا ذكرته بالدرس ولماذا لم يعمل به؟ أجابك بكل صراحة إنه لا يقدر أن يكف عن هذه العادة اقتداء بوالديه.

فهذا الولد لا تنفع فيه التربية، لأ الأعمال السيئة التي يشاهدها في المنزل باستمرار يحدث له منها بلبلة وزلزلة خلقية لا يمكن علاجها. ومن شب على شيء شاب عليه. وصدق رسول ﷺ الذي يقول: **« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »**. ومعنى الحديث، أن الطفل ينشأ

على فطرة سليمة ونفس صافية تتأثر بالخير ، كما تتأثر بالشر وتنطبع فيها الأخلاق الحسنة كما تنطبع فيها الأخلاق السيئة. فإذا وجد في هذا الوقت من يحكم تربيته، ويحسن تأديبه ويعلمه الدين وآدابه وقواعده واركانه ، ويغرس في قلبه إجلال الأنبياء وإكبار العظماء ، ويعرفه تاريخ أبطال الإسلام ، وأنواع الحلال والحرام ، والإخلاص والأمانة ، والصدق والشجاعة ، والاعتماد على النفس والتوكل على الله؛ شب حسن الأخلاق طيب النفس فيحيا حياة طيبة ويكون سعيداً في نفسه ونافعاً لوالديه وأمته.

أما إذا أهمله إهمال البهائم وتركه يرتع في مواطن التهلكة بدون مراقبة، شب على الأخلاق الفاسدة وكان جرثومة فساد تنخر في عظام الأمة وتهدد كيانها وتنذرها بالخراب والدمار ، وكان شقاء على نفسه ووالديه وبلاده والناس أجمعين.

لهذا أمرنا الله بالاعتناء بشأن الأولاد ووقايتهم من الشر كوقاية أنفسنا ، فهم أمانة في أيدينا قال تعالى: **« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً »**. قال ابن عباس رضي الله عنه : يعني اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصي الله ، ومروا أولادكم بالصلاة فذلك وقاية لكم ولهم من النار. فعلموا أولادكم كيفية الصلاة، وحثوهم على فعلها، وحذروهم عاقبة تركها كي تستنير قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب. وقال صلوات الله عليه « مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع ». فمن هذا الحديث نعلم وجوب تربية النشء تربية تجعله من المحافظين على إقامة الصلاة ، وتمكين عمود الدين من قلوبهم حتى لا تركن نفوسهم إلى منكر أو فساد. بعد أن تأصل فيها أساس الخير ثم يرشدنا الحديث الشريف إلى تأديب الأولاد وزجرهم بالضرب صيانة لهم ورفقاً بهم وشفقة عليهم. إذ الطفل لين العريكة سهل الانقياد قبل أن يشتد خطره ويستعصي أمره. لكن لا يضرب ضرباً مبرحاً. بل ضرباً مع الرفق به، كما دل عليه صحيح الأخبار من جانب آخر ، لأن الضرب ضرورة لا يلجأ إليها إلا عند الضرورة. وذلك واضح في كل من تبصر فيما أمر به الحديث من

أمر الأولاد بالصلاة التي هي عماد الدين منذ السنة السابعة. فانظروا كيف أنكر النبي، ﷺ، في الحديث الصحيح على من يسارع إلى ضرب امرأته فقال: «يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد». وفي حديث البخاري: «إن الله تعالى يحب الرفق في الأمر كله». لا سيما وإنه قد ثبت أن شديد الضرب ليس وسيلة صالحة لتهذيب النفوس وتأليف القلوب. وأما الأمر بالتفريق بين الأولاد في المضاجع فلا تخفى على اللبيب حكمته وأثره في نفوس النشء. فلتكن قدوتنا في التربية المربي الأعظم: رسول الله ﷺ. فقد أخذ الحسن بن علي، رضي الله عنهما، تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال له الرسول: «كخ، كخ» ارم بها، أما علمت انا لا نأكل الصدقة. وكان سيدنا الحسن صبياً، ولكن الرسول نهاه ليطهره ويربيه على مكارم الأخلاق حتى يشب عليها. وكانوا يربونهم على الرفق والشفقة، ويزرعون في قلوبهم الرحمة بما كانوا يعاملونهم به من الحنان، وبما كانوا يتوددون إليهم ويتقربون إلى قلوبهم حتى في صلاتهم، لإيناسهم وإبعاد الوحشة والرهبة عن قلوبهم، إذ كلما تقرب الكبير من نفس الصغير تقبل تعليمه ورسخ في قلب ولده دون أن ينفر طبعه من أبيه أو يشعر بوهن الصلة والرابطة بينه وبين مربيه. فقد ورد عن أبي قتادة، رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بالناس وهو حامل إمامة بنت زينب بنت رسول الله، فإذا سجد وضعها. وإذا قام حملها. وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قبل الرسول ﷺ الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا. فنظر إليه الرسول ثم قال: من لا يرحم لا يرحم. ومما يروى في هذا المعنى أن أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: رأيت النبي على المنبر والحسن معه وهو يقبل عليه مرة وعلى الناس مرة. ثم قال: إن ابني هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. فهذا الحديث زيادة على ما فيه من دلائل النبوة تضمن نوعاً ضرورياً من أصول التربية، ألا وهو إثارة همة الطفل، وتوجيه نظره نحو الشرف والسؤدد إذا لاحت عليه أمارات النجابة. وهو ما يسميه اليوم علماء التربية بالإيحاء. ولذلك كان هذا

الحديث الشريف باعثاً لنفس الحسن ، رضي الله عنه ، على أن آثر المصلحة العامة على ما عداها ؛ فخلع نفسه من الخلافة حقناً للدمــــاء ، وإخماداً للفتنة ، وجمعاً لصفوف المسلمين تحت لواء واحد . وشبيه بذلك الإيحاء النفسـي ما كانوا يفعلونه من السلام على الصبيان ليشعروهم بأن لهم قيمة ومكانة في الحياة ، ودفعاً لهم على أن يدرجوا في مدارج الرجال . مر أنس ، رضي الله عنه ، على صبيان فسلم عليهم وقال : كان رسول الله ﷺ يفعل مثل ذلك . رواه الشيخان . إلى هنا ننهي القول وسنتابع هذا الموضوع في درسنا المقبل بحول الله .

تربيـــة النشىء في الإســلام

حدثناكم في درسنا السابق أن تربية الأولاد في صغرهم من أهم المسائل التي يجب على الآبـاء أن ينتبهوا لها . فأولادنا هم بهجة نفوسنا ، وفلذة أكبادنا ، وريحانة قلوبنـا . وهم رجال الغد وأمهـات المستقبل . فيجب العناية بهم والاهتمام بتربيتهم وتأديبهم ، لأنهم خلفنا ووارثوا ألقابنا وشرفنـا يذودون عن أعراضنـا ويدافعون عن أوطاننـا . فإن نحن هذبناهم وأدبناهم كانوا خير من يخلفنـا و إن نحن أهملناهم شبوا عـارين من الفضيلة ، مرتدين بلباس الشر ، عابثين بالآداب والفضائل ، ساخرين من الدين والتديـن ، وكانوا خطرا على الوطن وشرا مستطيرا علينا وعلى حيـاة المجتمـع .

إن نحن اهملناهم وتركناهم وشأنهم ، يذهبون كما يشاؤون ويلعبون حيثما يريدون ويسيرون كيفما شاء الهوى واينما سار الشيطان كنـا بعملنا هذا قد مهدنا لهم طريق الشر وسلمناهم بأيدينـا الى شياطين الإنس يفسدون اخلاقهم ويبدلون دينهم ويدفعون بهم الى الفساد والزندقة والالحاد ، وهو تيار قوي شديد نخشى منه على الشيوخ والشباب فما بالكم بالصغار الناشئين .

إن هؤلاء الصغار أمانة لدينا ونعمة من الله سيقت إلينا . فيجب أن نحفظ هذه الامانة ونشكر الله على تلك النعمة . وفي الحديث الثابت عن المعصوم ﷺ « إن لولدك عليك حقا » كيف لا والوالدون هم قواد أبنائهم وساستهم . وهم بما يهيئونهم له في أساس نشأتهم : إمـا أن يوجهوهم من بدء أمرهم إلى سبيل السعادة والنور والنجاة ، وإما أن يطرحوهم في هاوية الضلال والخسران . وما بلغت الأمة الإسلامية ، في سالف عهدها ، شأوا بعيدا من الرفعة والكمـال ،

إلا لما كان عليه أبناؤنا من قوة العزيمة والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وصلة الأقارب والأمانة والصدق وحسن المعاملة في الأخذ والعطاء والبيع والشراء والقيام بحقوق الله ومراقبته إلى أمثال ذلك من فضائل الأخلاق. فيجب علينا أن نحذو حذوهم ونتبع طريقهم ؛ فنغرس في نفوس أبنائنا هذه الخصال الحميدة كي نستعيد مجدنا. وليكن كل منا خير مثل في التمسك بالفضيلة والابتعاد عن الرذيلة أمام أولاده حتى يتعودوا على حب الخير من صغرهم ، إذ الطفل طاهر النفس بفطرته سليم القلب بطبيعته فإذا ما عوده أبواه على الأخلاق الفاضلة نشأ على الخير محبا لفعله وإذا ما رأيا منه ما ينافي الأدب والمروءة جنباه إياه بلين ورفق ليشب عالي النفس مرتفعا عن كل حقير.

ومن النصائح الغوالي ، في وجوب تربية الأولاد في الإسلام على ثبات اليقين في الله وإخلاص الإيمان والتوحيد لله ، وإعداد ذلك الغصن الرطيب لتلقي الشدائد في حياته المستقبلة بالصبر والثبات وعدم اليأس ؛ ما رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي ﷺ يوما فقال : «يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله. وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف». قل لي بربك كيف تكون حال نشء يلقن مثل هذه المبادىء منذ نعومة أظفاره حتى تختلط بلحمه ودمه ؟ هل تلين له في الحق قناة أو تخور له عزيمة أو يخاف في الله لومة لائم أو يأسى في حياته على ما قد يفوته من حطام الدنيا ؟ هكذا يكون التعليم لمن أراد خيرا بذريته وبحث عن المنهج النافع لتربية أولاده.

وإن من أصول التربية ما رواه أبو داود عن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال : دعتني أمي يوما ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت : «ها تعال أعطك. فقال لها رسول الله : ما أردت أن تعطيه ؟ قالت : أردت أن أعطه

تمرا. فقال لها الرسول : أما إنك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كذبة » أليس في ذلك أرقى الطرق في غرس الصدق في نفس الطفل ، وإبعـاده عن المكر و المخاتلة أيما إبعـاد ، وفيه السمو بأخلاقه وهمته إلى ذروة المجـد . فإن الصدق دليل احترام النفس وشرفها ، والكذب دليل حقارة النفس وامتهانها ، قـالت عائشة رضي الله عنها : « ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب » . ألا فليتق الله أولئك الذين يكذبون على أولادهم في الجـد واللهـو ، ويظهرون سرورا حينما يجدون الطفل على بساطته قد بدأ يمكر بالكذب ، فتتلوث تلك الفطرة السليمة بشوائب سوء التربية . فـالنبي ﷺ لم يقر تلك الصحـابية على أن تستقدم ابنها الصغير بقولها له : تعال أعطك أي خذ مني شيئا حلوا مثلا ، ثم لا تبر بما قالت ولا تفي بما وعدت . وشبيه بهـذا من يروعون أبنـاءهم بالخيالات فيزرعون في نفوسهم الرعب والجبن والأوهام الكاذبة . وقد ثبت أن النبي ﷺ قال : « لا يحل لمسلم أن يروع مسلما » .

هذا ولقد جعل الإسلام العدل والمساواة من أصول تربية النشء حتى يشب الأولاد ولا حقد ولا ضغينة . ولكيلا يكون في نفوسهم ميل ولو قليل للأثرة وهضم الحقوق ، جاء في حديث الشيخين عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به النبي ﷺ فقـال : يـا رسول الله ، إني أعطيت ابني هذا بعض الموهبة من مالي . فقال له رسول الله ﷺ : يـا بشير ألك ولد سوى هذا ؟ قال : نعم . فقال : أكلهم وهبت له مثل هذا ؟ قال : لا . قـال : فلا تشهدني إذن فإني لا أشهد على جور .

فاعتبروا يا أولي الأبصار ، وخبروني أيها المسلمون إذا اجتمع علماء أكبر الجامعات ، الذين أفنوا أعمارا في تحصيل الدرس والبحث عن المقدمات والنتائج ، أيستطيعون أن يأتوا من النتائج العلمية والعملية بخير من هذا الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وهو ما تلقى علما على أحد من أبناء آدم قط ؟ سبحـانك اللهم لقد علمته ما لم يكن يعلم ، وكان فضلك عليه عظيما . وخلاصة القول : إن من أشفق على أولاده أحسن تأديبهم ، وفهم السر المكنون في كتـاب الله وسنة

رسوله من حقيقة الدعوة إلى إصلاح شأن الأهل والأولاد في مثل قوله تعالى : **« رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء »** . وقوله : **« والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين »** . وقوله : **« والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما »** . فهذا القول الإلهي يجب أن يتلقاه أهل الإيمان بالقبول والعمل الأكيد لتحقيقه حتى يكون قولا فصلا . ولا شك في أن كل مؤمن يطلب من الله العلي القدير أن يرزقه بذرية صالحة تدعو له بخير وتكون له رحمة وقرة عين تعز بالإسلام ويعز الإسلام بها كما جاء في قوله تعالى حاكيا عن شأن النسل الصالح الذي قام أهله بحسن تأديبه : **«حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي »** وفي قوله : **« وأصلح لي في ذريتي »** هو في أن يكون للمؤمن ذرية صالحة كما كان هو ذرية صالحة من سلف صالح .

ولكننا يا للأسف أضعنا الأمانة في هذه الأيام ، وتركنا أولادنا وبناتنا في جهالة من دينهم ، فركب الشيطان رؤوسهم وانقادوا إلى هوة الهلاك ، وصارت البنت غادية رائحة في الطرقات من غير أدب ولا احتشام ؛ عارية الصدر حاسرة عن الرأس كاشفة الذراعين والفخذين ، على وجهها من كل أنواع المغريات تمشي في الطريق تتلوى وتتمايل كأن بها ما من جنون أو كأنها سكرى وما هي بسكرى ولكن غواية الشيطان بلغت منها وأثرت فيها . إن فتاة كهذه لجديرة بأن يسخر منها الناس والمسؤولية عليها إذا اتبعها بعض الأغرار من الشبان ، يسمعها سخيف الأقوال ويغري بها سواه من سفهاء الشوارع ومرضى الأخلاق . إن من الواجب على الفتيات والسيدات أن يلتزمن الحشمة والوقار والكمال ، في الثياب وفي المشي ، إن شئن أن يكن مصونات خارج بيوتهن ومحفوظات من عبث العابثين ، كما كانت أمهات المؤمنين بعد أن نزل قوله تعالى فيهن : **«يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين**

يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » . ما إن طلبت إلى الفتيات أن يتمسكن بالفضيلة ويعملن ما فيه احترامهن فلا أترك الرجال من المسؤولية الملقاة على عواتقهم من أجل النساء . فقد قال تعالى : **« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم »** .

إن بعضا من الرجال قد قلت غيرتهم ورضوا بخلاعة النساء وتبرجهن لأنهم حسبوا أن المدنية لا تأتي إلا من هذا الطريق ؛ طريق الإباحة الممقوتة . ولو أنصفوا الله وأنصفوا الناس وأنصفوا أنفسهم ؛ ففكروا ولو قليلا في نتائج هذه الحال ، لعرفوا أنهم خاطئون وأنهم مجازفون . سبحان الله كيف يقبل الرجل الشريف أن يرى أخته أو زوجته أو ابنته تسير في الطرقات مكشوفة الصدر عارية الفخذين عليها ثياب رقيقة شفافة كأنها من نسيج العنكبوت بدعوى « الموضة» والحرية الشخصية . ونحن لو احترمنا كل حرية شخصية لكان لنا أن نترك الفاسق يفسق جهارا على قارعة الطريق ، والسارق يسرق ما يشاء ، والقاتل يقتل ما يشاء ، لأن لهم حرية شخصية وهكذا .

وفي نظري أن الرجل شريك المرأة في هذا الجرم . وهو لا يخلو من المسؤولية الكبرى والتبعة العظمى . فهو الذي فتح لها باب الشر ولم يقل لها إن لكل أمة مقومات وعادات إن هي خرجت عليها كانت عرضة للانحطاط والقيل والقال . وإن الإسلام دين الطهر ودين الاستقامة ، ومن الواجب على أهله المتدينين به أن يكونوا عند ما أمر وعند ما نهى . إنالبيت نواة المدنية ، وهو لا يكون كذلك إلا إذا وجدت به المرأة الفاضلة لأن المرأة الفاضلة روح الاجتماع فأين هي ؟ لقد نظم أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي قصيدة طويلة امتدح فيها نساء هذا العصر وأثنى على مروءتهن ثناء جزيلا ولكنني وأيم الحق أعلم أنه كتبها في حق أولات العلم والفضل والعفة والشرف والنزاهة لا في حق المتبرجات المتهتكات ، يدل على ذلك بعض أبيات قصيدته الغراء :

قم حي هذه النيرات	حي النساء الخيرات
واخفض جبينك هيبة	للخرد المتخفرات
زين المفاخر والحجا	ل وزين محراب الصلاة
هذا رسول الله لم	ينقص حقوق المؤمنات

العلم كان شريعة لنسائه المتعففات

كانت سكينة تملأ الدنيا وتهزأ بالرواة

روت الحديث وفسرت آي الكتاب البينات

وحضارة الإسلام تنطق عن مكان المسلمات

وفي الختام أرجو صلاح الحال وبلوغ الآمال .

التربية النظامية

خلق الله الكون بنظام كامل . فإذا تأملنا في سير الشمس والقمر والكواكب والنجوم وفي اتجاه الرياح ونزول الأمطار وفيضان الأنهار وغيرها اها جميعاً خاضعة لنظام محكم ذلك تدبير العزيز الحكيم : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » .

وخلق الله الإنسان في أحسن تقويم فأنتم ترون ذلك النظام العجيب التي تؤدي به الأعضاء وظائفها بحيث إذا اختل عضو تداعى له بقية الأعضاء . كما جعل الله للنبات والحيوان وكل كائن حي نظاماً ثابتاً من حيث الخلق والتكوين والنمو والفناء . وكان لهذا النظام الرائع الدقيق في جميع الكائنات والمخلوقات أثره الفعال في الاهتداء إلى الخالق سبحانه وتعالى جلت قدرته وتعالت كلمته .

فالنظام هو الأثر المترتب على مجموعة الشرائع السماوية والوضعية فضلا عن القواعد العرفية التي يتحتم على الفرد اتباعها ليفوز بحسن علاقته بربه وبأفراد المجتمع الذي يعيش فيه .

وليس النظام مقصوراً على تنظيم علاقات الأفراد بل يتناول تنظيم علاقات الدول بعضها ببعض ولعل إيجاد نظام ثابت لهذه العلاقات هو أكبر المشاكل التي تشغل بال الساسة والمفكرين .

والنظام يقوم على اتباع الفرد حسن الترتيب والتنسيق في حياته الشخصية وفي حياته العائلية وفي علاقته بالمجموع والتزام طبيعة الأمور على بساطتها دون تكلف أو مغالاة .

وهو يشمل كل شيء فيشمل نظام العمل وأوقات الفراغ إما أن يكون بين

الوقت والوقت ، كفترات الراحة التي تعقب كل عمل في الدراسة والتجارة والزراعة والصناعة والوظيفة ، وإما أن تكون أسبوعية ، وإما أن تكون موسمية كالأعياد ، أو سنوية كالإجازات المدرسية والحكومية . والفراغ نعمة لمن تبصر وعرف كيف يستثمره ويستغله فيما يعود عليه وعلى أمته بالخير . وهو فرصة تسنح في العمر فمن لم ينتهزها ندم ولات حين ندامة . فليجعل كل منا من وقت فراغه ساعة يعلم فيها أولاده وأهله فيتلو عليهم آيات الله، وأحاديث رسول الله ، وسيرته وأعماله ، وأعمال السلف الصالح ، وأحكام الدين ، كل على قدر علمه واستطاعته، وساعة يحضر فيها المجتمعات لاستماع المحاضرات الدينية والأخلاقية والأدبية والاقتصادية ، وساعة يجتمع فيها بإخوانه للتعاون على الخير والبر : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

فكل يوم يمضي لا نكسب فيه خيراً ولا نستفيد فيه علماً ولا نقتبس منه نوراً فهو خسارة لا تعوض إلى يوم القيامة . فإن الماضي لا يعود وإذا أمسى المرء لا يدري هل يصبح ، وإذا أصبح لا يدري هل يمسي .

دقات قلب المرء قائلة له ⁂ إن الحياة دقائق وثوان

الحالة الأولى نظام الفرد في بيته

تخيلوا معي شخصين أحدهما يخرج من بيته في ساعة معينة ويعود إليه في ساعة كذلك ، وينام باكراً . ثم يستيقظ فيصلي الصبح في بيته ، أو في المسجد ، ثم يتناول طعامه ثم هو فوق ذلك لا ينسى أوقات المرح والتسلية والرياضة البدنية المنظمة فيرفه عن نفسه ويجدد نشاطه ويذكر الله ثم ينصرف إلى عمله .

والآخر يخرج من بيته تارة في الثامنة وأخرى في العاشرة وينام يوماً في التاسعة ويوماً بعد منتصف الليل ، لا نظام له في مأكل أو تسلية فاليوم كله قد ينقضي في الأكل واللهو واللعب وقد ينقضي من غير أكل ولا لعب بل ولا عمل أيضاً .

تخيلوا معي هذين الشخصين ثم خبروني أيهما يكون أوفر صحة وأسعد حظاً

وأنعم بالاً في جسده ؟ لست في حاجة إلى التدليل على أن الأول قد جعل النظام منه أباً باراً وزوجاً صالحاً ، وفرداً نافعاً لنفسه وللمجتمع الذي يعيش فيه . ولست في حاجة أيضاً إلى التدليل على أن حياة الفوضى التي يعيشها الثاني ذو أسوأ الأثر في صحته وثروته وفيما يجب عليه من الواجبات باعتباره « أباً وزوجاً وفرداً في المجتمع » .

وتخيلوا معي زوجتين إحداهما تعنى بحسن التنظيم في بيتها ، وتقضي أوقات فراغها في مبادىء التربية الصحيحة في أولادها وفي تدبير شؤون بيتها وفي العناية بواجباتها نحو زوجها وأولادها عناية تحقق المصلحة ولا تجعل مجالاً للقصد والمؤاخذة وتجعل لنفسها ميزانية موافقة لحالة زوجها بحيث يكون مصروفها أقل من الإيراد الشهري بمبلغ مناسب تدخره للطوارىء والمفاجآت . وبذلك يكون الحال في اليوم الأخير من الشهر كما في اليوم الأول منه . وتكون في غنى عن الاستدانة التي هي « همّ بالليل وذلّ بالنهار » . إن عملها الجميل هذا يؤدي إلى إسعاد العائلة ورفعة شأنها وتعيش هذه الزوجة العاقلة الفاضلة مع زوجها وأولادها في صفاء وهناء دائمين .

وزوجة أخرى لا تعنى بحسن النظام في تدبير بيتها وشؤون زوجها وتربية أولادها ، فتكون سبباً في دفع زوجها إلى قضاء جل أوقاته خارج المنزل هارباً من البيت فيحرم أولادها من عناية أبيهم ، وفي ذلك كله خسارة عظيمة لا تقدر . وقد يضطر الزوج إلى البحث عن وسائل تسلية أخرى تستنفذ الكثير من صحته وماله وسمعته . وقد لا تنتبه الزوجة إلى هذا المسلك إلا بعد فوات الوقت الذي لا يمكن رده إليها فيحل بها الهم والشقاء وتندم ولات ساعة مندم .

وأظنكم توافقوني على أن النظام لا يتطلب المال الكثير ولا الجهد الكثير . وإنه في استطاعة كل إنسان مهما رقت حالته أن يكون منظماً في ملبسه وبيته وعمله . فكم من شخص ارتدى أفخر الثياب وتزين بأحسن الأزياء ومع ذلك يبدو بصورة لا تسر الناظرين ، بينما نجد غيره قد استطاع بدراهم معدودة أن يظهر بمظهر محترم بفضل حسن التنظيم والتنسيق .

الحالــــة الثانية نظام الفرد في عمله

الان أنتقل بكم من البيت إلى حيث يعمل الفرد. هذا تلميذ في مدرسته، حسن الهندام كتبه وأدواته وملابسه نظيفة مرتبة. لا يؤخر عمل اليوم إلى الغد بل يواظب على حضور دروسه بنظام تام ويستذكرها يوما فيوما، حتى إذا انتهى العام الدراسي كان في مقدمة الناجحين. فكم يكون محترما محبوبا بين أساتذته وزملائه وأهله وعشيرته. وتلميذ آخر غير منظم في ملبسه وكتبه وأدواته وغير مواظب على حضور دروسه واستذكارها سيترتب على ذلك حتما أن يتأخر عن أقرانه فيضيع مستقبله ويكون موضع الاحتقار والازدراء.

وهذا تاجر يفتح متجره في ساعة معينة ثم هو يغلقه في ساعة معينة، وهو بين الساعتين ينظم عمله بين عماله، ويرتب بضائعه نوعا نوعاً، وصنفا صنفا. ثم هو يحفظ لنفسه سجلا يرصد فيه عمليات البيع والشراء. فهو دائما على علم تام بحركة متجره، وبمواعيد تسلم ما له ودفع ما عليه. وهذا جاره لا يتقيد بساعة الفتح وساعة الإغلاق. ولا يعنى بترتيب بضاعته، وبتسجيل ما يبيعه، ولا ما يشتريه. ثم هو فوق ذلك ينفق من غير حساب. وليس من شك في أن ذلك التاجر غير المنظم لا يعمر متجره طويلاً، بل سرعان ما يصيبه الإفلاس، بينما التاجر المنظم يطرد نموأ رباحه ومكاسبه، ويتتابع نجـــاحه بفضل دقة النظام وحسن الترتيب. ومثل هذا ينطبق على الزارع في حقله، وعلى الموظف في مكتبه، وعلى الصانع في مصنعه. وهــذا الأخير يجب عليه أن يتحلى بالوفاء بالوعد وحسن المعاملة والإتقان في عمله.

النظام في الحفلات والأمكنة

لا شك أن النفس تنفر إذا شاهدت أشخاصاً يتزاحمون بدون نظام في حفل، أو يتسابقون في الحصول على تذاكر سفر بإحدى المحطات، أو دور السينما، أو مكاتب البريد، أو غيرها أو يتدافعون في الصعود أو النزول من سيارة عامة، أو ما أشبه ذلك، غير مراعين دورهم في أسبقية الوصول؛ فينتج عن سوء نظامهم اضطرار الشرطي إلى استعمال الشدة في تنظيمهم. كذلك يأسف إذا رأى أشخاصاً يرقدون في الطرقات أو يجتازون الشوارع قبل إشارة المرور، ويتوسطون الطرقات أو يعبرونها في أماكن غير مأمونة. كذلك يتألم إذا وقع نظره على أطفال متشردين ومتسولين في الطرقات. ولا شك أن المتصف بالنظام يكدره مشاهدة هذه المناظر غير اللائقة ببني وطنه والتي تعرضهم للخطر.

المقاهي والأندية الرياضية والاجتماعية

إن انتشار المقاهي - بهذه الكثرة التي نشاهدها في تونس، لدليل الخمول. ولقد سرت عدوى انتشار هذه المحال في المدن إلى الريف. وأصبحنا نرى حتى في القرى الصغيرة مقاهي لشرب الشاي ولعب الورق، بما فيه مضيعة للوقت والمال. وحبذا لو تحل الأندية الرياضية والاجتماعية محل الكثير من هذه المقاهي أسوة بما هو متبع في الدول التي تقدمتنا في النهضة والرقي. وإن انتشار الأندية لا يقتصر نفعه على تقليل الجرائم وتحسين حالة الأمن العام فحسب، بل يعود بالنفع على الأسرة والمجتمع. إذ رب الأسرة قد يقضي كل وقت فراغه في المقهى بين صحبه وأصدقائه فيما لا يعود عليه أو عليهم بفائدة، بينما تقضي ربة الدار وقتها في التردد على المخازن ومحال الأزياء تاركة أبناءها وبناتها للخدم، وهم من طبقة لا يمكن الاطمئنان إليها بحال من الأحوال. فهناك يندر أن تجد شخصاً يكون عضواً في ناد أو أكثر. وهم يعتزون بالانتساب إلى أنديتهم أكثر من أي شيء آخر. وليس من شك، أن حياة الأندية الاجتماعية من شأنها أن تغرس روح النظام في نفوسهم، فيصبح النظام جزءاً ملازماً لجميع تصرفاتهم. فروح العصر الحاضر هي روح الجماعات: روح التآزر والاتحاد: روح التضامن والتعاون. وما نهض الغرب ولا ساد إلى بهذه الروح القوية.

الإسلام يدعو إلى النظام

إن الدين الإسلامي يدعو إلى التمسك بالنظام حتى في أداء الشعائر الدينية. قال رسول الله ﷺ في هذا المقام : « سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة » . وقال : « رصوا صفوفكم وقاربوا بينها وحاذوا الأعناق » . ونجد أن الصلاة مقررة في أوقات ثابتة ، وبنظام محدود . قال الله تعالى : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » . وكذلك الصوم والحج وباقي الفرائض .

كل هذا يبين فضل النظام ومزاياه الجليلة الأثر في النهوض بالفرد والأمة .

وسائل غرس روح النظام في الدول الراقية وأثره في نهضتنا .

إن من أهم ما يلفت النظر في الوسائل التي تتبعها الدول الراقية لبث روح النظام بين أفراد الشعب :

1) إصدار تشريعات لحماية الأحداث من الأضرار الاجتماعية بمنع ارتيادهم دون الثامنة عشرة للمقاهي ومحال الخمور ، ومنع بيعها لهم ، وكذلك منع ارتياد الأحداث دون الثانية عشرة دور السينما وإباحتها لمن فوق ذلك الى السادسة عشرة لمشاهدة أفلام خاصة تجيزها لجنة المراقبة بإذن خاص .

2) توجيه العناية التامة إلى الناحية الخلقية والاجتماعية في التلميذات والتلاميذ ، في البيت والمدرسة دون الاكتفاء بالدروس النظرية ، كما كان الحال عندنا إلى عهد قريب . بحيث يتعودون جميعا من أول نشأتهم التحلي بالأخلاق الكريمة وأخصها الصدق والأمانة والشجاعة والصراحة والتسامح والنجدة والتعاون لخير المجموع والطاعة والنظام والمحافظة على آداب المجتمع خصوصا في الحفلات العامة .

3) من أفضل ما يقوّم أخلاق النشء وينمي فيه الشهامة وروح البطولة تدريبهم منذ الطفولة على الأنظمة الرياضية العسكرية ، فيقضي التلميذ أوقات

عطلته المدرسية في معسكرات منظمة ، مع ملاحظة الفوارق في السن وتعلم الأناشيد القومية الحماسية والموسيقى الحافزة للشعور الوطني والألحان الفكاهية المهذبة التي تناسب حفلات التسلية والترفيه والابتعاد عن الأغاني المبتذلة التي تبث في نفوس الأحداث والشبان الرخاوة وضعف الخلق والخلاعة والمجون .

4) تنظيم الرحلات الرياضية المجانية بترحيل تلاميذ المدارس من أبناء المدن إلى الشواطىء أو الريف صيفا .

ومما يبعث على السرور أن معاهدنا ومدارسنا أخذت تعنى عناية خاصة بهذه الناحية من التربية وبث روح التربية الخلقية والوطنية والنظامية في نفوس الطلبة والمأمول أن يكون الجيل الجديد أكثر تشبعا بالنظام واستمساكا به فيصبح خير عنوان للنهضة التونسية الحديثة .

أخلاق السلف الصالح
دواء لعلل المسلمين (1)

لقد كثرت فى هذا العصر علـل الأمة الاسلاميـة ، واشتدت أمراضها فوجب على أهل الاصلاح أن يلتمسوا لها الشفاء ، وأن يبحثوا لها عن الدواء • وما رأيت دواء أصلح لها وأنفع مـن أخلاق السلف الصالح . رضى الله عنهم ، ولعل الله يوفقنى الى ذكر شىء من أخلاقهم الكريمة وسجاياهم العظيمة عسى أن ينتفع بها من لحظته عين العناية « **ومن يهد الله فماله من مضل** » •

مـن هـم السلـف الصالـح ؟

هم الصحابة ومن تبعهم باحسان الى القرن الثالث الهجرى وقيل هم الخلفاء الراشدون المقصودون لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين مـن بعـدى عضوا عليها بالنـواجذ » والى الرأى الأول ذهب الأكثرون والله أعلم •

لماذا يجب علينا معرفة السلف الصالح ؟

انه حق لكل أمة أن تقتفى على آثار عظمائها . وأن تتبع طريق هداتها . فحدير بالأمة الاسلامية . ذات التاريخ المجيد والسلـف

الرشيد ، أن تعرف تاريخهم وتعلمه أبناءها • فلم ترزق أمة من الأمم مجموعة من العظماء ونخبة من المصلحين الصالحين ما رزقت الأمة الاسلامية • وإذا جاز لكل أمة أن تفخر بأبطالها وعظمائها أفلا ينبغي لنا أن نذكر مع التعظيم والاكبار أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ، أولئك الذين هدى الله وهدى بهم الأمم •

سلفنا الصالح ، رضي الله عنهم ، كانوا أعلام النور في ظلمات البيداء ، أستاذهم محمد خاتم الأنبياء • هبط بينهم الروح الأمين وتنزلت الملائكة في صفوفهم مجاهدين وجاءهم رئيسهم يعلمهم كيف يسألون فكانوا كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم •

هل أمرنا باتباعهم ؟

نعم أمرنا باتباعهم • قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين آتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه** » • وقال الرسول: « افترقت بنو إسرائيل على إثنين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النا إلا واحدة قيل من هي ؟ قال من كان على ما أنا عليه وأصحابي •

والعقل والمنطق يرى ويؤكد اتباع من كان على الحق فان الله قد عاب الأمم بتقليد أسلافها الضالين وآبائها المشركين • أما وسلفنا هداة مهذبون خلفاء راشدون عابدون موحدون فلم لا نقتدى بهم والعقل نفسه يستمد غذاءه من هدايتهم •

أصحاب محمد وأصحاب موسى وعيسى

لقد قال الله . في أصحاب محمد : « **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** » • وقال :«**محمد رسول الله والذين معه**

أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود » وقال : في قوم موسى : « أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم » • وقال: «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به » • وقال في شأنهم حين أمرهم موسى بقتال الجبارين : « قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » • لكن أصحاب محمد قالوا حين استشارهم في الجهاد والرجوع : لا نقول ما قال قوم موسى « فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون » ، بل نقول :« سمعنا وأطعنا وإنا معك مجاهدون » •

أما أصحاب عيسى فقد قال الله فيهم حكاية عن عيسى عليه السلام :

« قال من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » - الى أن قال تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » •

أخلاق السلف الصالح

لا يخفى أن الأخلاق هي مرآة الأمم وميزان الشعوب ومعيار الفلاح ومقياس النجاح هي سلم تعرج به الأمم الى أسمى درجات الحضارة النبيلة وأرفع منازل المدنية الشريفة •

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا
فليس وراءها للعز ركن

إذا فسدت الأخلاق في أمة فارتقبوا خذلانها السريع ووقوعها في إسار الذل والمهانة والاستعباد • وأسأل الله لشوقي الرحمة والرضوان فهو يقول :

وليس بعامر بنيان قوم
إذا أخلاقهم كانت خرابا

إن الدعوة المحمدية سارت بخطى سريعة فملأت الآفاق ، وانتشرت في المشرق والمغرب وأقصى الشمال وأقصى الجنوب في بضع وعشرين سنة • والفضل يرجع الى الاخلاق التي بثها في الفاتحين قائدهم العظيم محمد صلى الله عليه وسلم . فكانوا قلبا واحدا ويدا واحدة وفي ذلك المعنى يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى •

فباعتصام المسلمين بحبل الله ، وباجتماع كلمتهم وتوحيد صفوفهم ، وحب بعضهم لبعض تمت لهم الكلمة وفتحوا ، في بضع سنين . ما لم تفتحه أقوى الأمم في مئات السنين • وكل هذا من نفحات الأخلاق العظيمة التي تخلق بها المسلمون الأولون وأرشدهم اليها المصطفى ، صلى الله عليه وسلم • قد كانت أخلاق السلف الصالح ، رضى الله عنهم ، على قواعد ثابتة من هدى نبيهم ، صلوات الله وسلامه عليه • وقد سئلت عائشة ، رضى الله عنها ، عن خلق رسول الله فقالت : كان خلقه القرآن • لذلك كان السلف الصالح يهتدون بهذا الرسول العظيم ويستنيرون بنوره في ظلمات البر والبحر ، وفي أودية السلم وميادين الحرب - انظروا الى صاحب الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وقد اعتلى المنبر حين تولية الخلافة ومن فوق المنبر يقرر دعائم الشورى قائلا : « قد استخلف الله عليكم خليفة ليجمع به ألفتكم ، ويقيم به كلمتكم ، فأعينوني على ذلك بخير لم أكن لأبسط يدا ولا لسانا على من لم يستحل ذلك ان شاء الله فأطيعوني ما أطعت الله فاذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم ثم بكى وقال :

« ما أنا إلا كأحدكم فاذا رأيتموني قد استقمت فاتبعوني وإن زغت فقوموني »

هذا ما كان من أول خليفة في الاسلام • فاذا استطلعنا سيرته وجدناه قد صدق ما عاهد الله عليه فلقد كان رضى الله عنه يجمع الصحابة ليستشيرهم ويبدأ برأى صغيرهم حتى لا يتأثر بكبيرهم ثم يدلي برأيه بعد رأيهم ويأخذ بأقرب الآراء اليه ارضاء لله واتباعا لرسوله وقد كان لا يتمهل في الأخذ بالحق اذا اقتنع به أو اذا علم في التريث فيه مضيعه للمسلمين فقد ارتدت فئة من المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وامتنعت اخرى عن دفع الزكاة فأمر بقتالهم وقال في مانعي الزكاة : « **والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه رسول الله لقاتلتهم عليه** » • وقد نصره الله نصرا مبينا وكانت هزيمتهم عبرة لغيرهم فاستقامت الأمور وحفظت الحدود •

ويطول بنا المقام اذا أردنا أن نبسط سيرة كل امام من أولئك السلف الأعلام وكفى أن نجمل القول فنقول : كانوا خير أمة أخرجت للناس •

ومن ظواهر أخلاقهم •

1) **حسن الخلق** : عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » • وكان من دعوات النبي : اللهم اهدني لاحسن الاخلاق لا يهدى لأحسنها الا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف سيئها الا أنت • وعلى ذلك درج السلف الكريم •

2) **كرم السجية** : سئلت عائشة رضى الله عنها كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خلا بنسائه ؟ قالت : كان كالرجل من رجالكم . الا أنه كان أكرم الناس وأحسن الناس خلقا • كان ضحاكا بساما • وعن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال استأذن عمر بن الخطاب . رضى الله عنه . على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه عالية أصواتهن على صوته . فلما استأذن عمر تبادرن الحجاب ودخل عمر ورسول الله . صلى الله عليه وسلم . يضحك فقال عمر

رضى الله عنه : أضحك الله سنك . بابى أنت وامى يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندى لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب • قال عمر . فأنت كنت أحق ان يهبن يا رسول الله • ثم أقبل عليهن عمر فقال : أى عدوات أنفسهن ، أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلن : نعم أنت أغلظ وافظ • فقال رسول الله : إيه يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا الا سلك فجا غير فجك » وعن أنس بن مالك قال خدمت النبى ، صلى الله عليه وسلم . عشر سنين والله ما سبنى سبة قط ولا قال لى أف وعلى ذلك سار الصحابة •

3) **اصطناع المعروف** : عن أبى موسى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « على كل مسلم فى كل يوم صدقة فان لم تكن صدقة فليعمل بيده ينفع الناس » • قيل فان لم يستطع ؟ قال . قال يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر • قيل:فرن لم يستطع ؟ قال يعير ذا الحاجة الملهوف • قيل : فان لم يقدر ؟ قال : يمسك عن الشر . فانه له صدقة • وفى ذلك يقول شعراء الأخلاق والحكمة

ليس فى كل حالة واوان
تتهيا صنائع الاحسان
فاذا امكنك فبادر اليها
حذرا من تعذر الامكان

وقال غيره :

اذا شئت أن تبقى من الله نعمة
عليك فسارع فى حوائج خلقه
ولا تعصين الله ما نلت ثروة
فيمنع عنك الله واسع رزقه

إلى هنا ننهى القول وسنتابع بقية هذا الموضوع فى درسنا المقبل بحول الله •

أخلاق السلف الصالح

دواء لعلل المسلمين (2)

لا زلنا بصدد الحديث على أخلاق السلف الصالح ، رضي الله عنهم ، ومن ظواهر أخلاقهم :

4) **لين الكلام وخفض الجناح :** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان في الجنة غرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها • فقام أعرابي فقال : يا رسول الله ، لمن هي ؟ قال : لمن طيب الكلام وأدام الصيام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام •

5 ــ **حفظ الأمانة :** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك » •

6) **الوفاء بالوعد :** قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى ، وقال اني مسلم : من اذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان • لذلك كان السلف الصالح كما وصفهم مخلص:قوما أدبهم الكتاب والسنة وأحكمتهم التجارب ورحل عنهم التسويف الذي قطع الناس به مسافة آجالهم •

7) **حسن الجوار :** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كن ورعا تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن أشكر الناس وأحب للناس

ما تحب لنفسك تكن مؤمنا واحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما » .

8) **صلة الأرحام** : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من سره ان يسأله في أجله ويبسط له في رزقة فليصل رحمه » .

9) **الحياء** : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن لكل دين خلق وإن خلق هذا الدين الحياء » وقال : « من كان يستحى منكم فليحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وليذكر القبر والبلى » .

11) **الاحسان الى الأهل والأبناء و لاسيما البنات** : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : قال جبريل قال الله عز وجل هذا دين ارتضيه لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق .

11) **الاحسان** الى الأهل والأبناء ولا سيما البنات قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » قال : ما من مسلم يكون له بنات فلينفق عليهن ويؤدبهن فيحسن أدبهن ويسبغ عليهن من النعمة التي أسبغ الله عليه الا كن له حجابا من النار وكان معي في الجنة كهاتين « واشار باصبعيه » .

وكان السلف الصالح رضي الله عنهم أكثر عطفا على البنات منهن على الأبناء ، عملا بما روى عن انس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من حمل طرفة من السوق الى عياليه فكأنما حمل اليهم صدقة حتى يضعها فيهم وليبدأ بالاناث قبل الذكور ؛ فانه من فرح أنثى فكأنما بكى من خشية الله ، ومن بكى من خشية الله حرم الله بدنه على النار » . وقد كان السلف أكثر استبشارا بالاناث منهم بالذكور حتى كانت امرأة من السلف تلد البنا تفولدت تسع بنات فلما وضعت العاشرة كانت بنتا فجاء النساء يبشرنها فقالت : لكن البشرى حقا فان من بركة

المرأة تبكيرها بالاناث قبل الذكور أو لم تسمعن الله تعالى يقول : « **يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » فبدأ بالاناث** قبل الذكور فالحمد لله الذى جعلهن لى بركة فى الدنيا وسترا من النار فى الآخرة ٠

تلك ظواهر أردنا بها الذكرى لما كان عليه السلف الكريم

من الخلق القويم والصراط المستقيم ٠ وقد كانت هذه الأخلاق مستمدة من قواعد قائمة فى نفوسهم لا يحيدون عنها قيد أنملة ومن تلك القواعد التى عاشوا وماتوا عليها :

1) الرجوع الى الكتاب والسنة فى عبادتهم وعادتهم ٠ قال تعالــى :

« **فان تنازعتم فى شــىء فردوه الى الله والرسول ان كنتــم « تؤمنون بالله واليوم الآخر** » ٠ وقال : « **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم دنوبكم** » ٠ وقال : « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** » ٠ وقال تعالى : « **فليحــذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنــة أو يصيبهــم عــذاب أليم** » ٠ ومن أجل ذلك كان الصحابة لا يهتدون الا بكتاب الله وسنة رسوله ٠ وقد وفقهم الله فاستمسكوا ولم يضيعوا وفعلوا بما سمعوا ٠ أما نحن فسمعناها وأهملناها وجعلنا دعاء الرسول بيننا كدعاء بعضنا بعضا ، ولو قام فينا ذو أمر وقال : من ترك الصلاة فقد غضبنا عليه ولا عهد له لأصبحنا وما فينا تارك لصلاة بل لقد كان السلف الصالح يتحرون دقائق السنة فى أعمالهم حتى أن أبا بكر ، رضى الله عنــه ، منع فاطمــة ، رضى اللــه عنها ، أن ترث أباها صلى الله عليه وسلم وأخذ بقوله : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » ٠ ولم يثنه غضبها عن اتباع عهد أبيها ٠ وعمر ، رضى الله عنه ، قطع الشجرة التى بويع تحتها النبى لان الناس كانوا يتبركون بها ، فخشى عليهم

الفتنة التي حذر النبي منها • وعلى سوى قبور الصحابة والشهداء بالأرض . وهدم كل مشرف منها خشية وقوع الناس في الشرك من حيث توجههم لأصحابها وسؤالهم واستغاثتهم والتزلف اليهم • وتلك فتنة وقع كثير من الناس فيها حتى أصبحوا يعظمون قبور أوليائهم أكثر من تعظيمهم لله • واذا حضروا بين يديها خشعوا وقاموا اليها قانتين • فاذا كانوا بين يدى ربهم في صلاتهم قاموا لاغين نافرين واذا قضيت ولوا مدبرين غير خاشعين •

ومن شدة تمسكهم بسنة رسول الله ، أن ابن مسعود لما حدث حديث النبي في آخر أهل النار خروجا من النار ضحك فقال : ألا تسألوني مما أضحك ؟ فقالوا مما تضحك ؟ قال هكذا ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا مم تضحك يا رسول الله ؟ قال : من ضحك رب العالمين حين يقول لعبده الذى كان آخر الناس خروجا من النار : أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ فيقول العبد : أتستهزىء مني وأنت رب العالمين فيضحك الله ويقول إني لا أستهزىء منك ولكني على ما أشاء قدير » •

وابن عمر سمع مرة رجلا قد عطس فقال الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله فقال : أما الحمد فقد سمعناه وأمرنا به وأما الصلاة والسلام فليس هذا موضعها وإنك لا تأتي بخير مما كان عليه رسول الله •

ورأى ابن مسعود قوما يذكرون الله جماعة على صوت واحد فقال : قد أتيتم أمرا بدعا أو فقتم محمدا وأصحابه علما •

وعلى هذا السنن القويم سار الأئمة المجتهدون • وكم لاقوا من الأذى ؛ فقد سجن أبو حنيفة حين طلب اليه أن يتولى القضاء فأبي تورعا أن يتولى القضاء في عهد أئمة لم يقدموا ما لله على ما لغيره •

وضرب الامام مالك بالسياط ليرجع عن قوله فكان يقول : ما

كنت لأتبع هواكم وأخالف رسول الله وأخرج رجلا من مجلسه يريد المجادلة في متشابه القرآن • وقال لا أراه إلا مبتدعا • وهرب الامام الشافعي حين طلب إليه أن يتولى القضاء • وقال : « قاض في الجنة وقاضيان في النار »• وحبس الامام أحمد وضرب ضربا مبرحا ليتول مالم يقله السلف فلم يزده إلا تمسكا بالحق قائلا : « سنة النبي تنسيني ما الاقي من أذى » •

بمثل هؤلاء العلماء العاملين اعتز الاسلام إذ كانوا لا يخافون ولا يرهبون ولم يثنهم التنكيل والتعذيب وهم أشد الناس ثقة وإيمانا بوعد الله حيث قال جل وعلا : « **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** » ولو أنهم في هذا الزمان قاموا بما قام به أسلافهم وحذروا وأنذروا للاقوامن تأييد الله ونصره ما لا قاه سلفهم الصالح . ولكنهم مع الأسف جعلوا العلم الديني من أسباب الحصول على الدنيا الا من رحم ربك وقليل ما هم في سنة ثمانين ومائة من سني الهجرة النبوية رفع أهل مكة كتابا الى الخليفة الرشيد يسألونه فيه أن يولى عليهم قاضيا عدلا فاختار لهم رجلين أحدهما قرشي والآخر غلام من الموالى وأمر بادخالهما عليه • فقال الرشيد للشيخ : ان بيني وبين وزيرى هذا خصومة فاقض بيننا بالحق • فقال الشيخ : قصا على قصتكما • فقصا عليه • فقال الشيخ : تقيم البينة يا أمير المؤمنين على ما ذكرته أو يحلف وزيرك هذا • فقال الرشيد : إن الوزير لا ينكر مما أدعى فمازالا يرددان القول والشيخ يستمع لهما حتى انتهيا • وأخيرا حكم للخليفة فأمره بالانصراف •

ودعا بالغلام فدخل عليه • فقال له مثل ما قال للاول • فقال لهما إن مقعدكما مختلف ومجلسكما متناء . وأخشى إذا اختلف مجلسكما أن يختلف قولكما فقوما من مجلسكما واجلسا بين يدى حتى لا يوجد تفاضل أثناء التقاضي • فقال الرشيد صدقت فقاما حتى جلسا بين يديه • فأراد الرشيد أن يتكلم أولا فزجره الغلام قائلا : لو تركت هذا يتكلم فانه أسن منك • فقال الرشيد

الحق معك • فتكلم الوزير ثم تكلم الرشيـد بعده • وبعـد أن انتهيا رأى الغلام أن الحق للوزير فقضى له • فالتفت الرشيد إلى وزيره وقال : أليس هذا أحق بالقضاء من الآخر • فقال له الوزير : نعم • فلما أن عرف الغـلام ذلك قـال للرشيد : ان يجبرني أمير المؤمنين فسمعا وطاعة وإن يخيرني فى نفسى اخترت العافية • فقال الرشيد : ما ينبغي أن أدع المسلمين وفيهم مثلك لأوليه عليهم • وظل قاضيا حتى قبض الى رحمة الله بعد ثلاث سنوات • فحزن عليه الرشيد حزنا كثيرا ، وطلب أسماء من اشتهروا بالعلم والعدل فتقدمت إليه ولما حضروا آثر منهم إثنين . فدعا أولهما قائلا ما اسمك ؟ فقال : معشوق • فقـال له : وما كنيتك ؟ فقال : أبو الهوى • قال : فما نقش خاتمك ؟ قال دام الحب دام وعلى الله التمام • فوبخه وأطرده • ثم دعا الثاني فلما دخل عليه قال له : ما نقش خاتمك ؟ قال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين • فصرفه وهو حنق عليهما • ثم دعا وزيره يحيى بن خالد بـن برمك ، وكـان ممن رفع إليـه اسميهما فعنفه وقال له : أتـرفع إلى أسماء مجانين تـريد أن أوليهم قضاء المسلمين ؟ فقال له . والله يا أمير المؤمنين ما في العراقيين أعقل ولا أعلم مـن هذين الرجليـن ولكنهمـا مـن الكارهين في القضاء وقد أرادا التخلص منـه بما سمعه أميـر المؤمنين فقال له : ويحك أعدهما الى فطلبا فلم يوجد لهما أثر وفرا خوفا من إكراههما على ولاية الحكم •

اخلاق السلف الصالح دواء لعلل المسلمين

لا زلنا بصدد الحديث على أخلاق السلف الصالح ، رضى الله عنهم ، ومن ظواهر أخلاقهم :

الاعتزاز بالله • قال تعالى : « **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** » وقال : « **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور** » وقال : « **وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** » • وقال : « **وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا** » •

وقد كان السلف لا يخشون في الله لومة لائم ، فكانوا يدخلون على الخلافاء فينصحونهم ، وعلى الملوك فيزجرونهم ، وعلى الحكام فيذكرونهم بأيام الله • ولا يرون منكرا إلا غيروه بأيديهم وألسنتهم • فكانت لهم الهيبة والجلال ، ولعملهم المشكور النفع الدائم والذكرى الخالدة • وكانوا بمنجاة من غضب الملوك وجبروتهم . يقفون منهم موقف الآمر الناهي • ألم تروا إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، عندما رقى المنبر وأعلن قومه أن يقوموا اعوجاجه متى رأوه بمنأى عن العدل والحق فقام إليه أعرابي من العامة ، ويده في مقبض سيفه ، وهو يقول : تا الله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا •

ففرح عمر ونزلت على قلبه هذه الكلمة بردا وسلاما ، حيث وجد في الأمة من لا يتأخر عن تقويم اعوجاجه بسيفه • وهذه منقبة في الاسلام لا يعلمنا التاريخ أنها وجدت في غيره من الأديان وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء •

ولم يقتصر النصح والارشاد فــي صدر الاسلام على الأئمــة والعلماء ، بل تعداه إلى عامة الشعب ؛ فكان الواحد منهم لا يهاب قويا ، ولا يخاف عظيما ، ولا يخشى في الحق لومة لائم • من ذلك أن الخليفة المنصور خرج ذات ليلة ، فبينما هو يطوف بالكعبة إذ سمع رجلا يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع • فدعاه المنصور وسأله عما سمعه منه • فقال له : يا أمير المـؤمنين إن أمنتني على نفسه أنبأتك بالأمور فقال له : أنت آمن على نفسك فقال الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق : هو أنت • فقال ويحك وكيف يدخلنى الطمــع والصفراء والبيضاء فــى يدى ، والحلو والحامض في قبضتي ؟ قال : وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ان الله استرعاك أمور المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبوابا من الحديد ، وحجبة معهــم الســلاح ، وبعثــت عمــالــك فــى جمــع الأموال وجبايتها ، واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة ، إن نسيت لم يذكروك ، وإن ذكرت لم يعينوك ، وقويتهــم على ظلــم الناس بالأموال والسلاح ، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان ؛ نفر سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العارى ولا الضعيف ولا الفقيــر • فــان جــاءك متظلم حيل بينه وبين الدخول اليك • وإن أراد رفع صوته عند ظهورك ، وجدك قد نهيت عن ذلك • وهــؤلاء الوزراء الذيــن استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، اتفقوا على ألا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا ، وان لا يخــرج لك عامــل فيخالف لهم أمرا إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره •

فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم • وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأمـوال ، ليتقوا بهم على ظلـم رعيتك . فامتلأت البلاد بالظلم والطمع بغيا وفسادا • ولقد كانت بنو امية لا ينتهي إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته اليهم فينصف • ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر الى بلاد الصين ، وبها ملك ، فقدمتها مرة ، وقد ذهب سمع ملكهم : فجعل يبكى فقال له وزراؤه مالك تبكي لا بكت عيناك ؟ فقال : أما انى لست ابكى على المصيبة التى نزلت بى ، ولكن أبكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا يسمع صوته • ثم قال : أما ان كان ذهب سمعي ، فان بصرى لم يذهب نادوا في الناس ألا يلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم فكان يركب الفيل . ويطوف بالبلاد هل يرى مظلوما فينصفه • هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ولما سمع المنصور هذه المواعظ القيمة من هذا الرجل بكى بكاء شديدا • ثم قال : يا ليتنى لم أخلق ولم أر شيئا • فكيف يكون احتيالى فيما خولت فيه ، ولم أر من الناس إلا خائنا • قال يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين • قال : ومن هم ؟ قال : العلماء قال : فروا مني • قال : هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك قبل عمالك ، ولكن افتح الباب وسهل الحجاب . وانتصر للمظلوم من الظالم ، وامنع المظالم وأنا ضامن على أن من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك • فقال المنصور : اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل •

هكذا كان المسلمون فى الصدر الأول من الاسلام ، يتقربون الى الله بالموعظة الحسنة ، لا فرق بين الأئمة من العلماء وعامـة الشعب بل كانوا يتقربون إليه بالموت فى سبيل كلمة الحـق . لأنهم يعلمون أن بقاءهم ونجاحهم متوقف عـلى أساس الجهـر بالحق • فاذا انهار انهارت الأمة على الاثر • وهذا ما خشيه النبى صلى الله عليه وسلم على أمته حيث قال : « اذا رأيت أمتى تهاب

الظالم أن تقول له : إنك ظالم فقد تودع منها . يعنى تعرضت الأمة إذ ذاك للضياع ، وحق أن يقال لها الوداع الوداع • وقال صلى الله عليه وسلم : أحب الأعمال الى الله كلمة حق تقال عند سلطان جائر • والمراد بالسلطان صاحب السلطة ونفوذ الكلمة فى أمن الأمة • فهذا إذا جار عليك ، وتمسك بالأباطيل فى إدارة شؤونها ، كان الواجب مقاومته ورده الى الحق فيما يأتى ويذر • ولا ريب أن الذى يتصدى لذلك الجائر يكون عرضة للخطر ويكون عمله من أحب الأعمال الى الله •

2) **الوحدة الاسلامية** : رب المسلمين واحد • وكتابهم واحد ودينهم الذى يهتدون به واحد • ونبيهم واحد • وسنتهم التى يقتدون بها واحدة • وميزان أعمالهم وهو التقوى واحد • ومقياس تقواهم وهو الاخلاص واحد • لذلك هم إخوة متساوون كأسنان المشط وإن تناءت ديارهم وبعد مزارهم لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى • يقول محمد لابنته فاطمة : يا فاطمة أنا لا أغنى عنك من الله شيئا • ويقول لصهيب ، حين عيره رجل بأنه رومى ، قل له يا صهيب : الله ربى وربك ، والاسلام دينى ودينك ، والدين شرفى وشرفك • ويقول لبلال الحبشى : انى لأسمع وقع قدميك فى الجنة •

وعلى هذا النور المحمدى ، والوحدة الدينية سار السلف الصالح • فكان فقه المشرق يدرس فى المغرب • وعلوم المغرب تدرس فى المشرق • وإذا نال الشرقى أذى تأثر له الغربى • فكانوا كما أمرهم الله نفسا واحدة ومؤمنين إخوة كما قال الرسول : كالجسم الواحد •

فلما فقدنا هذه الوحدة ، تكالبت علينا الأمم فاستضامونا ، وسامونا سوء العذاب • وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء • قيل يا رسول الله ، ومن الغرباء ؟ قال الذين يصلحون اذا فسد الناس والذين يفرون بدينهم عن الفتن ويصلحون ما

أفسد الناس من سنتي ؛ وهم قوم قليل في ناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم ٠

هذا حالنا اليوم : غربة في العادات والعبادات ، ولا سبيل الى النجاة الا بالرجوع الى الله ورسوله ، والاهتداء بالكتاب والسنة قال تعالى : **« وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »** ٠

3) **الجهاد في سبيل الله** : لم يشرع الجهاد الحربي للفتح والاغتصاب ، وانما شرع للدفاع عن الوطن ، وتقرير دعائم الحرية ، إعلاء كلمة الايمان ، قال الله تعالى : **« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفاع الله الناس بعضهم لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز »** ٠

ومعنى الآية الكريمة ، أن الله جلت حكمته أذن للمؤمنين الذين ظلموا ، ووقع عليهم الاعتداء في أنفسهم وأموالهم وأهليهم وديارهم ، أن يقاتلوا من اعتدوا عليهم وأخرجوهم من أوطانهم ٠ ولولا ذلك لغلب أهل الباطل ، ولساد المفسدون : فتخرب بيوت الله التي يذكر فيها اسم الله ، سواء كانت تلك المعابد للمسلمين أم لغيرهم من أهل الديانات الأخرى ٠ وفى ذلك دلالة واضحة على أن الدين الاسلامي يدعو الى حرية الاديان ويدعو المسلمين الى حمايتها ووعدهم بأنه ناصرهم على عدوهم

أيها الاخوان :

إن إخواننا المسلمين في فلسطين الآن يعانون محنة قاسية من اليهودية اللئيمة فلم يروع العالم بمظلمة من مظالم الحياة أقسى مما وقع فى فلسطين الذبيحة التى فيها بيوت الله ومساجده ٠

إن المؤمن لا يحتمل الضيم طويلا ، وله من عقيدته وشرف مجد أسلافه . ما يجعل الحياة وما فيها من ملاذ وشهوات آهون عليه أمام كرامته وعزة دينه والاحتفاظ بمقدساته ·

إن وسائل التعذيب والقمع ، والتشريد والتنكيل ، ونسف الديار ؛ كل هذا لا يجدى نفعا أمام قوة الحق والايمان ، لانهما وسائل الضعيف المتظاهر بالقوة · ولا بد أن تبيد وتتلاشى وتندثر تلك القوة أمام الحق الواضح · فالحق له الفوز في النهاية · لكن هذا الحق لا يرجع للمسليمن إلا إذا اتعظوا بالنكسة التى حلت بهم ، واتحدوا وبذلوا أموالهم بسخاء في التبرع والعطاء لامداد المحاربين والمقاتلين ، لأن المال عدة القتال . ووقود الحرب · وكل إنسان بما يستطيع وبما تتسع له طاقته ولقد كان الصحابة ، رضى الله عنهم ، حين يدعو داعى الجهاد تجدهم أكثر الناس جودا بأرواحهم وتبرعا بأموالهم ·

فهذا أبو بكر ، رضى الله عنه ، حمل كل ماله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعه بين يديه · فقال له الرسول : وماذا تركت لأولادك فيقول : تركت لهم الله ورسوله · وهذا عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، أنفق في جيش العسرة مائة ألف دينار فكل دينار يدفع الآن لفلسطين إنما معناه أن الاسلام لا يزال حيا ، وأن المسلمين لا يزالون يحملون في قلوبهم الايمان وفى دمائهم العزة والكرامة · وصدق الله العظيم :

« إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ·

الديمقراطية في الاسلام

معنى « الديمقراطية » أن يتساوى الناس على قدر الامكان ؛ كل في دائرة عمله ، مساواة لا تضطرب لها أحوالهم ، ولا يختل معاشهم ، بل يعرف كل إنسان أنه عضو في الأسرة البشرية له ما لكل الناس ، وعليه ما عليهم ، وأن له كرامة يجب أن تحفظ وحقوقا يجب أن تؤدى • ويتبع ذلك تمتعه بالحرية في دائرة قوانين بلاده : فلا يعتدى عليه • ولا تنتهك له حرمة • ولا يسخر بحيث لا يقوم بعمل إلا مأجورا • ويحفظ كل ذلك ما حفظ القانون •

والاسلام يرى أن قانون الشورى الأساسي ، المعبر عنه بالدستور ، هو لباب الديمقراطية • وهو ما تحكم به الأمم نفسها وقد سار الخلفاء في الصدر الأول من الاسلام على هذا الدستور الذي سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقد كان يطرح الأمور بين أصحابه . ويشاورهم فيها عملا بقول الله عز وجل : « **وشاورهم في الأمة** » • هذه هي الأصول المعبر عنها بالديمقراطية التي معناها العدل والانصاف . وعدم الميز في

الأحكام بين الناس ، وأنهم أمام القانون سواسية ؛ لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ؛ وعظيمهم وحقيرهم ، وقويهم وضعيفهم ، لا فضل لأحد منهم على آخر إلا بتقوى الله عز وجل الذى يقول : « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** » • فهذه الآية تذكرنا أن منشأ الخلق واحد مصداقا للحديث الشريف : كلكم لآدم وآدم من تراب • وأن اختلاف الشعوب والقبائل ليتميز الناس بعضهم عن بعض فيعرفوا بجنسياتهم وألوانهم وغيرها لا ليكون البعض عبيدا والبعض سادة • ولقد رد الله على اليهود لما قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه بقوله :« **قل فلم يعذبكم بذنوبكم** » فمرجع الكرامة والعزة والنعيم إذن هو التقوى والعمل الصالح يشير الى ذلك قوله تعالى . لما تفاخر أهل الكتاب والمسلمون كل يدلى بفضله ومزاياه • « **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به** »• وفى هذا الشرط وجوابه عبرة للمعتبر، وذكرى للمذكر • ومن هذا القبيل قوله تعالى : « **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** » • فتأملوا بربكم هذه الديمقراطية الحقة التى لا تعرف إلا الأعمال الخالصة لوجه الكريم •

بالله أى ديمقراطية أبلج نورا وأنقى صحيفة من قول المصطفى . صلى الله عليه وسلم ، لعبد الرحمان بن عوف : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء سلطان إلا بالتقوى » • ذكر الرسول هذا الحديث وهو فى اجتماع مع عبد الرحمان وعبد اسود • وكان العبد يخاصم عبد الرحمان فى أمر من الأمور فغضب عبد الرحمان وسب العبد قائلا : يا ابن السوداء فغضب

عليه الرسول أشد الغضب ورفع يده وقال الحديث المتقدم ذكره فخجل عبد الرحمان واعتذر للعبد ، ثم وضع خده على الارض ليأخذ العبد منه حقه •

تأملوا أيها الاخوان في هذه الديموقراطية الحقة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، وقارنوا بينها وبين ما تفعله دول الغرب المستعمرة مع الملونين وغيرهم من الشعوب المستضعفة من إهانات وتقتيل وتشريد وحرمان من التعليم في المدارس والكليات والجامعات ، يظهر لكم جليا أن الديمقراطية الحقيقية لا توجد إلا في الديانة الاسلامية ، لذلك كان دين الاسلام لا يفرق بين الأهل والعشيرة ، ولا بين الأبيض والاسود ، والمسلم والكافر • فهو لا يأمر الرجل بقطيعة أهله لمخالفة دينه لدينهم بل يوجب عليه معاشرتهم بالمعروف • قال تعالى : « **وإن جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا** » • من هذه الآية نعلم أن الدين الاسلامي بني على التسامح والسلام في كل شيء • ولم يعرف مثل ذلك في أي دين سواه • فهو يحضنا على الاحسان الى من يكون لنا السلطان عليهم، وان خالفونا في العقيدة • ولقد حدث التاريخ عن أحد الصحابة أنه قال : كنت عند عبد الله بن عمر وغلام يسلخ شاة فقال : يا غلام • إذا قطعت لحمها فابدأ بجارنا اليهودي ، حتى قال ذلك مرارا • فقال له : كم تقول هذا ؟ فقال عبد الله : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه • هل بعد هذه الآداب العالية والمعاملة الغالية يستطيع مكابر أن يتهم الاسلام والمسلمين بالحقد الديني وإضمار الشر

لمن ليس من ملتهم •

« **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا** » وقد اكتفى الاسلام من البلاد غير الاسلامية ، التي رضيت بحكمه ودانت لطاعته ، بأن يدفع أهلها قدرا من المال ليحافظ على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وليكونوا احرارا فى عقائدهم ومعابدهم • لذلك كانت الشريعة الاسلامية تسمح لنواقيس الكنائس أن تدق بالقرب من مآذن المساجد بدون أن تحرك منهم ساكنا أو تسبب لهم غيضا حين كانت مقاليد العالم بأيدي المسلمين بلا منازع ولا شريك • فانهم كانوا يستطيعون . ولا شك ، أن يحجروا على حرية أديان مخالفيهم مثلما فعلت الرومان ، ومثلما يعمل الغربيون الآن في بلاد الاسلام •

ودينا الكريم يلزمنا بمساواتهم بأنفسنا أمام القانون.وينهانا أشد النهي عن ظلمهم • وهذا شيء لم يسبق له مثيل فى تاريخ دين الأديان • وبينما كان رؤساء الأديان الأخرى يأمرون متبعيهم باستعمال القسوة مع المسلمين لحملهم على الدخول في ملتهم ولو أدى ذلك الى قتل الأبرياء وتيتيم الأبناء • كان الله تعالى ينزل على رسوله قائلا له وللمؤمنين : « **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » • وقوله : « **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** » •« وقوله : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل سبيله وهو اعلم بالمهتدين** » •

كل هذه الآيات غرست فى أفئدة المسلمين امرين عظيمين محتامن نفوسهم كل حقد ديني وذهبتا بكل تعصب مذموم •

الأول : فهمهم أن الله ، سبحانه وتعالى ، قضى فى سابق علمه بضرورة افتراق العالم البشرى الى جمعيات متخالفة المبادىء والغايات والاعتقادات •

الثانية علمهم بأنه لا سبيل الى انتشار هذا الدين إلا بين ما أسعدهم الحظ بادراك سره وفهم المراد منه هذه نبذة أيها الاخوان من أخلاق دينكم • وليس ما نراه اليوم من الأمم القوية إلا جزاء يسيرا مما كان عليه آباؤنا الأول ، فرفعهم الى أوج لم ينله غيرهم ، وأوصلهم الى مجد لم يرتق اليه سواهم ؛ حيث دانت للاسلام الأكاسرة وخضعت لشوكته القياصرة وذلت لعظمته الجبابرة وامتلكت أهله من أسوار الصين شرقا الى المحيط الأتلنطى غربا ومن جبال البرنى بفرنسا شمالا الى المحيط الهندى جنوبا •

إنه لينفذ المداد وتحفى الأقلام ويعجز اللسان مهما أوتى من الفصاحة والبلاغة عن سرد مفاخر الاسلام وذكر مآثر أهله السابقين • خلال كاملة وصفات فاضلة بسببها جلس الاسلام بأهله فوق الثريا •

أما الآن فان أبناء الاسلام نيام ، وإلا فلماذا نراهم لا يهتمون باخوانهم المسلمين ، صارفين النظر عن كل ما يعود بالنفع على بني ملتهم ، وقد غاب عنهم أن من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم •

يحدثنا التاريخ أن المعتصم بن الرشيد بلغه أن امرأة سباها الروم في عمورية ، فلما قيدت وأصبحت مغلوبة صاحت باكية مستنجدة بالمعتصم مليكها « وامعتصماه وامعتصماه !! » •

كلمة واحدة أو كلمتـان لفظتهما امرأة ضعيفة واهنة قـد أصبحت أسيرة لا حول لها ولا قوة وأين من يسمعها أو يغيثها ؟ بل أين منها المعتصم وبينها وبينـه الأيام والليـالى ؟ وعندمـا استنجدت هذه المرأة بالمعتصم قال علج من علوجهم سمع نداءها ليأت المعتصم بجيشه على الخيول البلق • فلما سمع المعتصم هذه الرواية صاح كالمجنون من شدة الغيظ والحمية • وقال : لبيك يا أمة الله • ثم صرخ في جنوده البسـلاء قائلا : الرحيـل ، الرحيل • وقد قال الرواة إنه لم يجتمع للمسلمين قبل هذا العهد جيش مثله فى كثرة العدد ووفرة العدد • بل قالوا إن فرسان هذا الجيش كانوا جميعا على خيول بلق ليكون ذلك ردا عمليا على تهكم الرومى • وما زال كذلك حتى أتى عمورية . وهى عين بلادهم ، فدك أسوارها وافتتحها عنوة بعد أن امتنعت على الخلفاء قبله • ورد المرأة الى أهلها مكرمة مبجلة • وكان يصحب المعتصم الشاعر العربي المشهور أبو تمام الطائى فمدحه بقصيدة غراء أسمعكم منها قوله :

السيف أصدق إنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به   نظم من الشعر أو نثر من الخطب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلا معسولة الحلب
تدبيـر معتصـم بالله منتقـم   للـه مرتقب فى الله مرتهـب

هذه صفحة أيها الاخوان من تاريخ المسلمين ، زمان تمسكهم بحبل الله ومحافظتهم على الرابطة الدينية فى جميع بقاع الأرض

واليوم نجد أكثر من مليون لاجىء من الفلسطينيين يصيحون كما صاحت هذه المرأة ، ويقولـون يا زعماء مصـر والعـراق

وسوريا ولبنان والسعودية انقذونا من هذا الذل الذى ألم بنا فقد أذلتنا دولة الصهاينة ؛ فقتلت رجالنا ، ويتمت أطفالنا ، واعتدت على أعراضنا • فهل هب هؤلاء الزعماء لندائهم ؟ هل استجابوا لصرخاتهم ؟ وأعادوا للمسلمين عهد المعتصم ؟ كلا ثم كلا ، إنهم لم يسمعوا منهم إلا التملق وفقدان الارادة والفاظ الوطنية العذبة التى بها يغرون عقول البسطاء • لذلك تقاعست هممهم ، وضعفت عزائمهم ، وماتت فيهم النخوة العربية • فهم يقولون مالا يفعلون • ولا يعملون إلا لتحقيق مآربهم ، ولو ضاعت حقوق أمتهم واستعبدت الى أبد الآبدين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم •

التسامح في الإسلام

قد كتب الينا بعض القراء الكرام راجيا منا أن نكتب في هذا الموضوع فلبينا طلبه سائلا الله عز وجل التوفيق والاستعانة والنفع انه قريب مجيب الدعاء .

الاسلام فى ذاته دين ومذهب ودستور اخلاقى ونظام حكومة ومجموعة قوانين وفلسفة أيضا وأساس أحكامه الكتاب والسنة والاجماع والقياس والقواعد والنظم التي لا بد منها لسياسة الامة ولاصلاح الفرد وسياسة الجماعة .

فلو أن الدين الاسلامى كان اثر آمال لرجل أو طائفة ما بقى على الدهر أربعة عشر قرنا بهذا الرونق والعظمة بل اضمحل ومات كالجنين الساقط قبل تمام أيامه ولا شك أن سيطرته ورفعته في الماضى وتقدمه اليوم فى آنحاء المعمورة بعد اضمحلال الدولة الاسلامية ورغم ما يبذله المستعمرون وجمعياتهم أكبر دليل على أنه كفيل بحاجات البشر .

فالاسلام دين طبيعى ومنطقى يتقدم كالقطار السريع ولا بد من يوم يعم فيه جميع العالم فهو يعمل لنفسه بنفسه بلا مبشر ولا مال لذلك ترون أن كثيرا من علماء الغرب يهرعون اليه يرجون أن يتشرفوا بشرفه الأسمى لأن الاسلام وضع ليكون

رابطة أخوة أسمى من كل رابطة وأن اتحاد المسلمين قائم إلى اليوم مع ذل المسلمين هذا الذل السياسي وأن اتحادهم هذا وشيجة نفسية وآصرة لا تعمل فيها المؤثرات المادية .

وكل ظلم وعسف من عالم أوربا يزيد هذه الرابطة قوة وانك لترى المهتدين الذين يدخلون في احضان الاسلام كانهم ولدوا من جديد ودخلوا في أسرة عظيمة ونالوا السعادة الأبدية .

الاسلام ايها القراء الكرام في عصرنا هذا مقهور ومتأخر في العلم والمادة ولكنه مع قليل حظه في الحياة فهو لم يفقد عقيدته ولا آماله ولا عصبيته ولا لغته وكلما اشتدت به المحن ازداد المسلمون قوة في دينهم وصلابة في ايمانهم وتمسكا بعقائدهم

أما العلة في ضعف الاسلام وتأخره فهي ترك المسلمين لآداب دينهم وافاضتهم في الجهل وتخبطهم في الخرافات وانغماسهم في الشهوات وتقاعدهم وتواكلهم وتخاذلهم وتفرق كلمتهم وترك تعاليم دينهم وهجر سنة رسولهم .

فهل يرضى المسلمون بمثل هذه الخرافات تنسب إلى دينهم مع انه جاء بجميع أسباب الارتقاء والاصلاح ووضع على أتم ما يكون من الكمال لأجل ذلك يجب علينا أن نحافظ على آداب ديننا وعلى جمع شملنا وعلى إتحاد كلمتنا فالمسلمون الاولون لما اتحدوا ولم يتفرقوا نجحوا نجاحا باهرا وفتحوا من الممالك ما لم يكن في الحسبان وانتصروا على الفرس والرومان وكانوا في كثير من المواقف يعينونهم على الفتح ويعرفونهم بمواضع الضعف عند حكامهم ومن هذا يتجلى لنا انه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها فالمسلمون ما صلح أولهم الا بكتاب الله وسنة رسول الله فلا يصلح آخرهم الا بمثل ذلك وكل من حاول إصلاح المسلمين من غير هذا الطريق فهو مفتون ومخدوع يتعب نفسه ويخدع أمته من غير أن يحصل على طائل .

فالاسلام يحتم الاتحاد وهو أخوة متينة بمعناها التام ولا شيء يضر الاسلام كالتفرق وان تفرق المسلمين ليس الا نسيانا لقواعد الاسلام وأن إنهزام المسلمين في كل أرض وتخليهم عن مواقعهم لغيرهم في كل جهة ليس إلا نتيجة تباعدهم عن سننه القويمة •

ويجب ان لا ننسى ان أوربا كلها تفهم قوة الاسلام وتخاف من إتحاده وإنهم لينظرون اليه خوفا فان كان فينا من يشارك الاعداء في ظلمهم للاسلام طمعا في شرف مكذوب أو منفعة موهومة فاولئك لن ينالوا شرفا في تاريخ الاسلام « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة** » •

والمسلم حيثما سار في أى جهة من جهات العالم الاسلامي يرى نفسه في داره ويلقى معاملة طيبة من جميع اخوانه والمساجد مأوى لكل مسلم بلا تفريق بين قوم وقوم ولغة ولغة والمسيحيون ليسوا كذلك •

وما كان المسلم المسافر ليعد نفسه غريبا في أية مدينة اسلامية فللمسلمين آداب وأخلاق مشتركة أما أهل الديانات الاخرى فليس تجمعهم مثل هذه العادات والاداب والاخلاق المشتركة •

أن أساس السياسة عند الدول الاستعمارية هو محاربة المسلمين واذلالهم والفتك بهم واذا رغبتم دليلا فانظروا كيف حاربت أوروبا المسلمين العرب في فلسطين ونصرت اليهود عليهم فعاثوا فيها فسادا وارتكبوا من أنواع القسوة مما تقشعر منه الابدان ويخجل منه الحيوان وقد بلغت الوحشية من هذه الدولة اللقيطة ان اكرهت الناس على ترك دينهم وحرمت عليهم دخول المسجد الاقصى ومن لم يستجب لرغبتهم تسلط عليه أنواع العذاب بل في بعض الاحيان تفتك به •

كل ذلك يحصل على مرأى ومسمع من الدول الاوروبية فلا

يجدون من يشفق أو يتأثر لأنينهم ولا لزفيرهم بل كانوا لا يهتمون بهم ولا يشفقون عليهم • فاين هذا يا قوم من تلك الصدور الاسلامية الرحبة المملوءة بالحكمة والرحمة والتسامح تلك الصدور الاسلامية التي كانت تسمح لليهودي والنصراني أن يؤدي شعائر دينه كما يشاء وسمى الدين الاسلامي اليهود والنصارى أهل كتاب وسماهم أهل الذمة وهما تسميتان في منتهى اللطف والآيات التي وردت في القرآن في أهل الكتاب تدل على قدر كبير من التسامح فاقرءوا قول الله عز وجل « **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون**» «**قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون** » •

وكان من تسامح المسلمين ان رخصوا لنواقيس الكنائس أن تدق بالقرب من مآذن المساجد بدون أن تحرك منهم ساكنا أو تسبب لهم غيظا حين كانت مقاليد العالم باسره بأيدي المسلمين بلا منازع ولا شريك فانهم كانوا يستطيعون ولا شك أن يحجروا على حرية أديان مخالفيهم مثل ما فعلت الرومان وغلت فيه ومثل ماتعمل دولة الصهاينة الآن كان الجيش الاسلامي يدخل مكللا بالفخار في احشاء الممالك المخالفة له في الاعتقاد فيجعل أكبر همه اطمئنان الناس على دينهم ومعابدهم متعهدا لهم بحمايتهم والدفاع عن ذمارهم ويطلق لهم تمام الحرية في عباداتهم كل ذلك عملا بتعاليم الاسلام وجريا على سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آذى ذميا فانا خصمه يوم القيامة » •

فهل يستطيع بعد ذلك مكابر ان ينكر على المسلمين احترامهم للنوع البشري اكثر من كل أمة سواهم او يجحدان دينهم أعلى واسمى من ان يبنى على الفتك والقسوة •

الاسلام لا يجيز الظلم بحال من الاحوال ولذلك كان عدو البلشفية لانها مبدأ لا يأتلف مع الدين الحنيف فهي تنكر حق التملك الفردى والاسلام يقر هذا الحق والبلشفية تحارب الاديان بدون استثناء والاسلام سلم وأمان وهي توجب الثورة على المجتمع الحاضر ولو أدى ذلك الى سفك الدماء ٠

والاسلام لا يدعو الى الثورة على أى مجتمع بشرى إلا على المجتمع الذى يكون مبنيا على الالحاد فى العقائد والفوضى فى الآداب ٠

والاسلام يسوى بين الصعاليك وبين المترفين ولا يجعل فرقا بين الغنى والفقير ولكنه لا يحكم الصعاليك في الأمة بسبب كونهم صعاليك ولا يجعل اليد العليا للأقلية واليد السفلى للأكثرية ٠

والخلاصة انه ليس بين الاسلام والبلشفية أدنى رحم ولا صلة بل هو مخالف لها كل المخالفة ٠

كذلك الاسلام لا يجيز الظلم لمتبعيه حتى مع الد اعدائهم قال الله تعالى : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين** » ٠ وكذلك الاسلام أيضا لا يأمر الرجل بقطيعة أهله لمخالفة دينه لدينهم بل يوجب عليه معاشرتهم بالمعروف قال تعالى وهو اصدق القائلين « **ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير وأن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ثم مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون** » ٠

الاسلام دين عام جعله الله خاتمة للاديان فهو لا يفرق بين الاهل والعشيرة ولا بين أبناء الوطن الواحد ولا بين النوع الانسانى بأكمله بل ان الرجل ليستطيع أن يكون مسلما وهو في أسرة كل أفرادها مخالفون له في المعتقد والمذهب ولا تحمله

تلك المخالفة فى أذاهم بل يلزمه الدين بالاحسان اليهم والمدافعة عن حقوقهم ماداموا مراعين نحوه شرائط المحبة وصدق النية الاسلام يحضنا على الاحسان الى من يكون لنا السلطان عليهم من عبيد وخدم وان خالفونا فى العقيدة ولقد حدث التاريخ الصادق ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان جالسا بين أصحابه فمر أمامهم رجل من أهل الذمة يتسول فنظر عمر لمجالسيه وقال لهم : « إنا لم ننصف الرجل ايصح أن نأخذ منه الجزية وهو شاب ونتركه يتسول وهو شيخ ؟ وأمر له برزق يصرف له فتدبروا أيها القراء الكرام فى هذه النفوس الكريمة والخلال القويمة واعجبوا كيف تمكن الاسلام بنور الله ان يؤثر على أفئدة اولئك العرب الذين كان يضرب المثل بجاهليتهم حتى جعلهم غرة فى وجه المكارم فى زمان كانت فيه الاميال الشريفة مفقودة من بين النوع البشرى بأسره .

اما من جهة حسن معاشرة المسلمين لمن يعيشون بين ظهرانيهم من أصحاب الديانات الاخرى فذلك شىء لم ترد مثله فى تاريخ البشر قاطبة فقد بلغ منهم حسن المعاشرة لمخالفيهم فى الاعتقاد مبلغا لا نراه يحصل الآن ولا بين أخوين شقيقين قال مجاهد « كنت عند عبد الله بن عمر وغلام يسلخ شاة فقال يا غلام اذا سلخت الشاة وقطعت لحمها فابدأ بجارنا اليهودى حتى قال ذلك مرارا فقال له الغلام كم تقول هذا ؟ فقال عبد الله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه » .

هل بعد هذه الآداب العالية هل بعد هذه الحكم الغالية هل بعد هذه المعاملة النبيلة يستطيع مكابر أن يتهم الاسلام والمسلمين بالحقد الدينى واضمار الشر لمن ليس من ملتهم ؟ « **كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذبا** » .

قارنوا أيها القراء الكرام بين هذه المعاملة وبين ما تعمله دول الغرب المستعمرة فى معاملتها للشعوب المغلوبة على أمرها .

الإسلام يقدر الرجال

إننا نسمع الناس يتحدثون أن دول أوربا تقــدر الرجال . وتفرح بذوى الكفاية منهــم فى العلوم والفنــون والأعمــال ، وتراهم ذخيرة تجب المحافظة عليها والعناية بها . بل تجعلهــم فوق الذخيرة وفوق المال لأنهم أصل الثروة ومنبع القوة وهذا حق لا كذب فيه ولا شك يعتريه •

لكن يا للأسف غالب شبابنا يظنون أن تقدير منازل الرجال خاص بالغربيين ، وأن الاسلام قد أهمل هذا التقدير • وهذا ما نراه ونسمعه من شبابنا أن الاسلام قد عرف للرجال قدرهم حين كان الغرب يغط فى نومه ولم يكن له شأن يذكر ولا لقوسه وإليكم البيان إذا شئتم وطلبتم •

روى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، جلس يوما مــع أصحابه • فقال لهم : تمنوا فقام أحدهم • وقال : أتمنى لو تكون لى هذه الدار مملوءة ذهبا أنفقه فى سبيل الله • فقــال عمر : خيرا تمنيت ولكنك لم تصب ما فى قلبى فقام آخر وقال : أتمنى لو تكون لى هذه الدار مملوءة زبرجدا وياقوتا وجوهرا أصلح به حال المسلمين • فقال عمر : حسنا تمنيت ولكنك لم تصب ما فى قلبى • ثم تمنى كل من فى المجلس فلم يظفر بما فى قلب عمر

فقالوا له : تمنى أنت يا أمير المؤمنين • فقال عمر : أتمنى لو تكون لى هذه الدار مملؤة بالرجال العظماء كأبى عبيدة عامر ابن والجراح أستعملهم فيما يصلح به حال المسلمين • فقالوا له جميعاً : أصبت الحق وهديت للخير •

أرأيتم أيها الاخوان كيف أن عمر كان يرى أن الرجال خير من المال ، وأفضل من الياقوت والجوهر ، وأن عبيدة عامر بن الجراح ، أحد أصحاب رسول الله وأمين هذه الأمة كما سماه الرسول ، كان لديه أفضل من الكنوز والجواهر • بعد سماعكم هذا الخبر ألقموا المفاخرين بالفرنجة الحجر وقولوا لهم سبقكم بها عمر •

رحم الله بن الخطاب انه مفخرة الاسلام ومفخرة الانسانية • هكذا كان عمر فى تقدير الرجال • ولم يكن نسيج دهره فى هذا الخلق الكريم والرأى الحكيم ، بل كان أبو بكر مثله فى ذلك • فكان يرى خالد بن الوليد خيرا من المال الذى تنال به الرغبات والآمال • وكان يقول ، حين أشاروا عليه بعزله لمخالفته لا أغمد سيفا سله الله على الكافرين • وكذلك كان على بن أبى طالب يرى الأشتر النخعى خيرا من الذهب والفضة والجوهر وما يدخره الورى ، ولذلك بكاه لما قتل مسموما حتى بلل الثرى

على هذا الخلق ، وعلى هذا الحال ، كان الخلفاء من السلف الصالح • فاستقامت الأمور وصلحت الأحوال وفتحوا وقهروا وفازوا بالنصر المبين •

أما والذى فلق الحب والنوى لو أن الأمراء ومن بيدهم مقاليد الأمور فى الشعوب الاسلامية ساروا على النهج القويم ، الذى سار عليه الأسلاف الأولون فقدروا الرجال العاملين حق قدرهم ، ما وصل الاسلام وأهله الى ما وصل اليه • ولا نزلت بالمسلمين الكوارث التى تقصم الظهور ، وتدك الجبال • ولا حل بالمسلمين ظلم ولا هضم • ولا فغرت الأمم المستعمرة أفواهها

ولا مدت اليهم أيديها • ونحن يؤسفنا أشد الأسف أن نرى في العهد الحاضر البعض من شبابنا يشيد بذكر علماء الغرب في محاضراتهم وفي المقالات العلمية والأدبية مهملين أو متجاهلين علماء الاسلام ورجاله •

ولكن هل نستطيع أن نطلب ممن أعمتهم المدنية الكاذبة . أن يذكروا في محاضراتهم شجاعة عمر بن الخطاب أو خالد بن الوليد بدل،شجاعة « نابوليون» و «فلتير» و «لامارتين»، وأن يذكروا اسم سحبان وابن العميد وسواهما من رجال الأدب العربي بدلا من جان جاك روسو وشكسبيير وأناتول فرانس •

كلا إنهم لا يريدون أن يخضعوا لآرائنا لأنهم يروننا محافظين على القديم ويرون أنفسهم مجددين ونحن لا نقر لهم هذا بل نراهم مجددين للقضاء على قوميتهم •

يحق للغربي أن يذكر رجال الغرب وأن يشيد بذكرهم لانه يحب أن يفخر بما أنجبه قطره ، ولكن ماذا يستفيد المسلم من ذكر رجال الغرب والاشادة بذكرهم وهو لا يمت اليهم بصلة قريبة أو بعيدة •

الحق أننا أهملنا رجالنا ، وذكرنا غيرهم • وتركنا أخلاقنا فحول الله عنا رحمته ورضوانه • فاذا أردنا أن نكون أمة حية، فعلينا أن نذكر عظماءنا ، وندرس تاريخهم حتى تشرق علينا شمس المدنية الاسلامية من جديد ؛ فتبدد هذه الأفكار الفاسدة التي أضلت غالب شباننا عن جادة الصواب •

وقد رأيت ، بمشيئة الله ، أن أتعرض في دروسي المقبلة الى حياة بعض عظمائنا ، كعمر بن الخطاب ، وأبي بكر الصديق • وعبيدة عامر بن الجراح ، وعمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنهم اجمعين •

مجددو الدين

أخرج أبو داود ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » ·

التجديد فى الدين معناه الرجوع الى ما كان عليه السلف الصالح ، رضى الله عنهم ، من اتباع القرآن الكريم والسير على المنهاج النبوى القديم عن غير زيادة ولا ابتداع ولا تقصير ·

ولفظة التجديد ، فى الحديث الشريف ، جامعة لمعانى الاصلاح الصحيح بحذافيره · فهى صالحة لان تكون بنبؤة قائمة مستقلة وفيها من الرد على أدعياء التجديد ، فى هذا العصر ، ما يعد معجزة عظيمة من معجزات المصطفى صلى الله عليه وسلم · وتجديد الدين ، بالمعنى المفهوم من قول الرسول عليه السلام ، تجديد فى الدنيا أيضا · وعلماء النفس أدرى بهذه النظرية إذ الدين الخالص من الشوائب يمد الروح بقوة عظيمة ؛ فتتفتح طريق التقدم والرقى فى جميع مرافق الحياة · وليس ضعف المسلمين ناشئا عن قلة العلم ، كما يقول البعض ، ولكنه نتيجة البعد عن الدين وخلطه بما ليس منه ·

فى هذا الحديث الشريف يخبر الرسول بأن الله تعالى يرسل على رأس كل قرن من ينفخ فى المسلمين روح الرجوع الى

الشريعة الاسلامية • وبذلك يجدد لهم دينهم ، أى يعود بهم الى الاسلام الذى قوامه التوحيد والتصديق برسالة المختار ، والعمل بجد على ما يعلى شأن المؤمنين فى جميع الأقطار • وقد تحقق الخبر النبوى فى جميع القرون ، وإن كـان التاريـخ لم يعـن بتدوين هذه الناحية مع اهميتها الكبرى •

وسأحاول جهدى أن أذكر المجددين عـلى قدر ما تسمح بـه المدونات التاريخية • وإنى لآمن من العثار ، فلعل بعض رجال الاسلام يعرفون غير ما أعرف فيتكرموا بنشره ولهم الشكر من الاسلام وأهله •

مجدد القرن الأول ، هو الخليفة الجليل وأمير المؤمنين النبيل سيدنا عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه وكان تجديده عظيما لتربعه على عرش الخلافة الاسلامية • ولا يظن أحد ، حين يسمع عن زهد عمر وورعه وعبادته وتقواه وصلاحه ، أنه كان يفرط فى شيء من مصالح المسلمين • بل كان يواصل ليله ونهاره ، فى خدمة الدولة وتقوية دعائمها والجهاد فى سبيل الله •

وقد أزال البدع ، وجلى الدين فى ثوبه القشيب المطهر ، كما أنزله الله على رسوله صلى الله عليـه وسلم • وكان لتجديـده أثر نافع جليل فى إزالة الغمة عن المسلمين وتقوية جامعتهم فجزاه الله خير الجزاء •

ومجدد القرؤن الثانى هو الامام الكبير والقرشى الشهير : سيدنا محمد بن إدريس الشافعى ، رضى الله عنه ، وهو غنى عن التعريف • وكان رضى الله عنه مثلا عاليا لمكارم الأخلاق وعزة النفس وإعلاء شأن العلم ، ومثلا عال للشباب المسلم • وعصره يعد بحق عصر الشريعة الذهبى إذ تجلت قرائح المجتهدين مـن الأئمة الأكرمين بتدوين الشريعة وبتبويبها وتنظيمها وما يتفق ومصلحة الأمة الاسلامية فكتب الامام مالك موطأه ونشره بين الناس وكتب صاحب الامام أبـى حنيفة كتـاب الاوسط وأمـلى الامام الشافعى كتابه الام على تلاميذه وهذه الكتب تعد أكبر

المراجع الفقهية كما جمع الامام احمد بن حنبل كتابه فى الحديث وهو إمام أهل السنة ٠

وكان هؤلاء الأئمة على جانب كبير من التقوى والورع ، كبارا فى علمهم ، كبارا فى نفوسهم ٠ كبارا فى أخلاقهم ٠ تعلموا العلم لله فهداهم الطريق المستقيم ٠ وعلموه لله فكان لهم الذكر الجميل والحديث العاطر ٠

ومجدد القرن الثالث ، فيما يغلب على الظن ، هو الامام القاسم الجنيد ، رضى الله عنه ٠ وتجديده كان فى تحسين الأخلاق ، وحمل الناس على الآداب الشرعية ، والتنديد بالتهالك على المادة والركون الى الدنيا ، والحث على التضحية فى سبيل تهذيب الروح وإثارة عزائمها ٠

ومجدد القرن الرابع هو السلطان محمود الغزنوى ٠ وتجديده كان فى الجهاد الاسلامى ٠ فقد رفع رايته ودانت له الهند ورسخ فيها الاسلام ، وتمكنت قواعده ، وثبتت دعائمه ٠ ومن يعرف نصرة الهند للاسلام فى هذا العصر يدرك يد السلطان محمود رحمه الله ٠ ونحن فى حاجة الى رجل مثله الآن يجدد ما بلى من الجهاد الاسلامى ليستطيع الاسلام أن يرفع رأسه ويشق طريقه الذى كان يسلكه ٠

ومجدد القرن الخامس هو حجة الاسلام الامام الغزالى ، عليه الرحمة والرضوان ٠ وقد شمل تجديده الرد على الفلاسفة ومناقشتهم ، وتقويم الأخلاق ، والحض على تزكية النفس وبيان التصوف الصحيح الذى هو روح الأخلاق وملاكها ٠ وقد كان رضى الله عنه المثل الأعلى فى الآداب والخصال الحميدة ٠ ومن نواحى تجديده: حض المسلمين على تعلم الصناعات والفنون التى هى موطن القوة فى الأمم ، وما عليه على المسلمين فى تقاعسهم عن تلقى الطب وتركه لأهل الذمة وغيرهم ، مع أن الطب فرض كفاية تأثم الأمة جميعها بتركه ٠

ومجدد القرن السادس السلطان صلاح الدين الأيوبى ، رضي الله عنه • وتجديده في حفظ بيظة الاسلام من الانصداع ومقاومة تيار الصليبيين المتدفق على الشرق • وفى 4 يوليو 1187 ، الموافق لـ 25 ربيع الثاني سنة 583 هـ ، هزم صلاح الدين جيوش الصليبيين في حطين هزيمة ماحقه ؛ فانتصرت جيوشه وغمرت أرض فلسطين • فدخل بيت المقدس وأظهر منتهى التسامح والرحمة نحو سكانها المسيحيين • وقد أحيي ما اندثر من القوة الدفاعية عند المسلمين • وكان قدوة صالحة في ذلك • وجمع منهم ما تفرق ، ورتق ما تمزق • ووحدهم تحت رايه واحدة ؛ فأنقذ بهم مصر والشام وشمال إفريقية من قبضة الكفر والاستعمار الغربى ، الذى نعانيه اليوم على أشد ضروبه عسفا واستبدادا وظلما •

ولو لا صلاح الدين ، رضى الله عنه ، لتقدم الاستعمار بضعة قرون • وكان يحب سماع القرآن ويخشع ، وعينه تدمع إذا سمعه كما كان شديد الرغبة في سماع حديث النبى صلى الله عليه وسلم • وكان يحضر هو أولاده ومماليكه • وكان يستوقف الناس ويأمرهم بالجلوس في سماع الحديث • وسيرته عند الفرنجة معطرة زاكية • وتقواه وزهده وصلاحه وعفافه وأمانته موضع اتفاق بين الشرق والغرب •

ومجدد القرن السابع ، شيخ الاسلام ، عبد السلام بن تيمية الحرانى الامام الحجة في الحديث والمشكلات الدينية • ومؤلفاته هو وتلميذه ابن قيم الجوزية كأنما كتبها رجل في القرن الاول خير القدوة فهي تفيض على العالم الاسلامي نورا ساطعا من شمس الاسلام الوهاجة • وكل من أتاح له الحظ قراءتها سر بما فيها من تحقيقات جليلة ، وحل لشبهات كثيرة • وبرز تجديد ابن تيمية في ناحيتين ؛ إحدهما الرد المقنع على النصارى والأخرى إظهار عوار المتصوفة الذين أضروا بالمسلمين ضررا بليغا ، لا نزال نرسف في قيوده على الرغم من تنور كثير من شبيبة المسلمين ومعرفتهم الدين الصحيح • ورجائى أن تنشر

كتبه الشركة التونسية للتوزيع لما فيها من الينابيع الصافية التي تروى واردها ريالا ضمأ بعده • وتولى بعد ذلك المجددون كما أخبر الرسول الأمين ، حتى القرن الثالث عشر • واشترك في التجديد فيه السيد جمال الدين الأفغاني ، والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، رحمة الله عليهما •

ولد السيد جمال الدين الأفغاني في قرية « أسعد آباد » سنة 1254 ه • وانتقل بانتقال أبيه الى مدينة كابل • وعني والده بتربيته ؛ فتلقى علوما جمة برع في جميعها • وكان كثير الأسفار والتنقل ؛ فجمع الى علوم النظر والفكر ، أبحاث المشاهدة والاستقراء • وقد أولع بحب الحرية ونهوض أمم الشرق عامة والمسلمين خاصة ؛ فكان موضع اضطهاد الملوك ، وكيد العلماء واشتغل بالتدريس في مصر • وكان طلبته ينتقلون بما يكتبونه من تلك الدروس الى بلادهم أيام العطلة ؛ فاستيقظت مشاعر . وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة • وكان أول من أدرك ما تنطوى عليه سياسة التوسع الغربي من تهديد لاستقلال دول الاسلام ؛ فحاول تعبئه الجماهير روحيا ، وأكثر من مراجعة ملوك الاسلام وأمرائهم منذرا إياهم بما يهددهم ناصحا باتخاذ ما يلزم من وسائل للدفاع • وكان يشعر بالخطر شعورا حادا ، رحمه الله رحمة واسعة •

أما الأستاذ الشيخ محمد عبده فقد تربى تربية خالية من البدع والخرافات ؛ فكملت أخلاقه ، وصار الدين وجدانا له • وأهم ما اتفق له تربية العزيمة والاقدام ، فقد كان فيها نسيج وحده في أمته • وقد توجهت نفسه الى العمل والاصلاح قبل أن يصير مدرسا رسميا ؛ فبدأ باحياء اللغة ونفخ روح العلم والدين في الأزهر • وكان له الأثر الكبير في رفع مكانة اللغة العربية ، والاصلاح الخلقي ، والدعوة لتنمية الفضيلة في نفوس الناشئة الى أن جاءت الثورة العرابية في مصر ، فاتهم مع الثوار ، فزج به في السجن • ثم نفي ثلاث سنوات الى سوريا • ثم ذهب الى باريس وحرر صحيفة العروة الوثقى مع السيد جمال الدين

الأفغاني • وتعلم في باريس اللغة الفرنسية ، ورأى فيها النهضة العلمية ؛ فزاده ذلك يقينا في الايمان باصلاح المسلمين لينهضوا من كبوتهم . ويتخلصوا من جمودهم الذى أطمع فيهم أعداءهم . وأوقعهم في جهل شديد • وقد كان في أيام محنته ، كما كان في أيام عزه وصولته مقداما شجاعا ، لا يضع فوق حق الله حقا آخر ولا يرهب أحدا غير الله ، ولا يسعى إلا فى دفع شر أو جلب منفعة لمواطنيه وإخوانه • وكان رحمه الله علم حقيقة الاسلام وعرف أسراره . وفهم إشارته ، وأدرك غايته • ولذلك كانت فتواه ، كالوحي السماوى ، كلها هداية وكلها نورا وكنها خيرا وحكمة • وجل الله الذى يؤتى الحكمة من يشاء « **ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا** » • وكانت دروسه في تفسير القرآن فتحا جديدا في العلم تجمع بين القديم والحديث • وكان في اختياره للكتب التي يدرسها يتجافى عن كتب المتأخرين التي أفسدت العلم ، وجعلته قشورا لا تسمن ولا تغني من جوع ، ويختار بدلها كتب المتقدمين التي تعنى باللب دون القشور ، وتربي فيمن يدرسها ملكة العلم الصحيح • فاختار في علم البلاغة كتاب دلائل الاعجاز ، وكتاب أسرار البلاغة • وهما الكتابان اللذان وضعهما لامام عبد القاهر الجرجاني في علوم البلاغة ، ونهج فيهما المنهج الصحيح الذى يربي في الطالب ملكه النقد ويجعله قوى الأسلوب •

وكان علماء الأزهر ينظرون الى الشيخ محمد عبده بعين المقت ، وينتهزون الفرصة للثورة عليه ؛ فقاموا يتهمونه في دينه ، ويحاربون بعض الاصلاح الذى أدخله في الأزهر حتى حالوا بينه وبين المضى فى ذلك الاصلاح الى نهايته •

وخلاصة القول : ان الشيخ محمد عبده كان مصلحا كبيرا . وسياسيا خطيرا ، ومعلما قديرا ، وقاضيا شهيرا : وكاتبا لا تجد له نظيرا • وكان كذلك زاهدا وفي الورع أميرا • ولم تلبث المنية أن عاجلته فحرمت الأزهريين من آثاره فى الاصلاح ،

وتركتهم في نصف الطريق الى الاصلاح المطلوب . وكانت وفاته سنة 1312 هجرية وسنة 1905 ميلادية . رحمه الله رحمة واسعة وجعل مأواه الجنة .

فمقصد الاسلام والحمد لله لا يظلم ولا يقسو على أحد رغم ما تصيبه به النصرانية من المظالم والقسوة الشديدة والمحاربات الدينية بل مقصده اصلاح حال الانسانية المعذبة وهداية النوع البشرى الى ما فيه خيره في دنياه وآخرته .

أن الاسلام قد اقتلع جذور الاحقاد الدينية من عقول متبعية واخبرهم أن الاختلاف لا مفر منه فلا حاجة للمعاداة من أجله وانما المطلوب دفع الأذى وجلب المنفعة في الدائرة المباحة وها هو ذا القرآن الكريم يقول : « **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم** » ويقول : « **ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** » ويقول . « **إنك لا تهتدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء** » .

وبينما كان رؤساء الاديان الآخرين يأمرون متبعيهم باستعمال القسوة مع المسلمين لحملهم على الدخول في ملتهم ولو ادى ذلك الى قتل الابرياء وتيتيم الابناء وتخريب العمران وزعزعة أركان السلام كان الله تعالى ينزل على رسوله من سماء الرحمة أى الحكمة قائلا له وللمؤمنين « **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » وقوله : « **لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى** » .

كل هذه الآيات البينات غرست في افئدة المسلمين أمرين عظيمين محتا من نفوسهم كل حقد ديني وذهبتا بكل تعصب مذموم

الأول : فهمهم أن الله سبحانه وتعالى قضى في سابق علمه بضرورة افتراق العالم البشرى الى جمعيات متخالفة المبادى والغايات متباينة المشارب والاعتقادات .

الثاني : علمهم بأنه لا سبيل الى انتشار هذا الدين الا بين من أسعدهم الجد بادراك سره وفهم المراد منه ولذلك أمرهم أن يسعوا الى نشر الحقيقة الاسلامية من بابها وهي الدعوة الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وبالجدل الذى لا تكون عاقبته وخيمة على أحد الجانبين قال تعالى « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** » .

هاتان النظريتان اللتان تفهمهما المسلمون من كتابهم المبين تجعلهم لا ينظرون فى اختلاف الاديان الا على أنها أشياء أرادها الله تعالى وسبق بها قضاؤه واستلزمتها حكمته ليتم الابداع الذى أراده وقدره لهذا النوع البشرى ويزيدهم رسوخا فى عقيدتهم ولقد أثبت علماء العمران أن اختلاف النوع البشرى ضرورى لنمو المدنية واستمرارها .

بعد ان يقرر الاسلام فى اذهاننا هذه المبادىء القويمة يامرنا ان نسدل ستارا كثيفا على معتقدات مخالفينا فى الدين ويحثنا على معاملتهم بأنواع الرفق ومكارم الاخلاق قال تعالى : « **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** » .

وديننا الكريم يلزمنا بمساواتهم بانفسنا أمام القانون وينهانا أشد النهى عن ظلمهم وهذا شيء لم يسبق له مثيل فى تاريخ دين من الاديان ان تاريخ الامم يدلنا على ان المساواة التى جاء بها الاسلام لم تقرر فى أية أمة أخرى بل تستطيع أن تجزم بأن هذه العدالة الحقة لم يعمل بها مطلقا الا فى الامة الاسلامية فقد كانت العدالة فى الامم القديمة اسما بلا جسم وكانت العقوبات تتنوع وتختلف باختلاف الرتب والألقاب .

أما الشعب فكان تحت رحمة اهواء سادته وقادته فكيف لا

يفخر المسلمون بدينهم وقد تحققوا أن المساواة لم تقرر لاول مرة الا في الدين الاسلامي وانها لم تقرر فقط بالنسبة للمسلمين فيما بينهم بل بين أعظم عظيم فيهم وبين أحقر حقير من غير ملتهم ·

الاسلام يامرنا بالاحسان الى الاجانب كما ينهانا عن اذاهم ولم يحل لنا الاضرار بهم ولا مصادرة أرزاقهم تحت ستار القانون كما فعله ويفعله كثير من الامم بالنسبة للمخالفين لمعتقداتها ·

وقد ترك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أعظم أسوة يجب أن نتاسى بها في معاملة الاجانب المخالفين لمعتقداتنا فانه صلى الله عليه وسلم كان يحضر ولائمهم ويغشى مجالسهم ويشيع جنائزهم ويعزيهم في مصابهم ويعاملهم بكل ما يامر به الدين القويم من الاجلال والتعليم ·

فهل هناك في أي دين من الاديان فلسفة تهدى الى احترام النوع البشرى بمثل ما يهدى به الاسلام ويأمر به ؟ ·

واذا انتقلنا من عصر النبى محمد صلى الله عليه وسلم الى عصر استقرار الحكم في البلاد التي فتحوها وجدنا أن الاسلام كان أكثر رحمة وحلما في معاملة النصارى فان العرب لم يتعرضوا لهم مطلقا في تأدية فروضهم الدينية وهذا كان من أكبر الاسباب التى أدت الى سرعة انتشار الدين الاسلامي وكان إقبال الناس عليه نتيجة استبداد دولة الرومان واستعمال الشدة والقسوة في استخلاص الضرائب الباهضة من الشعب واستبداد ملوكها حتى بلغ هذا الاستبداد في ذلك العهد حدا عم معه الاستياء جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية وصارت مظالم البطارقة ورجال الدين فوق ما يتحمله البشر ·

فاستقبل هذا الشعب الذى أثقل كاهله الضرائب الفادحة وصودرت معظم اراضيه العرب الفاتحين استقبال المنقذين المحررين فاستردوا لهم ممتلكاتهم المصادرة وردت اليهم أراضيهم

وعاشوا تحت كنف الشريعة الاسلامية فى مقابل أداء جزئـة بسيطة تتراوح بين جزء من عشرة مـن ايراد الشخص السنوى وهو ما نعبر عنه بالضريبة الشخصية وفى عصر الأمويين كثـر عدد معتنقي الاسلام لدرجـة ان الخلفاء لم ينظـروا اليه نظر الارتياح لما نجم عنه من نقص ايرادات الدولة فان الضرائب التي كانت تجبى من مصر مـن عهد معاوية بـن أبـى سفيـان نقصت بمقدار النصف عما كانت عليه قبل ذلك بسنوات قليلة في عهد عثمان بن عفان وكـان هذا النقص راجعـا الى إسلام الأقباط وورد أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب اليه عامله على مصر : يقول له : إذا استمر الحال على هذا المنوال فعما قليل يسلم جميع أهل مصر وبذلك تفقد الدولة الايرادات التى يدفعونها إلى بيت المال فأرسـل عمر رسـولا وأوصاه أن يضربه على رأسه ثلاثين ضربة عقابا له على مـا كتبه وبـأن يأمره برفع الجزية عن كل رجل يعتنق الاسلام وان يبلغه انـه رأى عمر يكون سعيدا إذا أسلم جميع النصارى لان الله أرسل رسوله هاديا ولم يرسله جابيا ومن هنا يتبين لنا أن أهم مورد من موارد ميزانية الدولـة الاسلامية هـو ما يدفعه أهلها مـن الضرائب التي تزيد بكثير عن الجزية التـى كانت تدفعهـا العناصر غير الاسلامية المقيمة في بلاد الاسلام لهذا أمر عمر ابن عبد العزيز أن يزيد فى قيمة الجزية وظهر تسامح الاسلام باجلى مظاهره فى بلاد الاندلس حيث كانت حالة النصارى من أهلها احسن منها بكثير من أيام حكـم الاسبان حيـث أبـاح الفاتحون لأهل اسبانيا حريتهم الدينيـة والتمسك بقوانينهـم والاحتكـام الى قضاتهم وتقلـد كثير منهم الـوظائف الحكوميـة والتحق بعضهم بحاشية الخلفاء وتولى الكثيرون منهم المناصب العالية وهذه السياسة المقامة على دعائم التسامح والرفق التى اتبعها العرب الفاتحون جلبت اليهم أحسن الطبقات المتنورة من سكان المدن فاتخذوا منهم مستشارين واسندوا لهم الوظائـف العالية فى الدولة ولم يخف بعض المسلمين استياءهم من هـذا الأمر وذهب بعض العلماء الى القول بأن من المحرم قطعا على

المسلمين ان يتخذوا النصارى أصدقاء لهم وان هؤلاء لا يجب أن تسند اليهم الوظائف العالية في الدولة ولكن الضرورة هي التي الجأت الى تقليد النصارى الوظائف العامة ، في البلاد الاسلامية وهذا كان أمرا لا مناص منه عقب الفتوحات الاسلامية نظرا لأن الفاتحين من العرب لم تكن لهم دراية باساليب الحكم وكانت ادارة الشعوب التي خضعت لهم على جانب من الصعوبة وكان من المستحيل أن لا يستعينوا بهم ٠

ومما يدل على أن حرية الاديان في الاندلس بلغت شأوا عظيما في تلك العصور أن اليهود الذين كانوا يضطهدون ويطاردون في جميع ممالك أوروبا لجأوا أفواجا الى الاندلس حيث كانت الجزية كما في بقية البلاد التي خضعت للاسلام هي القيد الوحيد الذى فرضه العرب الفاتحون على رعاياهم من النصارى فاليهود مدينون بهذا الى تسامح الاسلام وعدالته ولكن سرعان ما نسوا كل ذلك التسامح الاسلامي وصاروا يقابلون الحسنة بالسيئة فاعتدوا على اخواننا في فلسطين بالقتل والتشريد وهدم البيوت وانتهاك الحرمات وحرق المسجد الاقصى والحق أنهم خليقون بكل هذا بسبب دسائسهم وغدرهم فهم ليسو أهلا للاكرام والتسامح ٠

وعلى ذكر فرض الجزية على النصارى المسيحيين حكى أحد المؤرخين العرب حكاية واقعية لا نرى باسا من ايرادها لانها تعطينا فكرة طيبة عن حقيقة العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في ذلك العهد وهي أنه كان لاحد الفقهاء بمدينة قرطبة جار نصراني وكلما قابله كان يحييه بتلك الجملة التي يتداولها المسلمون عادة فيما بينهم « اطال الله عمرك » فسمعه ذات يوم واحد من اولئك المسلمين المتشددين في الدين فلامه أشد اللوم وقال له : هذه إهانة كبرى ان توجه مثل هذه التحية الى ذلك الكافر فاجابه الفقيه بكل سكون وهدوء : اني عندما أقول لذلك النصراني اطال الله عمرك أرمي بذلك الى أن يبقيه الله ليدفع

لنا الجزية أعواما عديدة ٠

ومن المحتمل ان هذا الفقيه عندما بوغت في تحيته لجاره النصراني لجأ الى هذه الحيلة ليخفي شعوره الحقيقي أمام أبناء ملته الذين رأوا في تحيته نوعا من الاستهانة وانه كان في الواقع صديقا لجاره النصراني وان كتب التاريخ التي وضعها العرب والاسبان مشحونة بأمثال هذه الصداقة بين الفريقين ٠

أيها الاخوان المسلمون

أما وقد عرفنا الواجب علينا لمخالفينا في الدين والعقيدة فلا يصح أن ننسى الواجب لبعضنا وأول شرط من شروط الايمان هو التحاب لقوله صلى الله عليه وسلم ‥ لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا » ٠

ويجب أن تكون المحبة بين المسلمين صادقة خالية من شوائب الرياء والدهان والا صارت نفاقا أن لم ينكشف سره اليوم ففي الغد ولهذا يجب السعي في تطهير تلك المحبة وجعلها خالصة لله لكن لن يتم ذلك للمسلم الا بالتبصر في مبلغ علاقاته مع بني ملته وفي نتائج ركونه اليهم او ابتعاده عنهم وفي عواقب الاخلاص لهم حتى يرى رأى العين ان حياته مرتبطة بحياتهم وموته بموتهم ٠

هذه المحبة التي يدعو اليها الاسلام هي مناط كل سعادة اجتماعية وكل مدنية حقيقية انظروا في أحوال الامم المتمدنة وتأملوا جيدا في دقائق اجزائها تروا ان أكثر الامم ارتباطا بين أحادها وبين أفرادها هي اسبقهم الى مضمار السعادة الحيوية واولهم كلمة في الاحوال العمومية ٠

ومثل هذه الامة لا تعثر حتى تقوم ولا تهمد حتى تنشط فبينما تراها مرتبكة في أمورها الخارجية مهددة في منابعها

الحيوية مما يقرب اليك الجزم بقرب سقوطها وانحلالها لا تلبث ان تراها قد قامت تنفض عن رأسها غبار الارتباك وصاحت بمن يناوئها من كل جانب فاذا هي قد بددتهم بغير سلاح •

هذا أيها الاخوان سر اسرار التماسك الذى هو نتيجة المحبة وليس مانراه اليوم من الامم القوية إلا جزءا يسيرا مما كان عليه أباؤنا الاولون فرفعهم الى أوج لم ينله غيرهم وأوصلهم الى مجد لم يرتق اليه سواهم حيث دانت لهم الاكاسرة وخضعت لشوكتهم القياصرة وذلت لعظمتهم الجبابرة وانتصروا فى كل المعارك فلم تنكس لهم راية ولم ينهزم لهم جيش كل ذلك كان نتيجة المحبة لبعضهم بعضا فحقق الله لهم المجد والنصر والفوز والظفر وبدل ذلهم عزا وضعفهم قوة وفقرهم غنى وملكهم فارس والروم وامتلكوا من اسوار الصين شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا ومن جبال البرينى بفرنسا شمالا الى المحيط الهندى جنوبا •

أما الآن وبالاسف الشديد فان أبناء الاسلام نيام والا فلماذا نراهم لا يهتمون ولا بانفسهم صارفين النظر عن كل ما يعود بالنفع على بنى ملتهم وقد غاب عنهم ان من لا يهتم بالمسلمين فليس منهم •

وساقص على حضراتكم أيها القراء الكرام قصة صغيرة تدلنا على مبلغ المحبة الاخوية التى كانت موجودة بين أفراد الجامعة الاسلامية الاولى عسى ان يكون فيها لأبناء الاسلام فى هذا العصر عظة وذكرى فيتخلقوا باخلاق سلفهم ويتصفوا بصفاتهم اذا كان لهم ادنى رغبة وأقل ميل لانقاذ دينهم وقد احاط به الاعداء احاطة السوار بالمعصم ولو عرفتم ان قلوبهم تغلى عداوة وان تلك الضغائن يتوارثها صغيرهم عن كبيرهم لهزتكم الحمية على دينكم واخذتكم الغيرة على نبيكم واليكم القصة •

حدث واحد ممن شهد وقعة اليرموك فقال : ذهبت بعد الوقعة الى حيث جثث المستشهدين اتفقد ابن عم لى فرأيته يعالج

سكرات الموت فقلت أسقيه لئلا يموت ضمآن فأخذت اناء ماء وأشرت اليه بالاناء فاشار بالرغبة فيه •

فما دنوت منه حتى سمع آنة مريض بجواره فاشار الى أن أسقيه فذهبت الى الثاني وعرضت عليه الماء فسمع انينا بجواره فاعرض وأشار أن أذهب اليه فذهبت اليه هذا الثالث فوجدته قضى نحبه فرجعت الى الثاني فرايته اسلم الروح وعدت الى ابن عمي فوجدته جثة باردة •

انظروا أيها القراء الكرام إلى هذه الارواح الطاهرة التى تؤثر على نفسها حتى في ساعة لا تستطيع الوالدة فيها أن تفكر في فلذة كبدها •

انظروا أيها القراء الكرام إلى هذه الارواح الطاهرة التى ساعة هولها عظيم والمهاجسيم ثم انظروا كيف كان المسلم يمثل هذا الايثار على النفس فى الظروف « **ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة** » بهذا الايثار على النفس و بهذه المحبة أيها الاخوان ظهر الاسلام على جميع الاديان وطأطأت أمام عظمته رؤوس الأنام فبمثل هذه الشهامة العالية والعواطف السامية والاحساس الشريف والقلوب الطاهرة ترقى الأمم وتسمو • اما اذا نزلت الأثرة وحب النفس مكان العطف وحلت القسوة محل الرحمة واستبدل البخل بالكرم وغلت الايدى الى العنق بدل البذل والسخاء في مواقف الشرف واعتاض الانسان عن الشهامة بالنذالة والامانة بالخيانة والكرامة بالدناءة والشجاعة بالجبن فلا عجب ان يصبح مجموع من تمكن منهم هذه الخلال المرذولة عبيدا ارقاء •

أيها القراء الكرام ان الدين الاسلامى قد اناط بكل فرد من أفراد المسلمين واجب السعي فى اعلاء كلمة الدين وان اعظم ما يثاب عليه المسلم السعي وراء تحقيق السعادة واعلاء شأن الامة المحمدية وان التنازع والتباغض ينافيان وقواعد الاسلام

وإن الله أنزل هذا الدين لمنفعة الجميع وان أكثر او امره لا يمكن العمل بها الا بالاتحاد والمحبة والوئام لا بالتقاطع والخصام قال الله تعالى: «**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا** » • فالله آمرنا في هذه الآية الكريمة بالاتحاد وحثنا على الوفاق والائتلاف والمحبة ونهانا عن التفريق والاختلاف الذى هو خلق مرذول يأباه الشرع العزيز والعقول السليمة فعلى كل مسلم ومسلمة أينما كانوا أن يجاهدوا في سبيل اعلاء كلمة دينهم وان يكون الرجل مرشدا لبيته كما تكون المرأة مرشدة لمن حولها وبهذا تزداد ثروة الاتحاد والتمسك بالدين على مر الأيام وبذلك أيضا تكون هذه النفخة الروحية سببا للحياة والقوة والنشاط فالامة جسد والامل روحه الذى يسرى فيه ويتسلط عليه ولا حياة للأمة بغير الامل ولا يكاد ينطفىء الامل حتى تنتحر الامم •

ان نكن اليوم مغلوبين متحسرين على ما حل بالاسلام من النكبات والهموم فلا يضعف ذلك من آملنا في نهضة الاسلام فعلينا أن نغير ما بانفسنا حتي يغير الله ما بنا من ضعف الى قوة وان نعد العدة لتعويض ما فات وذلك بايقاظ أرواحنا النائمة واجسادنا الهامدة وأن نقاوم هذه الكوارث المتوالية وسيصادف أفول نجم الغرب اشراق نور الاسلام مرة أخرى فقوموا أيها المسلمون لنصرة دينكم لتستعيدوا مجدكم وتفوزوا بوعد ربكم الذى يقول : **ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** •

عظماء الرجال :
أبو بكر الصديق مثل أعلى
في الثبات ورباطة الجأش

أكثر الشباب ، في هذا العصر ، يظنون ويتوهمون أن سياسة الأمم فن جديد ظهر في أوربا ، وأن المسلمين لا علم لهم بفن السياسة . والسبب في وهمهم أنهم لم يتعلموا تاريخ الاسلام ، ولم يتعمقوا في دراسته ، وخاصة تاريخ الخلفاء الراشدين الذين أوتوا حظا وافرا في السياسة والدهاء ، أمثال الصديق وابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وعبيدة عامر بن الجراح وغيرهم من أجلاء الصحابة ، رضى الله عنهم أجمعين ..

فمن قرأ سيرة هؤلاء استطاع أن يدرك أن السياسة عنهم أخذت ومنهم نقلت . والسياسة في أيامهم كانت قائمة على أساس متين من الحق والصدق والصراحة في القول ولم تكن كسياسة هذا العصر باطلا ورياء ونفاقا .

بعد هذه المقدمة سأجعل موضوع درسى في هذه الليلة في الكلام على عظمة أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار وخليفته الذى شهد الله له بالصحبة في القرآن الكريم فقال : « **ثانى اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** » ووصفه بأنه

من أولى الفضل بقوله : « **ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ان يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله** » •

ولا أكون مغاليا إذا قلت إن الأمم جميعا لم تظفر في جميع عصور التاريخ بمثل ما ظفرت به الأمة الاسلامية من أبي بكر رضى الله عنه • وقد اتفق أهل السنة والمحققون من هذه الأمة على أنه . رضى الله عنه ، أفضل هذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم • وكان الصحابة ، رضى الله عنهم ، يعترفون بذلك •

وكان من أخص صفات أبي بكر الشجاعة وقوة اليقين.ورباطة الجأش والثبات أمام قوارع الخطوب وعواصف الشرور ، والجود بالنفس وبالمال في سبيل تأييد الدعوة الاسلامية ، وشدة الخوف من الله ومراقبته في جميع الأحوال ، والتفكير العميق واصالة الرأى إذا أشكلت المسائل وأعضلت الأمور •

فكان ، رضى الله عنه ، شجاعا ثابت القلب تنزل به قوارع المحن فلا توهى عزيمته . ولا تضطرب لها نفسه • وإذا قلنا إن أبا بكر شجاع فلا نريد بذلك الشجاعة الجسمية التي يشترك فيها الانسان وغيره من الحيوان الأعجم ، وإنما نريد أنها شجاعة الجنان التى يستطيع صاحبها أن يتحمل المصاعب فى سبيل الحق والواجب ، تلكم الشجاعة الأدبية المعنوية هى التى رفعت أقدار عظماء الرجال وجعلتهم منارا يهتدى به الناس في أعمالهم،وكان لها الأثر البارز فى نهضات الأمم وبلوغها ذروة الرقى والكمال•

ونحن في هذا العصر نحتاج الى قدر عظيم من الشجاعة القلبية لنقاوم به شرور المجتمع ، لأن النـاس مهما تفاوتـت مراتبهم فانهم عبيـد للبيئة التي يعيشون فيهـا . ويخضعـون للعـادات والتقاليد البالية التى يكون عليها المجتمع • وكثيرا ما يكـون المجتمع منحطا فتنحط الأفراد تبعا لانحطاطه لانهم فقدوا استقلال شخصياتهم بسبب تأثير المجتمع •

أما عظماء الرجال ذوو الشجاعة الأدبية فهم يجدون الجرأة في الخروج على عادات المجتمع وتقاليده إذا كانت فاسدة ، ويقودون الأمة التي يعيشون فيها الى الحياة الراقية السعيدة ٠

وكثيرا ما تكون شجاعة هؤلاء العظماء وتفانيهم في تأييد الحق سببا في اضطهادهم ، ولكنهم لا يبالون بذلك بل يستعذبون العذاب في سبيل تأييد الحق والقيام بالواجب ٠

ولا تظهر شجاعة العظيم إلا إذا حلت بساحته الخطوب وانتابته الكوارث وأحاطت به جيوش المصائب فتراه يهزمها ويبددها ويكون له الفوز عليها ٠

وعلى هذا النحو كانت شجاعة أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ٠ فقد ثبت في المواطن التي هلعت فيها قلوب الرجال ثبات الجبال الرواسي ؛ ما زلزلت عزيمته الخطوب ولا أضعفت همته المصائب ، حتى فاق الصحابة جميعا بثباته ورباطة جأشه ٠ من ذلك ثباته عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان أعظم برهان على قوة نفسه الكبيرة وشجاعته الفائقة وثبات قلبه ونور بصيرته ٠ فكان ثباته عصمة للمسلمين من الفتن في ذلك الوقت العصيب ٠ فقد روى عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجالا من المنافقين زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفي وإن رسول الله ما مات ولكنه قد ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ٠ والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم لأنهم زعموا أنه مات ٠

وأقبل أبو بكر ، رضي الله عنه ، على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت الى شيء حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة ، ورسول الله مسجى في ناحية البيت ، عليه بردة فأقبل حتى كشف عن وجه

رسول الله صلى الله عليه وسلم • ثم أقبل عليه فقبله • ثم قال: بأبي أنت وأمي أما الموتة التي كتبها الله عليك ، فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا • ثم رد البردة على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم • ثم خرج ، وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ، انصت فأبى إلا أن يتكلم • فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت • ثم تلا قول الله : « **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين** » • فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ وأخذها الناس عنه • قال أبو هريرة : فقال عمر : فوالله ما هو الا أن سمعت أبا بكر تلاها حتى علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات • ومما يدلكم على ثباته وشجاعته أنه ما كاد ينتقل رسول الله الى الرفيق الأعلى حتى ارتد كثير من العرب ، وخرجوا على جماعة المسلمين فوقعت الفوضى في البلاد العربية ، وانشرت الفتن وأمسى المسلمون عرضة لأهوال تشيب لها النواصي ، وظهر الدجالون بدعوى النبوة فتبعهم أشياعهم من القبائل التي لم تباشر تعاليم الاسلام حبة قلوبها لولا أن تدارك الله فيها المسلمين بأبي بكر وحزمه وثباته ونفاد بصيرته لزال الاسلام من عالم الوجود ولم تقم له قائمة بعد ولكن الله غالب على أمره وناصر أصحابه وحزبه ولو كره الكافرون •

ولقد كان المرتدون على قسمين :

1) قوم كفروا بالله ورسوله ونبذوا الاسلام كأصحاب مسيلمة الكذاب وغيرهم •

2) وقوم فرقوا بين الصلاة والزكاة فأنكروا وجوب الزكاة أو وجوب أدائها الى الامام • فرأى أبو بكر وجوب قتالهم ، فجمع

الصحابة وتشاور معهم في قتالهم ، فاعترض عليه عمر بن الخطاب وقال له : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قالها عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله تعالى » • فقال له أبو بكر : إن المسألة مسألة حق وباطل ، ولا فرق في الحق بين الجليل والحقير • فمن تهاون في حق حقير كان ذلك ذريعة الى التهاون في حق حقير كان ذلك ذريعة الى التهاون في حق عظيم • وليس وراء ذلك إلا الفشل والخسران المبين • فوالله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه • قال عمر : فوالله ما هو الا أن شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق • وكان جيش المسلمين ، اذ ذاك بقيادة أسامة بن زيد في بلاد الشام ، يقاتل الروم والأعداء يتحفزون للوثوب على المدينة ، فعظم الخطب واشتد الكرب وأحاطت الشدائد بالمسلمين من كل صوب ، وتحرج مركز أبي بكر حرجا عظيما بين امواج هذه الفتن الهوجاء ، لولا أن من الله عليه بالثبات ورباطة الجأش والحزم والبصيرة النافذة التي كان ينفذ بها الى بواطن الأشياء وعواقبها ؛ فأنقذ الامة الاسلامية من هذا الخطب المدلهم •

وليس أدل على شدة هذا الخطب من عزم بعض الصحابة على أن يتركوا الأمر لقضاء الله وقدره ، ويعبدا الله حتى يموتوا لأنهم رأوا أنهم لا قبل لهم بمقاومة هذه الكتل المتجمعة من أعداء الاسلام • كما جاء في الأثر عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : لقد قمنا بعد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن من الله علينا بأبي بكر فعزم على قتال المرتدين حتى كسر شوكتهم ، وبدد جمعهم ، وأعز راية الاسلام وثبت دعائم الدين • فرضي الله عنك يا صديق ، فقد تأثرت بتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فتعلمت منه أن الغرض من الجهاد الذي قمت به هو صيانة الدعوة الاسلامية من اعتداء المفسدين عليها ، وأن الدعوة الحق ان لم تؤازرها القوة المادية

للدفاع عنها كانت عديمة الجدوى لان المفسدين لا يدعون أهل الحق في هدوء واطمئنان وسلام بل يحاولون بكل ما في استطاعتهم تحويلهم عن حقهم الى الباطل • وقد أيد القرآن هذه النظرية بقوله تعالى : « **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** » • ففي هذه الآية الكريمة إشارة الى ملازمة القوة للدين لكبح جماح النفوس التي لا يردها الى الحق مجرد الارشاد واللين • وهذه القوة إنما يقوم بها الحكام الذين تنصبهم الأمة لحمايتها من المعتدين • وإنا لنرجو أن يفهم الحكام المسلمون ، آن ما أصابهم ، في هذا العصر من المحن والشدائد إنما هو نتيجة إهمالهم اتخاذ وسائل الدفاع عن شعوبهم ، وحيدهم عن طريق الصحابة ، رضي الله عنهم اجمعين • فاذا كنا نرغب في حياة العزة والكرامة فعلينا أن نأخذ بما كان عليه سلفنا ، وأن ندع التشدق بالاقوال • فالوقت يحتاج الى العمل المنتج لبناء الحياة الاجتماعية على أسس متينة • وعلى كل فرد منا أن يصلح نفسه ويوطنها على التفاني في خدمة أمته • فما الامة الا مجموع الأفراد : فاذا صلح كل عضو منها صلحت الأمة واستقامت أحوالها ، وقوى جانبها ، وبدون ذلك لا تقوم لنا قائمة ولا تنهض لنا مدنية صالحة ولا حياة عزيزة •

نسأل الله الهداية إلى الرشاد إنه على ما يشاء قدير •

عمر بن الخطاب مثل أعلى للحاكم الديمقراطي

في سماء التاريخ كواكب ذرية تزداد على توالي الأزمان تألقا ونورا ، وتزدان بتتابع العصور جلالا وعظمة • والتاريخ الاسلامي هو أسطع نواحي السماء التاريخية ضياء ، وأكثرها كواكب ومصابيح • وفي طليعة الكواكب المنيرة أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه • والامام عمر طبيب الزمان وعدل شامل في لين وحزم ، كامل في رفق وشجاعة تهد الجبال الرواسي هدا ، وإيمان تتزلزل أمامه الصعاب ، وقوة فكرية تنير ظلام الحوادث ، وسيف للاسلام لا يفل ، وحام للقرآن لا يكل ، وبطل لم يسمح الزمان بمثله ، وبحر لا يدرك ساحله ولا يعرف مداه ، والأمم جميعا تبجله • فالغربيون ينعتونه بالعادل ، والشرقيون يعرفون فيه رأس الاسلام العامل •

وإني ، حين أقص عليكم في هذا الدرس طرفا من أخباره ، لست أدعي الاحاطة الا بجزء يسير من قدره ، إذ معرفته تحتاج الى اطلاع كبير ووقت وصبر طويل •

ولن أتعرض في درسي هذا الى ذكر تاريخ مولده ونشأته ، وجاهليته وإسلامه ، وجهاده في سبيل الله بالنفس والمال ، فهذا أمر تكفلت به كتب السير والتراجم ، وإنما أحاول أن

ابين لكم بتقدر المستطاع نفسه الكبيرة وروحه الطيبة واخلاقه العالية التى جعلته مضرب الأمثال مع أنه لم تقم له تماثيل ولم تخلد ذكراه بها كما تخلد الأمم الخالية ذكرى أبطالها .

وذكرى عمر ، رضي الله عنه ، في كل قلب . ولا يحتاج الى التماثيل إلا ذو الأثر الضئيل أو الذى يخشى أن يجر عليه الزمان أذيال النسيان .

الامام عمر شبه الرسول بموسى عليه السلام فى شدته فى دين الله وكراهيته لأعداء الله . وقد كان من ذوى العزائم الذين إذا اعتقدوا شيئا لم يتخلوا عنه الا اذا ظهر لهم شيء آخر أولى منه بالاعتقاد لمتانة حجته ووضوح محجته . لذا صد عن دعوة الاسلام فى أول الامر وكان حربا عليها . فلما تشرف بالهداية الاسلامية صار من أسود الاسلام . ونحن فى حاجة الى هذا الصنف من الرجال الذين يعد الواحد منهم بمئات الألوف . أما الذين تتقاذفهم الأهواء ، وتتغير منهم الآراء حسب الشهوات والأغراض فهم داؤنا العضال ، وسبب خذلاننا فى ميادين النضال . وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الخلق المتين فى عمر : فدعا الله أن يعز الاسلام به ، أو بأبي جهل . فاستجاب الله دعوة الرسول لعمر فكان إسلامه عزا للاسلام ونصرا . وقد فرح المسلمون الذين سبقوه الى الاسلام بانضمامه اليهم ، وكبروا فرحا وسرورا ، وظهر البشر فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم .

ومن أخلاق عمر الواضحة ، صراحته الخالصة التى لا تعرف المداراة ولا المواربة ولا الخوف . يدلكم على هذا ، أن المسلمين كانوا مختفين فى دار الأرقم ، فلما أسلم عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألسنا على الحق يا رسول الله ؟ قال الرسول : بلى . قال : إذن فلنجهر بدعوتنا . فكان هذا إيذانا ببدء الجهر بالدعوة الى الاسلام . فأنزل الله قوله : « **فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين** » .

وتتجلى لكم هذه الصراحة أيضا في خروجه ، يوم أراد الهجرة من مكة الى المدينة . على الملا من قريش وتهديده لهم ورميه نذير الحرب في وجوههم ، غير خائف منهم ولا مهتم بهم • وقد جاء الى الكعبة وهو متقلد سيفه ، وحولها صناديد مكة فدخلها وطاف وصلى ركعتين وقريش مجتمعة • ثم خرج عليهم صائحا بقوله إني مهاجر فمن أراد منكم أن تثكله أمه (تفقده) وييتم ولده ، وترمل امرأته فليلقني وراء هذا الوادى ؟ وتركهم وذهب • فلم يجسر أحد على أن يلقاه بل تخاذلوا وذلوا •

ومن صراحة رأيه الذى أبداه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في التخيير بين قتل أسرى بدر أو أخذ الفدية منهم . فرأى عمر قتلهم وشدد في ذلك واظهر الأسباب الدافعة له على إبداء ذلك الرأى • وقد جاء القرآن الكريم موافقا لما رأى عمر •

وحياة الامام عمر ، رضى الله عنه ، شعارها الصراحة التامة والشجاعة التى لا ينتابها ضعف ولا وهن ولصراحته الفضل الكبير في جمع كلمة المسلمين ، وفى الفتوح التى بهرت الأنظار ونالت إعجاب جميع المؤرخين •

ومن صفات عمر ، رضى الله عنه ، البارزة بغضه وكراهته للخرافات والأوهام ، ومقته لما يشوب التوحيد الخالص الذى امتاز به الاسلام • والرجل الذى هذا شأنه هو الذى يحتاج الى مثله المسلمون ولا سيما في هذا العصر الذى تعاون فيه الالحاد والتحريف على فت عضد لمسلمين ، وإضعاف قوتهم • وهذه السجية في عمر ، رضى الله عنه ، كثيرة الشواهد • وقد بلغ من حرصه على محاربة كل ما يظن انه يؤدى الى خطر على التوحيد أن يبادر بقطع شجرة الرضوان التى بايع المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها خيفة أن تقدس في الأجيال المقبلة وتعبد من دون الله عز وجل • ومن المعروف عنه أنه قال ، حين استلام الحجر الأسود : « إنى أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » • والامام عمر ،

الشديد على الكافرين والعاصين والمنافقين ، كان يتدفق حنانا على المسلمين ويزداد رحمة بهم إذا أصابهم ضر أو انتابهم شر • وقد ظهرت شفقته بأجلى مظاهرها فى عام الرمادة سنة 18 هجرية حين نزل بالأرض الجدب والقحط ، فقلت الأمطار وشحت بالأرزاق إذ حلف ألا يأكل اللحم حتى يغيث الله المسلمين بالغيث والرزق وقد استمر ، رضى الله عنه ، ما يقرب من عام لا يأكل اللحم • وكان إذا سئل في ذلك قال : وهل يأكل جمهور المسلمون اللحم؟ فيجاب بالنفى فيقول : وكيف يأكل عمر اللحم والمسلمون محرومون منه ؟ رضى الله عنك يا عمر وهل يولد في الدنيا مثل عمر ؟ •

عجيب أن نرى خليفة يسوى نفسه بفقراء أمته؟فنعمت الشفقة الكاملة ونعمت السياسة الناجحة ونعم الدرس لقادة هذا العصر الذين يتنعمون بمطايب الحياة ويرفلون فى حلل النعيم ، ونعم الواعظ للذين لا تهمهم الا نفوسهم ولا يبالون الا بشهواتهم • ثم ليسمع الذين يتناولون عشرات الألوان على موائدهم والفقراء في حاجة الى الخبز اليابس والجبن العتيق •

وامتاز عمر ببعد النظر وصدق الفراسة ، كان ينظر الى الغيب من ستر رقيق • وكان ملهما لا ستنارة بصيرته بنور الايمان • ومن الدلائل الجليلة على بعد نظره ، محاسبته لعماله على ما جمعوه من الأموال • فمن استقام أمره أبقاه ، ومن اعوج عزله • وكان يرسل محمد بن مسلمة مفتشا عاما الى كل بلد اشتكى أهلها • وبذلك أمن الناس على أرزاقهم ، وبسط لهم حرية القول • وكان يحصى على الحكام أموالهم قبل توليتهم فاذا ازداد لهم مال بعد ولايتهم صادرهم عليه كله أو بعضه • وقد قاسم عمر سعد بن وقاص ماله • وكذلك عمر بن العاص وخالد ابن الوليد • وله في ذلك مواقف مشهودة يتبين لنا منها حرص عمر على مصلحة الرعية ، وأنه لا يجوز أن تنمو ثروة الحكام وأصحاب النفوذ على حساب ظلم الرعية واضطهادهم لان الحاكم

أو أصحاب النفوذ هم خدام الأمة ، فلا يجب أن يثروا على حسابها أو يتخذوا وظائفهم مرتعا ومغنما لاستزادة ثرواتهم ، لان هذا لا يكون الا باجحاف حقوق الشعب الذين هم أمناء على صيانته وحراسته من طمع الطامعين •

فرضي الله عنك يا عمر ، لقد فهمت الاسلام واستفدت من نور النبوة ما جعلك زعيم المسلمين • فلعل الملوك والأمـــراء والرؤساء يتخذونك قدوة ، ولو أنهم استرشدوا بسيرتك العطرة لما أصابنا عنت ولا ظلم ولكنهم فرطوا في هذا التراث فحلت بنا الكوارث المتتابعة وضاع نفوذنا فهل آن للمسلمين أن يفكروا في الرجوع الى القوانين الشرعية ويستلهموا الصوب من سيرة أسلافهم الطاهرين • وعصر عمر ، رضي الله عنه ، هو عصر الفتوح العظيمة التي تمت في زمن وجيز لم يكن يظن أن تكمل فيه • فقد استطاع المسلمون أن يثلوا عرش فارس ويتغلغلوا في مملكة الروم ، ويملكوا أحسن أراضيها • وتقدر الأراضي التي منحها الله المسلمين في عهد الامام عمر بما يناهز ألفي ميل مربع من أخصب الأراضي واجودها تربة وأطيبها هواء • فقد فتحوا سورية والعراق وفارس والتركستان ومصـــر وبعض نواحـــي المغرب والأناضول • وهذه الأراضي أكثـــر أهلها الآن مـــن المسلمين فكان عمر رضي الله عنه هو سبب هدايتهم للاســـلام الحنيف فله ثواب عملهم الى يوم القيامة فنحن غرس يد عمر رضي الله عنه •

وكان يظن أن هذه الفتوح تشغله عن أداء الواجب عليه نحو ربه ، ولكنه كان كثير الصيام والقيام والصلاة والعبادة وكان يقول أنا لا أنام كثيرا نهارا ولا ليلا لاني اذا نمت نهارا أضعت أمتي واذا نمت ليلا أضعت نفسي •

فأية قوة كانت له ؟ وأية همة أوتيها ؟ ولكن هو الاسلام يعطي الفرد قوة الألوف • فعمر أمة وحده وتاريخه إنما هو تاريـــخ الأمة العربية في عصرها الزاهي الذهبي • ولست مستطيعا أن

اوفيه حقه من البيان • ولذا فاني سأوجز القول جهدى وأكتفي بما ذكرت من أخلاقه الفاضلة •

والمعروف عن عمر ، رضى الله عنه ، أنه منذ أسلم كان مثال التضحية والحب لدينه • وكان محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حبا جما لا يصبر على فراقه لحظة • وقد سعد بأنه كان زوج ابنته حفصة . رضي الله عنها • وقد بان حبه للرسول الكريم يوم انتقاله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى فقد جزع جزعا شديدا وسل سيفه متوعدا من يقول إن محمدا قد مات حتى ظهر له الحق فرضى به وسكت •

وقد تولى الخلافة بعهد من أبي بكر ، رضي الله عنه ، ورضيه المسلمون جميعا • واستمر في خلافته عشر سنين وأشهرا وتوفى سنة 23 هجرية مقتولا بيد أبي لؤلؤة المجوسي عبد المغيرة بن شعبة • قتله وهو يعد الصفوف لصلاة الصبح • وقد حزن عليه المسلمون حزنا شديدا وبكوه بكاء مرا وعاش الامام عمر ، رضي الله عنه ، ثلاثا وستين سنة ؛ ثلاث وثلاثون منها في الجاهلية وثلاثون في الاسلام وهي سنون مباركة تعد بألوف السنين لما تم فيها من الأعمال المجيدة إذ لم ينقطع ، رضى الله عنه ، عن العمل لحظة • فقضى سبع عشرة منها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحمل الأذى معه في مكة وحضر الغزوات كلها معه • وكان هو وأبو بكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة السمع والبصر من الانسان • ومدة خلافته انقضت في نشر نور الاسلام وتقوية دعائمه •

هذه كلمات قليلة في سيرة الامام عمر ، رضى الله عنه ، يتجلى لكم منها فضله ، ويظهر لكم منها أثره في رفع الاسلام والمسلمين • أما عدله وزهده وورعه واقتداؤه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحدث عنها ولا حرج • فلا خلاف فيه بين الناس جميعا • يشهد له الموافق والمخالف ، والموالى والمعادى •

وقد كانت وفاته ، رضي الله عنه ، في آخر سنة 23 الهجرية ·
وقبل وفاته استأذن أم المؤمنين عائشة ، رضي الله عنها ، في أن يدفن في حجرتها مع صاحبيه ، فأذنت له : فحمد الله ودفن من الغد ، رضي الله عنه ، ورحمه رحمة واسعة وجزاه عن المسلمين خيرا · ووفقنا للاقتداء برجالنا الذين عطروا أرجاء الدنيا بسيرتهم النقية وأورثونا ملكا عريضا ونشروا دين الله في المشارق والمغارب وتعبوا فاسترحنا والسلام على من اتبع الهدى ·

عمر بن الخطاب مثل اعلى للحاكم الديمقراطي العادل

لا زلنا بصدد الحديث عن سيرة سيدنا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه • ولا شك في أنكم تأثرتم في درسنا السابق بسيرته العطرة • وكيف لا تتأثرون وهو الذى خلص الانسانية من الظلم والجور ، وضرب للناس في الفضائل مثلا يتلى على ممر الدهور والعصور ، وحقق مبدأ الاخاء والمساواة بين المسلمين والذميين ، وضحى براحته ونفسه في سبيل أداء واجبه للقيام بوظيفته ؛ لا يرعى فيها غير الحق والعدل ، مراع أوامر الله فيما أوجبه نحو الرعية ، قائم لربه بالليل ، صائم بالنهار • دائب على خدمة المسلمين يتعهد دانيهم ويستطلع أخبار قاصيهم ؟

لاجل ذلك كان لزاما علينا ان ندرس حياة عظماء الرجال من سلفنا الصالح لنقتدى بسيرتهم في حياتنا الحاضرة ونسير على اثرهم الى حيث المجد والشرف والعزة والكرامة ونحن احوج ما نكون في هذا العصر الى معرفة حياة العظماء من رجالنا معرفة يكون لها تاثير في اخلاقنا وفي نهضتنا التى نصبو اليها ونعمل بكل الوسائل للحصول عليها لان الامة اذا تذكرت مجد اسلافها دبت في نفوس ابنائها روح التنافس على الخصال الحميدة التى هى دعامة الحياة الفاضلة •

ومما اشتهر به عمر ، رضى الله عنه ، أنه كان يعس بالليل ليعرف أحوال أمته ، ويطلع على شؤونها وحاجتها ويعرف ما تشكو منه ؛ فيعمل على راحتها ، ويزيل أوصابها • وأحسن بهذا عملا • فان الخليفة الذى يعرف عنه اهتمامه بشؤون رعيته ، يتبارى عماله في التشبه به ، والسير على منهاجه • فلا عجب إذا كان عمال عمرهم أفضل حكام وجدوا فى جميع العصور • والناس على دين أمرائهم • وقد تأسى بعمر فى هذا بعض الخلفاء من المسلمين ، وكثير من الملوك الغربيين • ومما يروى من نوادره في عسسه أنه سمع مرة امرأة تقول لابنتها قومى امدقى اللبن بالماء (أى أخلطيه به) فقالت البنت : ألم تسمعى يا أمى ما كان من نداء عمر بتحريم مدق اللبن بالماء ؟ قالت الأم : إنك بمكان لا يراك فيه عمر ولا منادى عمر • فقالت : ما كنت لأطيعه في الملا وأعصيه في الخفاء • فأعجب عمر ، رضى الله عنه ، بجوابها وابتهج بنفسها العالية ، وإسلامها المتين ؛ فزوجها لأحد أولاده ، فكان من نسلها سيدنا عمر بن عبد العزيز العادل المشهور • ولم ينظر الامام عمر إلا الى ما انطوى عليه قلبها من الشعور الحي والاخلاص لله والايمان بالحق ، فلم يبال بمركزها الاجتماعى ولا بغناها وحسبها أو جمالها وإنما اهتم بدينها •

ومن استقصى أخبار عمر ، وراجع التاريخ في شأنه ؛ رأى العجب العجاب والشيء الذى يحير القلوب والألباب من ذلك أنه رضى الله عنه ، خطب فى الصحابة يوما ، بعد أن تمت له البيعة وصار أمر الخلافة الاسلامية اليه ، خطبهم فقال : أما بعد فانى كنت امرءا تاجرا يغنى الله عيالى بتجارتى ، وقد شغلتمونى عن التجارة بأمركم فماذا ترون أنه يحل لى من هذا المال ، ايريد أن يستخبرهم ويستفتيهم فيما يقدر له من مال المسلمين لينفق منه على نفسه وعياله . فتكلم القوم وعلى بن أبى طالب ساكت • فقال عمر : ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال على : لك ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف « يعنى بالحق والعدل » وليس لك من هذا المال غيره • فأخذ عمر برأى على واكتفى بالاجر الذى يغنيه عن

معالجة التجارة ولم تزد نفقته ونفقة عياله عما كان عليه قبل الخلافة • وقد أجمع المؤرخون على أنه ، رضى الله عنه ، أكثر من وعظ عماله على الأقاليم قبل بعثتهم اليها ، وشدد عليهم في مراجعة القرآن والسنة ، ونهاهم عن الظلم والجور ، وأكل أموال الناس بالباطل • ولم يعرف لخليفة ولا لملك مثل ما لعمر في هذا النصح وهذا التشديد • من ذلك أنه كتب الى بعض عماله فقال : إن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته وأشقى الرعاة من شقيت به رعيته فاياك أن تزيغ فتزيغ الرعية • وكان يرشد عماله فيقول : إياكم والهدايا فان الهدية للحاكم كالرشوة ، والرشوة حرام ومفسدة • وكان يتحرى في انتخاب الحكام متانة الأخلاق والزهد والورع وحسن السياسة وكان يحاسبهم على الكبيرة والصغيرة •

كان عامله على حمص سعيد بن خديم ، فشكاه أهل حمص الى عمر ، وسألوه عزله • وكان عمر يعتقد أنهم ظالمون له فقال اللهم لا تقل فراستي فيهم • وجمع بينهم وبينه فقال : ما تنقمون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار • فقال ما تقول يا سعيد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! إنه ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزى • ثم أتوضأ وأخرج اليهم • قال وما تنقمون منه ؟ قالوا : لا يجيب بليل • قال : يا أمير المؤمنين ! إني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم • قال : وما تنقمون منه ؟ قالوا : يوم في الشهر لا يخرج إلينا ؟ قال : نعم ليس لي خادم فأغسل ثوبي ، ثم أجففه فأمسي • قال عمر : الحمد لله لم يقل فراستي فيكم يا أهل حمص فاستوصوا بواليكم خيرا وبعث إليه بالف دينار ليستعين بها فأبقى يسيرا وفرق سائرها في اليتامى والمساكين ولم يغير عادته •

لم يكن عمر حريصا على مراقبة الحكام وسيرهم بالعدل فقط وإنما كان يهتم أيضا بمصالح الأفراد من الناحية الخلقية

والاقتصادية ، وأن يكون المسلم دائم السعي دائب الكد فـي العمل المنتج ، لان الاسلام من الشرائع التي حتمت السعي للرزق وأمرت بالكسب • إلا أنه أمر بالرفق في الطلب والتوكل على الله مع السعي ليكون الرجاء بالكسب أقوى والعزيمة على السعي أمضـى •

كان عمر ، رضي الله عنه ، أعلم الصحابة بالدين وأفقههم فيه وخشي أن يلابس نفوس العامة شيء من ظواهر الآيات التي أمرت بالتوكل فتترك السعي فجعل دأبه حض الناس على السعي وحثهم على العمل والكسب •

روى عن معاوية بن قرة قال : لقي عمر بن الخطاب ناسا من أهل اليمن فقال : من أنتم ؟ فقالوا : متوكلون • فقال : كذبتم ما أنتم متوكلون ، إنما المتوكل رجل ألقي حبة في الأرض وتوكل على الله • ثم زاد في وعظهم فقال : لا يقعد أحدكم في طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة •

وكان عمر ، رضي الله عنه ، جم التواضع يعرف كيف يوجه نفسه الى الطريق السوى • وقد عرف ما غاب عن معظم الناس إدراكه ، فأدرك أن قيمة الانسان بما في نفسه من صفاء ، وفي روحه من نقاء ، وفي قلبه من إيمان وإخلاص ، فترك الاهتمام باللباس والطعام • فكان يلبس ما ستر ، ويأكل ما حضر ، وينام على الرمل •

وقد أعجب كسرى ، ملك الفرس ، بهذا التواضع عندما حدثه رسوله أنه رأى عمر نائما تحت ظل شجرة • فقال : إن هـذا الأمير لا بد أن يغلب جميع العالمين • ولحديث هـذا الرسول قصة صورتها : أن كسرى ملك الفرس أرسل رسولا الى عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه • فلما وصل الرسول الى المدينة . يريد مقابلة الخليفة ، جعل يستهدى الى قصره • فعلم أنه لا يسكن

قصرا ، وانتهى به الى آن وصل بيتا كبيوت أفقر العرب • وهناك كان الخليفة راقدا على الرمل أمام البيت جاعلا منه وسادة أسند اليها رأسه ، ولم يكن حوله من مظاهر الحياة ما يميزه عن غيره من أفراد رعيته • فلما رأى الرسول ذلك دهش ووقف أمامه خاشعا وقال عبارته الشهيرة : « عدلت يا عمر فنمت » •

وقال الشاعر المرحوم حافظ إبراهيم يشير إلى هذه الحادثة :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا
بين الرعية عطلا وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها
سوار من الجند والأحراس حميها
رآه مستغرقا في نومه فرأى
فيه الجلالة بأسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا
ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره
من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلا
وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
آمنت لما أقمت العدل بينهم
فنمت فيهم قرير العين هانيها

وقد بلغ من تواضعه ، رضى الله عنه ، أن البشير بفتح فارس وانتصار المسلمين كان يسير بجوار بعيره وهو لا يعلم أنه أمير المؤمنين • فكان يقص عليه أخبار الفتح وهو يظن أنه فرد من الرعية وعمر يعلو البشر وجهه ويسرع حتى دخل المدينة فاجتمع عليه الناس يحيونه وينعتونه بالامارة فخجل الرجل خجلا شديدا فقال له : لا بأس عليك لقد ملأت قلبي سرورا • ومن فضائل عمر جمعه بين السياسة الدينية والسياسة الحربية والسياسة الادارية والسياسة الاجتماعية • فكان هو الذى يقيم الحدود

ويقوم بالفتوى مع كبار الصحابة • وكان يضع الخطط الحربية المحكمة ، ويزود قواد الجيوش بالنصائح التي تجلب النصر • ولن تجدوا قائدا يفوق سيدنا عمر ، رضي الله عنه • فقد كان يحرك ثلاث جيوش ، جيشا في مصر ، وجيشا في الشام : وجيشا في بلاد العجم في وقت واحد • وقد كتب الله لهم جميعا النصر المبين بالرغم من قلة المواصلات ووعورة الطريق • وسياسته الادارية هي مبدأ النظام الحكومي الصحيح في العالم فقد دون الدواوين ، ومصر الأمصار وأنشأ ما يشبه وزارة المالية والحربية وغيرهما ، وفرض الأرزاق للجنود • وكان نظامه الاداري مأخوذا من القرآن الكريم والسنة المطهرة • فكان نظاما إسلاميا بديعا نود لو أن لنا مثله لنسعد ونسترد مجدنا المفقود • وسياسته الاجتماعية مبنية على توحيد الصفوف تحت راية الاسلام ، وبث روح التسامح والتعاون بين الجماهير ، وإزالة الاختلافات بين جميع الرعية ، وإعطاء كل ذي حق حقه وقد تمتع المسيحيون واليهود وجميع الطوائف غير الاسلامية بالحرية التامة والسكينة ، وهم الى الآن يعدون عهد الامام عمر أحسن العهود التي حكموا فيها بأبناء ملتهم • وما فعل عمر هذا إلا لأنه أشرب مبادىء الاسلام عمليا وكانت أعماله مشتقة منها وبذلك ساد مملكته الواسعة ظل الراحة الوافر والسكون التام المبني على الرضا والقبول •

وكان ، رضي الله عنه . يبالغ في الحيطة والحذر حتى لا يصيب أحدا من رعيته ظلم ولا عسف • وقد قال مدللا على مبدئه السامي : لوضاع عقال بعير بأرض الفرات لخفت أن يسألني الله عنه في القيامة عمر يخاف أن يسأله عن حبل يضيع في العراق وبينه مئات الأميال ؟ اللهم لطفا بنا يدعي الناس أننا في عصر المدنية والحضارة فكيف هذا والكبير يعتدي على الصغير والغني يبتلع الفقير • ومن بعد نظره ، رضي الله عنه ، حسابه لأهله حسابا عسيرا . ومضاعفته عقابهم وقوله لهم : إن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير الى اللحم فاذا فعلتم ذنبا ضاعفت

عليكم العقاب ٠

وكان لهذا العمل أعظم الأثر في التفاف الأمة حوله وكيف لا تظاهره وهو لا يكتفي باقامة الحدود على أهله بل يضاعفها عليهم لمكانتهم منه ٠ فهل يعتبر بذلك الرؤساء الذين يلقون لأهلهم الحبل على الغارب فيعبثون في الارض ويخالفون القوانين تحت حماية آقاربهم ؟ وهل أن للمسلمين أن يفكروا في الرجوع الى القوانين الشرعية ويستلهموا الصواب من سيرة أسلافهم الطاهرين ٠

وعمر اول من جعل للأمة الاسلامية تاريخا ثانيا ، يذكر المسلمين بما لاقاه نبيهم ، صلى الله عليه وسلم ، من ظلم واضطهاد في سبيل تخليصهم مما كانوا فيه من كفر وإلحاد ، وجهل وفساد وظلام ٠ وهو التاريخ الهجرى ٠ وهو أول من أنشأ بيت المال للدولة ؛ كوزارة المالية في هذا العصر ٠ وكان إيراده مما يجمع من زكاة أموال المسلمين ، وجزية الذميين ، ومن خمس الغنائم ومواريث من لا وارث له وكان أول من جعل عقوبة شرب الخمر الجلد ثمانينا ٠ وكان كثير الحذر ، حريصا على أن يعم العدل أمور الدولة ، ويرتفع الظلم حتى يخرج من الدنيا ويقدم على ربه وهو آمن مطمئن ٠

ومما كتب من أخباره أنه كان يأخذ بيد الصبى ويلاطفه ويقول له : ادع لى فانك لم تذنب ٠

وحدثوا أن أعرابيا وقف ببابه يسأله من ماله شيئا ثم أنشد يقول :

يا ابن الخطاب جوزيت الجنة اكس بنياتي وأمهنه

قال عمر : فان لم أفعل فقال الأعرابي :

تكون عن حالى لتسألنه يوم تكون الأعطيات جنة
والواقف له المسؤول يبعثنه إما إلى نار وإما الى جنة

فبكى عمر وقال لخادمه : اعطه كذا وكذا لذلك اليوم الذى وصفه لا لشعره • فأخذ الرجل ومضى وهو يقول ليس على ظهر الأرض أخوف منك من الله يا عمر •

ومن شفقته ورحمته ، رضى الله عنه ، أنه خرج فى ليلة يتفقد احوال أمته كعادته ، فرأى بيتا من الشعر فدنا منه فسمع أنين امرأة ورأى رجلا فدنا منه وقال له : ما هذا الأنين ؟ قال : امرأة تتمخض • قال : فهل عندها أحد • قال : لا فانطلق عمر ورجع الى منزله وقال لامرأته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وبنت فاطمة الزهراء بنت النبى صلى الله عليه وسلم : هل لك فى أجر وثواب عظيم قد ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ فأخبرها • ففرحت وأخذت ما يصلح للمرأة من الخرق والزيت والسمن والتمر وغير ذلك ، ومشت خلفه حتى البيت ، فدخلت وجلست عند رأس المرأة حتى ولدت • وطلب عمر من الرجل أن يوقد نارا ففعل وجعل عمر ينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضج الطعام • وولدت المرأة فقالت أم كلثوم : يا أمير المؤمنين : بشر صاحبك بغلام • فلما سمع الرجل كلمة أمير المؤمنين ارتاع وخجل • وقال : واخجلتـــاه منك يا أمير المؤمنين ، هكذا تفعل بنفسك ؟ قال : يا أخا العرب من ولى من أمور المسلمين شيئا ينبغى أن يطلع على صغير أمرهم وكبيره ، فانه عنه مسؤول • ومتى غفل عنه خسر الدنيا والآخرة • ومن جليل نوادر عمر فى العدل وإنصاف الرعية من الحكام ما روى عن أنس قال : أتى رجل من أهل مصر الى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين ! عائذ بك من الظلم قال : ومن ظلمك ؟ قال : سابقت ابن عمرو ابن العاص ، والى مصـــر ، فسبقتـــه فجعل يضربنى بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين • فكتب عمر ، رضى الله عنه ، إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه بابنه فقدم ، قال عمر : أين المصرى ؟ خذ السوط فاضرب • فجعل يضربه • ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين • ثم قال للمصرى : اشتفيت منه ؟ قال : نعم فالتفت عمر لعمرو ؛ وهو حاكم مصر ، وقال له : مذ

كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا •

وروى أن معاوية بن أبي سفيان قال لصعصعة بن صوحان : صف لي عمر بن الخطاب • قال : « كان عالما برعيته ، عادلا في قضيته ، عاريا من الكبر ، قابلا للعذر ؛ سهل الحجاب متحريا للصواب ، رفيقا بالضعيف ، غير محاب للقريب ولا جاف للغريب»

هذه الصفات يجب أن يتصف بها كل حاكم وكل من ولى أمرا من شؤون الأمة ، ولو راعى حكام المسلمين هذه المبادىء ، لما لحقهم ما هم فيه من الذل والصغار ، وفقد حريتهم وهوانهم ، فأصبحوا مهضومي الحقوق مستباحي الذمار ؛ إذا ما رفعوا رؤوسهم رأوا فوقها عارا ، وإذا ما نكسوها أبصروا شنارا •

والكلام في سياسة عمر يحتاج الى محاضرات عدة ، ولا نقدر أن نأتي على سيرته في هذا الدرس • وخلاصة القول إن هذا الأمير الجليل والحاكم الديمقراطي، بما أوتى من مكارم الأخلاق الاسلامية ، وبما استطاع من حمل المسلمين على أن يتخلقوا بأخلاق القرآن الكريم ، أمكنه أن يجعل من أمة مبعثرة ذليلة لا شأن لها ، أمة عظيمة بل امبراطورية إسلامية كبيرة ، لها العز والسلطان والكلمة العليا في أنحاء العالم ، وجعل عدلها وعلمها يخفق على العراق كله والبصرة وأرضها وفارس والشام ومصر • ويمكننا أن نقول إن عمر بن الخطاب هو أول من وضع نظام الحكومة في الاسلام حسب مقتضيات حاجتها • ولقد حقق الله عز وجل في عهد عمر بن الخطاب ما جاء في القرآن الكريم ، أن من آمن وأصلح في هذه الحياة لا بد من أن يسود ويكون خليفة الله في أرضه • وقد قال ، وهو أصدق القائلين : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** » •

لا تقوم للمسلمين قائمة إلا بالرجوع الى ربهم والاستمساك بما جاء به قرآنهم ، وإن فى سيرة عمر بن الخطاب البراهين الساطعة والحجج الناطقة على أن المسلم الصحيح الايمان القوى العزيمة قادر على تحقيق ما جاء به القرآن • وإن العز والسلطان لا يكون إلا بصالح الأعمال • وصدق الله العظيم الذى يقول : **« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » •**

عثمان بن عفان مثل أعلى
في طهارة النفس والرحمة والشفقة

قدمن الله على المسلمين بالخلفاء الراشدين الذين نهجوا منهج النبى الأمين . وكانوا في حكومتهم عادلين ، ومن الله خائفين : ولم يغيرهم عن سلوك الطريـق القويم ما فتح فى أيامهم مـن الأقطار التي درت عليهم الدرهم والدينار •

لكن من سؤ حظ الأمة الاسلامية ، أن يحدث فى عهدها القديم المبارك فتنة شعواء ، وأن تضطرم نيران ثورة عمياء ، يقتل فيها الجارمون والأبرياء ، ويختل فيها ميزان الحكم ، ويقطع نظام السياسة العادلة فى كل الأرجاء •

ومما يؤسف له ، أن عثمان بن عفان كان حطبا لتلك الفتنة ، وهدفا لتلك الثورة ، فقتل شر قتلة • وهكذا تفعل الثورات التي تطيش فيها الأحلام ويدخل فيها اللئام •

ومن قرأ التاريخ وأنصف لا يسعه الا أن يحكم بأن عثمان كان رجلا شاذا فى التاريخ • فقد كان طيب القلب الى أقصى حـد الطيبة . ورحيما شفيقا الى منتهى الرحمة والشفقة • وكان حييا كالعذراء فى خدرها • وولد ، رضى الله عنه . بعد عام الفيل

بست سنوات . فأسلم على يد أبي بكر وزوجة الرسول ابنته رقية فلما توفيت زوجه من ابنته كلثوم • وكان في طليعة المهاجرين الأولين . وشارك في معظم الغزوات • وقد جاء في الحديث الصحيح . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشره بالجنة وعده من أهلها • وروى الترمذى عن طلحة قال : النبي صلى الله عليه وسلم : « لكل نبي رفيق ورفيقي في الجنة عثمان » • ولما توفيت أم كلثوم أراد صلى الله عليه وسلم أن يواسي الزوج الكلوم . فقال كلمته التي خلدت فخار عثمان : قالها وهو مرزوء بابنته الثانية : « يا عثمان لو أن لنا ثالثة لزوجناك » • وكان في غزوة الحديبية سفيرا بين رسول الله وبين قريش • وكان له في جيش العسرة الذى ذهب الى اليد الطولى في بلوغ غايته • وقد اشترى رضي الله عنه . بئر « رومة » بالمدينة وتصدق بها على المسلمين وكان أحد الكاتبين للوحى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وبعد وفاة النبى أمينا لأبى بكر يكتب له . ثم أمينا لعمر وكفى بذلك كله فخرا •

لكن الكمال المطلق لله وحده . والعصمة من الخطأ لا تكون إلا للأنبياء •

وعثمان ما كان نبيا وإنما هو إنسان يقع منه ما يقع من أمثاله من الخطأ والغلط •

من أجل ذلك . نستطيع أن نقول : إن عثمان كان شديد الرحمة بأقاربه وأصهاره . وكثير الحب لهم • وقد أوقعه ذلك أن ينقاد لهم ويأتي من الأفعال ما أنطق ألسنة المعادين لهم بذمه وإلقاء التبعة على عاتقه . لأنه آثر قرابته وذويه : إذ حصر فيهم الوظائف فجعل الناس ينتقدون هذه السياسة . وراحوا يبثون الدعاية ضده حتى أضرمت نار الفتنة • ورأس هؤلاء الأقارب وإذا شئت فقل شيطانهم : هو مروان بن الحكم •

مـــن هـــو مـــروان

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص . وإليه ينسب الخلفاء المروانيون • كان أبوه الحكم طريد رسول الله • فقد نفاه النبي الى الطائف لهنات ظهرت له منه ولولا قرابته من عثمان بن عفان لأنه عمه . لأنزل رسول الله به أشد العذاب •

كان مروان كاتبا خاصا بعثمان . يطلع على أسراره . ويعلم منه ما لا يعلمه سواه • وكان على ما يظهر ذا حيل ومكر ودهاء لأنه استولى على قلب عثمان • فما كان يقطع أمرا دونه • وقد تغلغل في شؤون الدولة الى حد بعيد : فيأمر وينهى فلا يرد له أمر ولا نهى • ومما يدل على تقلبه أنه تولى حكم المدينة المنورة مرات في أيام معاوية بن أبي سفيان . عميد الخلفاء الأمويين •

وقد بايع لنفسه بعد قتل عبد الله بن الزبير فتم له ذلك وصار الخليفة على مصر والشام • وتولى من بعده ابنه عبد الملك ابن مروان •

مروان وفساد الحكم فى عهد عثمان

قراء التاريخ والمتبصرون فيه لا يشكون في أن مروان بن الحكم كان عاملا قويا في إفساد الحكم في أيام عثمان • ولا ينكرون أنه هو الذى جمع حطب الفتنة . وأضرم نيرانها باطنا ، ونفض عن نفسه غبار تبعتها ظاهرا • ومن الأدلة التي لا يقف في وجهها شك حادثة محمد بن أبي بكر والمصريين الذين خرجوا من ديارهم لاعلان الشكوى وإليكم البيان :

روى الثقات أنه لما اشتد الطعن على عثمان ، وكثرت الشكوى من عماله بالاقطار الاسلامية ، خرج من مصر عدد كبير من أعيان مصر يريدون المدينة ليرفعوا ظلامتهم الى الخليفة من عامله عليهم

وهو عبد الله ابن أبي صرح • وكان خروجهم في موسم الحج ليوهموا الناس أنهم حجاج ليسلموا وليخرجوا . فلقيهم عثمان وسمع شكايتهم ، ثم ردهم مزودين بالآمال التي تبشر بصلاح الحال ، وكتب الى عبد الله بن أبي صرح يتهدده فيه إن لم يعدل ويصلح ما أفسد •

ولما عاد الجماعة تلقاهم ابن أبي صرح بما يتلقى به العصاة والمجرمين : فقبض عليهم وأوسعهم توبيخا وضربا . فخرجت جماعة أخرى يقرب عددها من الألف وساروا الى المدينة شاكين فأعلنوا في أصحاب النبي ما أصابهم من ضر وشر في بلاد إسلامية ، ثم ذهبوا الى على بن أبي طالب وطلبوا منه أن يكلم لهم عثمان لأنه أقدر على البيان وأجرأ على لومه على ما يعاملهم به عامله من الظلم والذل والهوان • دخل على على عثمان وقال له : إن القوم يسألونك رجلا مكان رجل « يعني أن يولى عليهم رجلا آخر » فانصفهم فانهم على حق • فقال عثمان للقوم: اختاروا رجلا أوله أمركم فاختاروا محمد بن أبي بكر • فكتب عثمان عهده إليه وبعث معه نفرا من المهاجرين والأنصار لينظروا فيما كان من ابن أبي صرح عامل عثمان في معاملة أهل مصر •

سار القوم ولما بعدوا عن المدينة مسيرة ثلاث ليال . رأوا غلاما أسود على بعير يسير سيرا حثيثا . فسألوه عن شأنه . فقال إنه غلام أمير المؤمنين عثمان . وانه وجهه الى العامل على مصر فسأله محمد بن أبي بكر : أما معك كتاب ؟ «يريد رسالة مكتوبة»

قال الغلام : لا •

فقال محمد : فتشوه ففعلوا فوجدوا معه رسالة مخباة فقرؤوها فاذا فيها : من عثمان بن عفان الى عبد الله بن أبي صرح : أما بعد فاذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاقتلهم . وأبطل كتابهم ولا تعمل به . وكن في عملك حتى يأتيك رأيي والسلام

فلما قرؤوه فزعوا ورجعوا من فورهم الى المدينة ومعهم الغلام • ولما استقروا بالمدينة جمعوا طلحة والزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص ومن تيسر لهم جمعه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ثم أخبروهم بقصة الغلام • فلم يعلم بهذه القصة أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان واتهمه بأنه يمالىء أهله وأقاربه ويهدم بهم سنة الرسول وسنة خليفتيه أبي بكر وعمر • ثم كانت الفتنة وعظم الخطب واشتد الكرب وحصر عثمان ثم قتل وكأنه ما كان •

ومن عجيب ما يروى في هذه الواقعة أن عليا ومن معه سألوا عثمان عن الكتاب الذى وجدوه مع الغلام وعن الخاتم الذى ختم به وعن الغلام نفسه وعن الراحلة التي ركبها الغلام . فاعترف عثمان بالخاتم والغلام والراحلة وقال : إنهما له • وأنكر الكتاب وحلف بالله أنه ما كتبه ولا أمر به • فقالوا له : كيف يخرج غلامك على بعيرك بكتاب عليه خاتمك ولا تعلم به ؟ ثم تفرسوا في خط الكتاب فعرفوا أنه خط مروان ، واقرهم على ذلك عثمان . لكنه رحمه الله لم يبحث كيف تمت الحيلة عليه فيحترز من مثلها لكن قضاء حم وآجم انتهى والأمر كما قال الشاعر :

يقضى على المرء في أيام محنته
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وقد طلب المصريون من عثمان أن يمكنهم من محاسبة مروان على ما فعل بمحضر جمع من الصحابة لينظروا كيف كتب وكيف اجترأ على الخليفة وعليهم . فلم يرض عثمان ولم يحرك ساكنا على ابن عمه مروان . فعظمت بذلك الفتنة وكانت الثورة •

ومما ينبىء عن خضوعه لأقاربه ، وتسلط مروان عليه بالحيلة

والمكر حتى يشبعوا نهمهم ويقضوا من الدولة لبانتهم . ما روى أن عبد الله بن الأرقم . خازن بيت مال المسلمين في أيام عثمان جاءه صك عليه خاتم عثمان ليدفع به ما لا لبعض أقارب عثمان الذين جاؤوا من مكة فاستكثر عبد الله المال فرد الصك وأبى أن يدفع شيئا للقوم • فرفع أمره الى عثمان فاحضره بين يديه وقال له : إنما أنت خازن فما حملك على ما فعلت ؟ قال عبد الله أنا خازن بيت مال المسلمين لا بيت مالك ولست المسؤول وحدك عنه دنيا وآخرى • ثم استقال وقال : والله لا ألي بيت مال المسلمين في أيامك أبدا •

أيها الاخــوان

يتحتم علينا أن نفكر فيما فعله عبد الله بن الأرقم . وأن نوازن بينه وبين وزير المالية في اى دولة كبيرة بأوروبا . في هذا العصر الحديث • يقول وزير المالية للأمة الاسلامية في أيام الخليفة الثالث :

لست وحدك المسؤول بين يدى الله عن مال الأمة الاسلامية . ولكني شريكك في ذلك وحق على من يحاسب على شيء أن يعرف وجه أخذه ووجه إنفاقه •

لم يقتصر عبد الله وزير المالية في عهد عثمان على أن امتنع عن إخراج المال من حرز • حتى يتحقق ويتأكد من صحة الصك بل استقال وحلف ألا يكون وزيرا للمالية في ذلك العهد •

أليس هذا عجيبا في بابه ؟ أليس هذا حجة لنا على ما قلناه مرات كثيرة في دروسنا . من أن الاسلام علم أوروبا كيف يكون الشرف وكيف يكون الحزم والعزم وكيف تكون الكرامة كرامة الشخص وكرامة الأمة • فانتم ترون أيها الاخوان أن الذى يقع أحيانا في بعض الممالك الأوروبية من استقالة وزير لمخالفة رأيه في أمر خطير قد وقع مثله في الاسلام حين كانت أوروبا فــي

غياهب الظلمات وفي مرتع الجهالات ٠

ومن قبل قول هذا الوزير قال علي بن أبي طالب ، وهو يعاتب عثمان :

إذا كنت ما كتبت الكتاب ، ولا أمرت به . وإنما الذي فعل كله غيرك وفي بلدك فأنت ضعيف ٠ ومن كان كذلك لا يصلح أن يتولى من أمر المسلمين شيئا ٠ فاختلع وأرح نفسك وغيرك ففي ذلك الخير الكثير ٠ فانك لست كأبي بكر وعمر ، إنهما وليا هذا الأمر فأبعد أهلهما عنه ٠ وعام فيه أهلك عوم السابح في اللجة إنهم رآوا فيك ضعفا فتعلقوا به . ودخلوا فيما لا يحق لهم الدخول فيه وسترى عاقبة عملهم وتندم حين لا ينفعك الندم هذا ما تيسر لي سرده عليكم عسى أن ننتقع بما فيه من هدى وصلاح ٠ والله ولينا جميعا وهو حسبنا ونعم الوكيل ٠

والسلام عليكم ورحمة الله ٠

علي بن أبي طالب مثل أعلى
في الفراسة والتفقه في الدين

هو ابن عم المصطفى . صلى الله عليه وسلم • وقد سبق الناس جميعا الى الاسلام هو وخديجة وأبو بكر رضى الله عنهم أجمعين • وقد ولد بمكة سنة 600 ميلادية ، أى باحدى وعشرين سنة قبل الهجرة وهو زوج الطاهرة البتول فاطمة الزهراء . سلام الله عليها . وأبو الحسن والحسين . رضى الله عنهما : وآخر الخلفاء الأربعة الراشدين ، رضوان الله عليهم أجمعين • وقد اجتمع فى هذا السيد الكريم . والامام العظيم . من المثل العليا ما لم يجتمع فى غيره • فقد كان أتقى الأتقياء وأسخى الأسخياء وأفقه الفقهاء فى الدين • وكان شديد التمسك بالحق لا يحيد عنه قيد أنملة . يغلب بتقواه الهواء ولا يستطيع الهوى أن يغلبه . صريحا لا ينطق إلا بما يوحي به ضميره الحي السليم ، صادق الايمان ، قوى الحجة والبرهان • وقد أوتى من الفصاحة والبلاغة ما لم يلحقه فيه غيره على الاطلاق •

ولما أفضت اليه الخلافة ، والفتنة قائمة بسبب مقتل عثمان رضى الله عنه ، جاءه المغيرة بن شعبة ناصحا فقال له : يا أمير المؤمنين إبق عمال عثمان ولا تعزل منهم أحدا حتى يتسقر الحال ويستتب الأمر . فأبى عليه ذلك فقال له المغيرة : إبق معاوية واعزل سائرهم يستقيم لك الأمر ببقاء معاوية . فأبى عليه أيضا

فتركه المغيرة . ثم رجع اليه من الغد فقال : الحق هو ما رأيت يا أمير المؤمنين . فلما علم ابن عباس ذلك قال لعلى : لقد نصحك فى الأول وغشك فى الثانية . ومن الحق أن عليا لو عمل بنصيحة المغيرة فى إبقاء عمال عثمان لهدأ الحال ولاستتب له أمر الخلافة . ولكن ضميره الحي أبى عليه ذلك لامر كان فى الكتاب مسطورا .

ومما يدل علي سلامة قلب علي ، وصدق إيمانه ، وأنه كان يدور مع الحق أينما دار ، أن طلحة والزبير رضى الله عنهما لما نكثا بيعته وخرجا عليه ، ثم قتل ابن جرموز الزبير غيلة وجاء ليبشر عليا بقتله إياه فبشره علي بالنار . ولما مر بطلحة وهو قتيل ترحم عليه وأثنى عليه خيرا . وكان طلحة يحارب عليا مع أصحاب الجمل . وهذا من أعجب الأمور : رجلان نكثا بيعته وخرجا لمحاربته يبشر قاتل أحدهما بالنار ويترحم على ثانيهما ويثنى عليه خيرا وفى هذا ما ينفر كثيرا من أصحابه عنه فلو كان يريد الدنيا لشكر لابن جرموز وسكت عن الترحم على طلحة ولكنه كان يريد الأخرة فلا ينطق لسانه الا بالحق ، ولا يعمل الا ما يراه حقا ولو باجتهاد منه مبتغيا بذلك وجه الله لا غيره .

قد حالف الحق لا يبغى به بدلا
فصار بالحق والايمان مقرونا

فقه علي

كان علي كرم الله وجهه أعلم الصحابة وأفقههم . وكان الخلفاء قبله : أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، يستشيرونه فيما يرفع اليهم من الاقضية ، ويرجعون اليه فى المعضلات . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : أقضاكم على . ورووا أيضا أنه عليه الصلاة والسلام قال لما بعثه قاضيا على اليمن : اللهم اهد قلبه وثبت لسانه . قال علي : فما شككت بعد ذلك فى قضاء بين

إثنين • وكان يقول ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت • وقالت عائشة رضي الله عنها في حق علي : إنه لأعلم الناس بالسنة •

قضـــاء علـــي

كان الصدر الأول من المسلمين ، الذين عرفوا روح الاسلام وتقمصوها ، أن القوانين الالهية ما وضعت الا للمصلحة العامة ولخدمة الانسان ومنفعته وصيانة حقوقه • وكان هذا رائدهم في أحكامهم • وقد تركوا لنا من آيات العدل ما لا يمحوه الزمان ولكن ما لبث هذا العصر الذهبـي غير قليل حتـى خلفه عصور الشهوات فاصبح القانون هو المخـدوم والانسان هـو الخادم . ومصلحة القانون فوق مصلحة الأشخاص ولنضرب مثلا لنبيـن الفارق بين العهدين :

سرق خدم لحاطب بن بلتعة ، أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . وكان ذلك في عهد علي كرم الله وجهه وقبض عليهـم فسألهم علي : هل سرقتم ؟ قالوا : نعم

قال : ما الذي حدا بكم أن تسرقوا ؟

قالوا : نحن نرعى لفلان غنمه وقد ضن علينا بأجرنا ولم يكن عندنا ما نقتاته • فأحضر علي سيدهم وسأله عما أخبر به خادموه فأقر بما قالوا • فعاقبه وقال له : إذا عدت الى مثل ما فعلـت وسرق أجراؤك فاني لا أقطع أيديهم ولكن أقطع يدك أنت أعفو عن السارقين •

وقد قرأت من زمان غير بعيد أن أحد العاطلين في أنجلتـرا سرق رغيفا بعد أن أعيته الحيل في إيجاد عمل فلم يفلح وقد حكم عليه القاضي بشهرين مع الشغل وتكاد القوانين الوضعية تجمع على عقوبة السارق مهما كانت الظروف المخففة •

نعم احترام القوانين أمر مسلم به ما دامت تقيم عدلا وتهدم ظلما وترفع حقا وتخفض باطلا ، ولكن هذه القوانين يجب أن تتكيف بالزمان والمكان والانسان • فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوقف عقوبة قطع يد السارق في عام الرمادة أو عـــام القحط حينما قلت الأرزاق واشتد الجدب وزادت السرقات مع العلم بأن قطع يد السارق أمر سماوي واجب التنفيذ ، إلا أن عمر يفهم روح الاسلام والغاية التي يرمي اليها من الاصلاح في جميع نواحي الحياة ، وأن الله بعباده رؤوف رحيم ، كما أنه يفهم مهمة القاضي والحاكم وأنها للاصلاح أقرب منها للعدل • ولو قارنا بين الحكام والقضاء في صدر الاسلام وما هم عليــه اليوم لوجدنا البون شاسعا : الأولون كانوا يسهرون على رعيتهم ويعرفون أخبارهم ومواضع الضعف فيصلحونها ويختلطون بهم حتى يتبينوا بأنفسهم شكاياتهم وأعمالهم • أما اليوم فبين الحاكم والمحكوم حجب وتكاد الطبقات لا يعرف بعضهم بعضا الا عــن طريق الجرائد والمجلات • ومن الحكام والقضاة من يعرف عن سكان باريس وأحوالها ولنــدن ومــا فيهــا أكثر ممــا يعرف عن جيرانه إلا القانون والقانون بحروفه لا بد أن يطبق أصاب أم أخطأ وكثيرا ما يكون الحرص على تطبيــق القانون مضيعــا للحق الذي قصد نصرته •

إن مهمة القاضي ليست في الحقيقــة تطبيق القانون فحسب وإلا كان أشبه بالجلاد والشرطي ، وإنما من أهم وظيفته معرفة كيف نشأت الجريمة وكيف وقعت كما يجب عليه أن لا يتسرع في الحكم قبل أن يجتهد ويتثبت فيه ، وأن يتفرس في نفسية المجرم ، والفراسة تنشأ عن جودة القريحة وحدة الذهن وصفاء الفكر وفي الحديث الشريف : اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظــر بنور الله •

إن فراسة القاضي من أكبر ما يهديه الى معرفة حقيقة الأمر الذي ينظر فيه • وكم استخرجت حقــوق بالفراســة ، وصينت

دماء وأعراض فالقاضي لاجل أن يكون قضاؤه صحيحا . في الحادثة التي ترفع إليه ، ولا يبني حكمه على السماع من الروايات التي تختلف باختلاف قوة الذاكرة وضعفها ، وشدة الملاحظة وفتورها ، وسلامة الخلق وفساده • وكثيرا ما تضيع الحقيقة بين هذه الاعتبارات ويفلت المجرم من القصاص فيعيث في الارض فسادا • وأن يكون عالما بحكم الشرع فيها بعد إحاطته علما بما ينظر فيه إما نصا أو اجتهادا وهو من أهل الاجتهاد • وأن يكون عادلا في تطبيق الحكم ، لان قوة العدل تصدع كل ظالم حائد عن الطريق المستقيم •

امثلة من قضاء علي

قد كنا قدمنا في هذا الحديث دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بالهدية وقوله : أقضاكم علي ما كان عليه من الذكاء والفراسة مما لم يتهيأ إلا للقليلين من قضاة العدل • وهاكم أمثلة من قضائه استعان في كثير منها بفراسته التي لا تخيب ولا تخطيء •

جيء الى عمر بن الخطاب بامرأة قد تعلقت بشاب من الأنصار وكانت تهواه . فلما لم يساعدها احتالت عليه فأخذت بيضة فالقت صفرتها وصبت البياض على ثوبها وبين فخذيها ثم جاءت الى عمر صارخة فقالت هذا الرجل غلبني على نفسي وفضحني في أهلي وهذا أثر فعله • فسأل عمر النساء فقلن ببدنها وثوبها أثر المني فهم بعقوبة الشاب فجعل يستغيث ويقول يا أمير المؤمنين تثبت في أمري والله ما أتيت فاحشة وما هممت بها فلقد راودتني عن نفسي فاعتصمت فقال عمر : يا أبا الحسن ما ترى في أمرها ؟ فنظر علي ما على الثوب ثم دعا بماء حار شديد الغليان فصب على الثوب فجمد ذلك البياض ثم أخذه واشتمه وذاقه فعرف طعم البيض وزجر المرأة فاعترفت •

وحكى ابن القيم أن شابا شكى الى على رضى الله عنه فقال : إن أبى سافر فى صحب له فعادوا ولم يعد أبى فسألتهم عنه ، فقالوا : مات • فسألتهم عن ماله ، فقالوا : ما ترك شيئا • وكان معه مال كثير • وترافعنا الى شريح فاستحلفهم وخلى سبيلهم فأمر علي رجال الشرطة ووكل كل رجلين منهم القبض على كل واحد من أهل القافلة ، وأوصاهم أن لا يمكنوا بعضهم أن يدنوا من بعض . ولا يمكنوا أحدا يكلمهم • وقام رجال الشرطة بتنفيذ الأمر • ثم دعا كاتبه وأمره بتسجيل أجوبة الجناة واحدا واحدا وأدخل أولهم وألقى عليه الأسئلة الآتية : أخبرني عن أبي هذا الفتى أى يوم خرج معكم ؟ •

وفى أى منزل نزلتم ؟

وكيف كان سيركم ؟

هل مرض قبل موته ؟

ما هى العلة التى مات بها ؟

كيف أصيب بماله ؟

من الذى تولى غسله ؟

ومن تولى الصلاة عليه ؟

وفى أى مكان دفن ؟

بأى شيء أوصى ؟

وبعد أن سجل الكاتب أجوبة الرجل ، كبر على وكبر الحاضرون والمتهمون لا علم لهم إلا أنهم ظنوا أن صاحبهم قد أقر عليهم • ثم دعا آخر بعد أن غيب الأول عن مجلسه . فسأله كما سأل صاحبه • ثم الآخر كذلك حتى عرف ما عند الجميع • فوجد كل واحد منهم يخبر بغير ما أخبر به صاحبه • ثم أمر برد الاول فقال له : يا عدو الله قد عرفت عنادك وكذبك بما سمعت من أصحابك وما ينجيك من العقوبة إلا الصدق • ثم أمر به الى السجن وكبر وكبر معه الحاضرون • فلما أبصر القوم الحال لم يشكوا

أن صاحبهم قد أقر عليهم • فدعا آخر منهم فهدده فقال : يا أمير المؤمنين ، والله لقد كنت كارها لما صنعوا • ثم دعا الجميع واحدا بعد واحد ، فأقروا بالقصة ، واستدعى الذى فى السجن وقال له : قد أقر أصحابك ولا ينجيك سوى الصدق فأقر بكل ما أقر به القوم • وبناء على ذلك قضى سيدنا على • كرم الله وجهه باعدام رجال القافلة جميعهم وإلزامهم باداء غرامة لأولياء الهالك مساوية لما ضاع من المال •

قطع رجل فرج امرأته فقضى عليه بأن يؤخذ منه دية الفرج ويجبر على إمساكها حتى يموت وإن طلقها أنفق عليها • قال ابن القيم رحمه الله :

لله ما أحسن هذا القضاء وأقربه الى الصواب فأما الفرج ففيه الدية كاملة اتفاقا • وأما إنفاقه عليها إن طلقها فلأنه أفسدها على الأزواج الذين يقومون بنفقتها ومصلحها فسادا لا يزول • وأما إجباره على إمساكها فمعاقبة له بنقيض قصده فانه قصد التخلص منها بأمر محرم ، وقد كان يمكنه التخلص بالطلاق فعدل عن ذلك فكان جزاؤه أن يلزم بامساكها الى الموت •

خاصم غلام من الأنصار أمه الى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فجحدته • فسأله البينة فلم تكن عنده • وجاءت المرأة بنفر فشهدوا أنها لم تتزوج ، وأن الغلام كاذب عليها ، وقد قذفها . فأمر عمر بضربه • فلقيه على ، رضى الله عنه • فسأل عن أمرهم فدعاهم ثم قعد فى مسجد النبى ، صلى الله عليه وسلم وسأل المرأة فجحدت • فقال للغلام اجحدها كما جحدتك فقال : يا ابن عم رسول الله . إنها أمى قال اجحدها وأنا أبوك والحسن والحسين أخواك • قال قد جحدتها • فقال على لأولياء المرأة : هل أمرى فى هذه المرأة جائز ؟ قالوا : نعم وفينا أيضا • فقال على أشهد من حضر أنى قد زوجت هذا الغلام من هذه المرأة الغريبة منه • يا قنبر ائتنى بطينة فيها دراهم • فأتاه فعد أربعمائة وثمانين درهما . فقذفها مهرا لها . وقال للغلام : خذ بيد امرأتك

ولا تأتنا إلا وعليك أثر العرس • فلما ولى قالت المرأة يا أبا الحسن الله الله هو النار هو والله ابنى • قال كيف ذلك ؟ قالت: إن إخوتى كانوا يطلبون ثأرا من إحدى القبائل فندبوا للأخذ به زنجيا شجاعا . ووعدوه إن نجح فى الأخذ بثأرهم أن يزوجوه منى • فرجع مكللا بأكليل النصر . فزوجونى منه وأنا مكرهة فحملت بهذا الغلام •

وخرج الرجل غازيا فقتل • وبعثت بهذا الغلام الى بنى المصطلق فنشأ فيهم . وأنفت أن يكون ابنى • فقال على ألحقه وثبت نسبه

دفع رجلان . من قريش . الى امرأة دينار وديعة وقالا : لا تدفعيها الى واحد منا دون صاحبه • فلبثا حولا ثم جاء أحدهما فقال : إن صاحبى قد مات فادفعى الى الدنانير • فابت وقالت إنكما قلتما لى تدفعيها الى واحد منا دون صاحبه فلست بدافعتها اليك • فتوسل إليها بأهلها وجيرانها حتى دفعتها إليه • ثم لبثت حولا أخر فجاء الآخر فقال : ادفعى الى الدنانير • فقالت إن صاحبك جاءنى فزعم أنك قدمت فدفعتها إليه • فاختصما إلى عمر فأراد أن يقضى عليها . فقالت ارفعنا إلى على فترافعا بين يدى الامام وبعد الأسئلة وتحليل نفسيات الخصمين . ظهر له أن المرأة صادقة طيبة القلب ، فحكم بأن المرأة لا تجبر على تسليم الوديعة إلا متى حضر الآخر وتنفست المرأة الصعداء لأنها تعتقد أن الأول الذى غرر بها واحتال عليها فى أخذ الوديعة لا يحضر لأنه إذا حضر لأخذ بجريمته وأودع السجن •

أيهـــا الاخـــوان

هذا ما تيسر لى أن أقصه عليكم فى سيرة سيدنا على . كرم الله وجهه . وهى سيرة مليئة بالبطولة والعظمة والرشد والهدى : مليئة باليقين والاخلاص • فرضى الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مسكنه ومأواه • والسلام عليكم ورحمة الله •

عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين مثل أعلى للورع والعدل

أنتم تعلمون أننا مأمورون من قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أن نلتزم طريق الخلفاء الراشدين • فقد قال : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجد » ولو أنكم تتبعتم سيرة هؤلاء الراشدين لرأيتم أنهم كانوا قدوة حسنة في الاسلام وأنهم كانوا واقفين عند أمر الله ونهيه لا يتجاوزون ذلك . إن كثيرا من أخبار عمر بن عبد العزيز يراه الناس شيئا عجابا أو كالعجاب وغريبا أو كالغريب في هذا العصر وكيف لا يكون كذلك ، وقد نقل الرواة الثقات أن رجلا دعا له فقال : أبقاك الله يا أمير المؤمنين » • فقال عمر : هذا شيء قد فرغ منه فادع لي بالصلاح والتوفيق • ولا ريب أن كلا منا يحس ويشعر بأن الحياة أحب الاشياء الى الانسان ، ما دام سليم الحواس ، ومعتدل النفس • فمن لم يحفل بالحياة وطول العمر في هذا العالم ، كان عجيبا وغريبا • هذا واني لا أقدر ان أذكر لكم سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز مفصلة ، فهذا غير ميسور لي ولا لغيري لان تاريخه كالبحر الزاخر لا تحصى عجائبه ولا يسهل استخراج جواهره •

وقد تولى عمر الخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك في

السنة التاسعة والتسعين • وذلك أن سليمان أوصى له بها حين احتضر وآثره على يزيد ومسلمة ابني عبد الملك •

ولا تحسبوا ، أيها الاخوان ، أن عمر بن عبد العزيز نشأ منذ طفولته زاهدا ورعا ، فقد سجل التاريخ أنه رحمه الله كان فى أول نشأته يحب النعيم والترف كغيره من أبناء الأمراء والعظماء يدلكم على هذا ما رواه البخارى فى التاريخ عن حجاج الصواف قال : أمرنى عمر بن عبد العزيز ، وهو وال على المدينة المنورة أن أشترى له قميصا ، فاشتريته بأربعمائة درهم • فلما عرضته عليه ولمسه لم يرض به بل قال : ما أخشنه • ولما ولى الخلافة أمرنى أن أشترى قميصا وألا أغلو فى ثمنه فاشتريته بأربعة عشر درهما • فلما عرضته عليه ولمسه قال : سبحان الله ما الينه وهل يلبس كل المسلمين مثل هذا ؟ •

ويشبه هذا ما حكى أنه ، رضى الله عنه كان له غلام مملوك لزمه منذ كان واليا على المدينة المنورة ، واختصه بخدمته فقال له يوما بعد أن صار خليفة للمسلمين : ماذا ترى من حالنا الآن يا درهم ؟ قال درهم : إنى عهدتك قبل الخلافة عطرا لباسا ، فاره المركب طيب الطعام يعنى أنه كان متأنقا فى الثياب والطعام والشراب ، والدابة التى يركبها ، والعطر الذى يتطيب به » فلما وليت الخلافة رجوت أن أستريح فزاد عملى وصرت أنت فى عناء • فبكى عمر وبعد أيام أحضر الغلام بين يديه ثم قال له اذهب فأنت حر لوجه الله ، وانصرف الى حيث تريد ودعنى فيما أنا فيه حتى يجعل الله لى منه مخرجا •

ولما ولى الخلافة أبطل بدعة من أقبح البدع ، وسن بدلا منها سنة من خير السنن • فقد كان خطباء المنابر يوم الجمعة يختمون خطبهم بلعن على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، حتى يربوا على كراهته ! فأمر الخليفة العادل أن يتركوا هذه البدعة الشنعاء ، وأن يختموا خطبهم بقول الله تعالى : « **إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى،وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى**

يعضكم لعلك تذكرون » • وقد أجمع العلماء على أنه ، رضى الله عنه ، كان ذا علم غزير ، وعقل كبير • وصلاح وفضل • وزهد وورع وعدل •

أما عدله وحزمه وشفقته على المسلمين ، وحسن سيرته فيهم وخشيته من ربه وتقواه ؛ فحدث عنها ولا حرج يتجلى لنا ذلك عندما نقرأ في تاريخه • فقد كان ، رضى الله عنه ، كثيرا ما يتفقد أحوال رعيته ويسأل عن أخبار سيرة الولاة فيها • خرج يوما هو ومولاه مزاحم ، فلقيهما راكب من أهل المدينة ، فسأله عمر عن حال الناس بها وسيرة الوالى فيهم • فقال : إني تركت المدينة والظالم بها مقهور والمظلوم بها منصور ، والغنى موفور والفقير مجبور • فسر عمر بذلك وقال : والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب الى مما طلعت عليه الشمس • وورد أنه وفد إليه بلال بن أبي بردة بن موسى الأشعرى ، فهنأه بالخلافة ثم لزم المسجد يصلي ويقرأ القرآن ليله ونهاره • فدس عمر إليه ثقة له فذهب الرجل الثقة الى بلال وقال له : إن يسرت لك ولاية العراق فما تعطيني ؟ فضمن له مالا كثيرا فأخبر الخليفة بذلك فقبض على بلال ونفاه • وكتب الى عامله بالكوفة : إن بلال غرنا بالله فكدنا نغتر به • ثم سبكناه فوجدناه كله خبثا •

ولو حدث محدث فقال : إن عمر بن عبد العزيز كان من أكبر بناة (الديمقراطية) فى العالم ، ومن أعظم الذين أقاموا دعائم العدل والمساواة بين أفراد البشر على ظهر الارض ما كان قائلا الا حقا • فقد كانت أطفاله تخرج الى الطرقات ، وتختلط بأولاد الفقراء والمساكين في الحارات ، وترتع وتلعب معهم • ولقد خرج ولده في يوم من الأيام وأخذ يلعب مع أترابه في السن فشجه غلام وسال الدم من وجهه . فأخذ الخدم الغلام وهو يبكي وأدخلوه الى بيته لينظروا ما تأمر به زوجة الخليفة ، وهي فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، فسمع عمر جلبة في البيت فذهب ليرى ماذا جرى فرأى غلاما صغيرا يبكي وله أم تتضرع

الى زوجته لتغفر لابنها ذنبه وخطأه • فسأل عمر عن سبب هذه الجلبة فحدثوه بما كان ، وأخبروه بأن الغلام الشاج يتيم ، وأن أمه أيم لا زوج لها ، ومسكينة لا ذنب عليها فيما اقترفه ولدها فرق عمر لليتيم وأمه ، وقال للخادم : اسألوا المرأة للغلام عطاء مع اليتامى ؟ (يعني سلوها هل له شيء مقدر في بيت المال) فقالت : لا • فقال عمر : اكتبوه في سجل اليتامى المستحقيـن للمعونة . فلما سمعت فاطمة زوجته قوله غضبت وقالت لعمر : ما أشد خوفي على أبنائي من الفقراء واليتامى بعد الذى فعلت فالتفت إليها عمر وقال : العفو والصفح أولى • قال تعالى : **وأن تعفوا أقرب للتقوى** » وقال : « **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** » فسكتت زوجته وكظمت غيظها • فقد كان عمر ، رضوان الله عليه ، يرى أنه مسؤول بين يدى ربه عن الرعية ، وأنه لا أمر له ولا نهى بجانب أمر الله ونهيه يدل على هذا أنه ضربت نقود للدولة في عهده مكتوب عليها : أمر عمر بالوفاء • فلما اطلع عليها قال : غيروها واكتبوا عليها أمر الله بالوفاء والعدل •

بقي أن تعرفوا شيئا من تواضعه وحلمه وخوفه من ربه ، من ذلك أنه كان عنده قوم ذات ليلـة إذ نعس السراج ، فقام اليـه فأصلحه فقيل له : يا أمير المؤمنين هلا أمرتنا فأصلحناه ؟ قال : وما ضرني قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز •

هذا ما كان بين عمر وبين الخلق • وأما ما كان بينه وبين الخالق . فتقول بنت عبد الملك بن مروان زوجته ، حين سئلت عن عبادته : « ما كان عمر بأكثر الناس صلاة ولا أكثرهم صياما ولكن ما رأيت أخوف الله منه • لقد كان يذكر الله في فراشه . فينتفض انتفاض العصفور حتى نقول ليصبحن الناس ولا خليفة لهم • ودخلت عليه يوما في المصلى فرأيته يبكي ، فقلت له : ما يبكيك يا عمر ؟ قال : يا فاطمة إني تقلدت أمر أمة محمد عليه

السلام فتفكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، والمظلوم المتهور ، والغريب الاسير • والشيخ الكبير وذوي العيال الكثيرة والمال القليل وأشباههم في أقطار الارض وأطراف البلاد : فعلمت ان ربي سيسالنــي عنهم يوم القيامــة فخشيت الا اجد حجة أمام الله فبكيت •

ومن شدة خوفه من ربه ، أنه كان يقول لجلسائه : من صحبني منكم فليصحبني على خمس خصال : يدلني من العدل الى ما لا أهتدي إليه . ويكون لي على الخير عونا . ويبلغني حاجة ما لا استطيع إبلاغها . ولا يغتاب عندي أحدا ، ويؤدي الامانة التــي حملها مني ومن الناس • فاذا كان كذلك به والا فهو خارج من صحبتي والدخول علي •

وقد كان من سوء طالع المسلمين ، في عصره ، أن مدته لــم تطل • فقد كانت خلافته سنتين وخمسة أشهر • وكان عمره تسعا وثلاثين سنة حين مات • وقد دس طلاب الدنيا من ورثة الملك له السم بيد خادم طعامه وشرابه فلما أحس عمر بدنو أجله ، اشترى موقع قبره ولم يتجاوز مرضه تسعة أيام • وكان ذلك في شهر رجب سنة إحدى ومائة • فقال جرير يرثيه :

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا   يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمرا عظيما فاصبرت له   وصرت فيه بحكم الله يا عمر
فالشمس طالعة ليست بكاشفــة   تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

فرحم الله عمر وجازاه عن المسلمين خيرا • ورحم الله من كتفى بالموت واعظا • فكل حي يموت والموت واعظ صموت ورحم الله من قال :

يـــا ساكـن الحجـرات مـــا   لـــك غيـــر قبـرك مسكـن
مـــالي رأيتـــك تطمــــ   ـــئن الـى الحيـــاة وتركـن
وغـــدا تصيـر الـى القبـو   ر وفـــي الثيـاب مكفـــن

وإذا بأهلك قد بكوا جزعا عليك ورنتوا
فإذا مضت لك جمعة فكأنهم لم يحزنوا
والناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن

فسبحان من يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين •
وإنا لله إليه راجعون • وسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء
وإليه ترجعون •

حمزة بن عبد المطلب
أسد الله وأسد رسوله

إن الله ، سبحانه وتعالى ، أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم للناس كافة . فدعاهم الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . ولكن قومه أبوا إلا العناد والجحود والتمادى في إيذائه من اتبعوه وكان أشدهم إيذاء وأكثرهم سفاهة أبو جهل عمرو بن هشام ، يدل على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان جالسا عند الحجون بمكة إذ مر به أبو جهل فآذاه بلسانه ، وقال فيه بعض ما يكره من العيب في دينه . فسمعت ذلك مولاة لصفية بنت عبد المطلب ، أخت حمزة ثم انصرف أبو جهل الى نادى قريش عند الكعبة في المسجد وجلس مع أصدقائه . وبعد برهة أقبل حمزة من صيده وقنصه ، فلما مر بمولاة أخته صفية قالت له : يا أبا عمارة وهي كنية حمزة : والله لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد من أبي جهل لحزنت ؛ إنه صب التراب على رأسه ، ووطىء برجله عاتقه وآذاه وسبه . فقال لها حمزة : أرأيت هذا الذى تقولين وأبصرته ؟ قالت : نعم . فلما سمع كلامها امتلأ غيظا . فانطلق الى المسجد يسعى ليقتص من أبي جهل . ولما دخل المسجد جعل ينظر الى الحاضرين ، دون أن يتكلم وسمات الغضب بادية على وجهه . وما أن وقع نظره على أبى جهل جالسا وسط

القوم ، حتى أقبل نحوه ورفع القوس التى كانت بيده حينذاك وضربه على رأسه فشجه شجة منكرة وقال : أتشتم ابن أخى وأنا على دينه فاردد على ان استطعت إن استطعت • فسكت أبو جهل ولم ينه بحلمه لان حمزة كان قويا وقامت رجال من بني مخزوم عشيرة أبى جهل لينصروه فمنعهم أبو جهل معترفا بما فعل . وقال لهم . دعوا أبا عمارة فانى سببت ابن أخيه سبا قبيحا . وأهنته إهانة بليغة •

أعلن حمزة بعد ذلك إسلامه فذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعه وقال : أشهد انك لصادق فاظهر دينك فانى أعاهدك على النصرة فى سبيل الله حتى النهاية • فسر الرسول باسلامه سرورا عظيما . ولما أسلم عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع فكفوا عن بعض ما كانوا يقترفون من الأذى • ولما تغلغلت العقيدة فى قلب حمزة وامتزج الايمان بلحمه ودمه قال :

حمدت الله حين هدى فؤادى الى الاسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز خبير بالعباد بهم لطيف
اذا تليت رسائله علينا تحدر دمع ذى اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها بآيات موضحة الحروف
وأحمد سيد فينا مطاع فلا تغشوه بالقول العنيف
فلا والله نسلمه لقوم ولما نقض فيهم بالسيوف

ولزم حمزة رسول الله بعد إسلامه وهاجر معه . وأول راية عقدها النبى لأحد من المسلمين فى قتال المشركين كانت لحمزة وشاهد غزوة بدر وأبلى فيها بلاء مشهودا . حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده إنه لمكتوب فى السماء السابعة حمزة أسد الله وأسد رسوله . وقاتل فى غزوة أحد بين يدى رسول الله بسيفين لكنه قتل بعد أن قتل واحدا وثلاثين من شجعان الكفار • وكل ذلك فى السنة الثالثة من الهجرة • وذكر البخارى فى كتاب المغازى من صحيحه ، أن الذى قتل حمزة

هو وحشي بن حرب ، وكان مملوكا لجبير بن مطعم ، وكان عم جبير قتل في غزوة بدر • فلما كانت غزوة أحد قال جبير للوحشي : إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق • وكان الوحشي اذا اقذف بحربته قلما يخطيء بها شيئا • فلما التقى الجمعان رأى حمزة يهد الناس هذا فاستتر له وراء شجرة وضربه بحربته ضربة أصابت بطنه ، ثم تركه ورجع الى عسكر المشركين فأخبرهم فأعتقوه • بعد ذلك ذهبت هند زوجة أبي سفيان الى محل الواقعة فوجدته طريحا فبقرت بطنه وأخرجت كبده منها ثم جدعت أنفه وأذنيه وتركته • ولما وجد النبي حمزة وقد مثل به شر تمثيل ، وعلم أن هندا امرأة أبي سفيان هي التي مثلت به حزن حزنا لم يحزن مثله في حياته ثم قال : رحمك الله يا حمزة لن أصاب بمثلك كنت وصولا للرحم ، فعولا للخيرات ولئن ظفرت بقريش في موطن المواطن لأمثلن بسبعين منهم مكانك • فنزل قوله تعالى :

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » •

بعد ذلك أقام الوحشي بمكة حتى فتحها المسلمون . ففر الى الطائف فمكث بها • فلما خرج وفد الطائف الى الرسول بمكة ليسلموا ، ضاقت به الحيل ، وأراد أن يلتحق بالشام فأخبره رجل بأن النبي لا يقتل أحدا يدخل في دينه • فخرج مع الوفد حتى قدم على الرسول صلوات الله وسلامه عليه فلما رآه قال له أوحشي أنت ؟ قال : نعم يا رسول الله قال له : اجلس فحدثني كيف قتلت حمزة • فلما حدثه قال له ويحك غيب عني وجهك فلا أراك • فكان الوحشي بعد ذلك يتنكب الطريق من رسول الله خوفا من أن يراه • فلما خرج المسلمون الى موقعة اليمامة، لقتال مسيلمة الكذاب . خرج معهم وأخذ حربته التي قتل بها حمزة • فلما التقى الناس رأى مسيلمة قائما وبيده السيف فضربه بحربته فرماه ثم قال : قتلت بحربتي هذه خير الناس وشر الناس وأرجو أن تكون الاخرى مكفرة على الاولى •

ثم بعد ذلك مكث مكتوبا في ديوان المجاهدين ، حتى خلعه عمر ابن الخطاب منه . لكثرة ما كان يؤتى به وهو سكران اليه فيحده . وسئم الاقامة بالمدينة ولحق بالشام فاقام بحمص حتى مات نشوانا من خمر شربها .

وكان هذا ابتلاء من الله لقاتل حمزة وأى ابتلاء أقبح إخراجه من ديوان المجاهدين . وتكرر حده في شرب الخمر . ولقد روى الدارقطني بسنده الى عمر بن الخطاب قال : قد علمت أنه لم يكن الله ليدع قاتل حمزة ، وقد دفن حمزة رضى الله عنه بأحد مكان شهادته ولم يعش له ولد غير يعلى .

وفي يوم دفنه خيمت الكآبة على المدينة . وأصبح في كل منزل مأتم . وفي كل قلب حزن . وأسالت فاجعته الدمع هاطلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانهمرت العبرات من أصحابه .

ولقد قالت فيه صفية بنت عبد المطلب أخته وهي أم الزبير بن العوام من قصيدة طويلة :

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا ... بكاء وحزنا محضرى ومسيرى
على أسد الله الذى كان مدرها ... يذود عن الاسلام كل كفور
فياليت شلوى عند ذاك واعظمى ... لدى أضبع تعتادنى ونسور
أقول وقد أعلى النعى عشيرتى ... جزى الله خيرا من أخ ونصير

ومما قاله عبد الله بن رواحة فيه :

بكت عيني وحق لها بكاها ... وما يغنى البكاء ولا العويل
على أسد الاله غداة قالوا ... أحمزة ذاكم الرجل القتيل ؟
أصيب المسلمون به جميعا ... هناك وقد أصيب به الرسول
ألا يا هند فابكى لا تملى ... فأنت الواله العبرى الهبول
ألا يا هند لا تبدى شماتا ... بحمزة إن عزكم ذليل

أبا يعلى لـك الأركان هـدت وأنت الماجد البر الوصول
عليك سلام ربك في جنان يخالطه نعيم لا يزول

ومما قاله كعب بن مالك :

ولقد هددت لفقد حمزة هدة ظلت بنات الجوف منها ترعد
قرم تمكن في ذؤابة هاشم حيث النبوة والندى والسؤدد
عم النبي محمد وصفيه ورد الحمام فطاب ذاك المورد
وأتى المنية معلما في أسرة نصروا النبي ومنهم المستشهد

خالد بن الوليد مثل أعلى للشجاعة والطاعة

كان من بين ما أنجبتهم دولة الخلفاء الراشدين ، من الرجال العظام ؛ رجال الحرب والسياسة الذين أدهشت أعمالهم الباحثين في تاريخ الأمم . وقضوا بعزائمهم الماضية ، وسياستهم الحربية الموفقة على دولتي الفرس والروم ، وكانتا صاحبتي السلطان والسيادة في العالم : خالد بن الوليد فاتح العراق وقسم من الشام وأبو عبيدة بن الجراح فاتح الشام • وسعد بن أبي وقاص المستولي على عرش الأكاسرة •

يعد خالد بن الوليد من أكبر رجال الحرب في عهد الخلفاء الراشدين . ومن أعظم القواد توفيقا في ميدان النصر • وقد قيل لا يظهر الشجاع من الجبان إلا في مواطن القتال •

كان خالد بن الوليد من وجوه قومه زمن الجاهلية • وقد أسلم حوالى سنة سبع من الهجرة • وكان أخوه الوليد بن الوليد مسلما ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاله ثم قال : لو أتانا لأكرمناه • فكتب اليه الوليد فأسلم وقدم على رسول الله مع عمرو بن العاص وطلحة ابن أبي طلحة العبدري • فلما رآهم الرسول عليه السلام قال لأصحابه : رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها •

كان خالد في قومه موصوفا بالشجاعة محببا فيهم . وقد أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جيش من المسلمين اميره زيد بن حارثة الى بلاد الشام لغزو الروم . وكانت لهم هناك وقعة مؤتة التي استشهد فيها زيد ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبي طالب ، فاستشهد أيضا . ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقتل أيضا . ثم اتفق المسلمون على دفع الراية الى خالد بن الوليد ، فأخذها وقاتل بها قتالا شديدا حتى انقطعت في يده سبعة أسياف . ثم اكتفى خالد بهرب العدو ولم يعقبهم خشية أن يفتضح الأمر لأن عدد الجنود المسلمين كانوا ثلاثة آلاف ، وعدد جنود الروم مائتي الف . وفي هذه الغزوة سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفا من سيوف الله . ولعل هذا هو السر في حب رسول الله له فقد كان يحبه كثيرا ويقدره حق قدره . وينزله من نفسه منزلة عظيمة . لأنه يعلم أنه إنسان مخلص في الجهاد والقتال . وقد بلغ من حب الرسول له أنه حين خرج معه في حجة الوداع ، وحلق الرسول رأسه ، أعطاه ناصيته . فكان في مقدم قلنسوته . فكان لا يبارز أحدا إلا هزمه الله تعالى . ولذلك كان أول من يتقدم في ميدان الحرب طالبا رئيس جيش العدو لمنازلته . فاذا ما برز له انقض عليه انقضاض النسر على الحمل فأرداه . وكان عمله هذا يلقي الرعب في قلوب محاربيه ويكون من أكبر الأسباب في هزيمتهم وفشلهم .

ومن أشهر مواقف خالد بن الوليد . في مواقع القتال ، واقعة اليرموك . وهي تشهد له بالبراعة في السياسة الحربية . قال بعض المؤرخين : إن خالدا لما كتب اليه أبو بكر بقصد الشام ، أمره على جميع الجند وقال بعضهم : بل أمره على جنده فقط ، والظاهر أن الرواية الثانية أصح . لما ذكره ابن الأثير والطبري من أن خالدا . لما انتهى الى المسلمين في اليرموك بالشام . وجد الأمراء متساندين كل أمير على جنده . وكان عدد المسلمين المجتمعين سبعة وعشرين ألفا . منهم ألف صحابي . وكان الروم مائتي ألف مقاتل . وكان قتال المسلمين لهم على تساند كل أمير

علي جنده : لا يجمعهم أمير مثلمـا كان الحلفـاء في الحـرب العظمى ، أمام جيوش الألمان قبل توحيدهم للقيادة العامة • ولا يخفى ما في هذا من الوهن واختلاف الرأى وتجزؤ القوة •

ولما جاء خالد بن الوليد رأى ، لنيل الظفر ، لا بد من حـزم الرأي واجتماع الكلمة • وكان الروم على استعداد عظيم للقتال وقد أشار خالد على زملائه ؛ أمراء الجنـد ، بتوحيـد القيادة والتناوب عليها في ما بينهم ، فقبلوا وأمروا خالدا في ذلك اليوم العصيب • ولما تسلم القيادة العامة أخذ في تعبئة الجيش تعبئة لم تعب العرب مثلها • فقسم الجيش الى فرق ، كل فرقة تبلغ ما بين خمسمائة وألف جندى • وجعل على كل فرقة رجلا مـن الشجعان • وخرج للعدو بأربعين فرقة • ونشب القتال • واظهر الروم من البسالة وقوة الجاش والصبر على الحرب ما كاد يزيل المسلمين عن مواقنهم • وقاتل خالد بن الوليد قتالا عظيما حتى دحر العدو ، فتضعضع وتم النصر للمسلمين بعد أن أصيب منهم عدد غير قليل من الصحابة وسادات قريش • كما أصيب بمثل هذا أشراف الـروم الذيـن فضلـوا الموت دفاعـا عن الفـرار فقتلوا جميعا • وتعد واقعة اليرموك من أكبر الوقائع الحربية في بدء تاريخ حياة الاسلام ، كما تعتبر أيضا الضربة القاضية في دك سلطان الروم •

قل أن يوجد قائد في العالم يوفق الى النصر في كل واقعة كما وفق خالد بن الوليد ، رضى الله عنه • فان التاريخ لم ينبئنا عن انخذاله ولو في واقعة واحدة من وقائعه مع أهل الردة أو في العراق أو في الشام • وهذا إنما هو من نتائج الحزم والشجاعة والتبصير بأمور الحرب • فقد كان دائم اليقظة مراقبا لحركات العدو ، ويسدد سهم الفكر الى الغرض البعيد فلا يخطيء مرماه •

كان من أكبر ميزات هذا الشجاع الباسل طاعته لرؤسائه • يدلنا على ذلك أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، لما تولى بعد وفاة أبي بكر كان من أوائل أعماله عـزل خالد بن الوليد عـن

إمارة الجيش وتولية أبي عبيدة عامر بن الجراح • وقد امتثل خالد لهذا الأمر واطاع ، وهو القائد المحبوب النافذ الكلمة في جيوش المسلمين • أطاع خالد أمر أمير المؤمنين ، ولم تحدثه نفسه باستغلال ماضيه في التمسك بالرئاسة ، وشق عصا الطاعة كما يحدث بين الزعماء مما تسبب عنه ضعف المسلمين وتمزيق شملهم وهوانهم على غيرهم • ويرجع سبب عزل خالد إلى أن عمر ابن الخطاب ، رضي الله عنه خشي من فتنة الناس بخالد ، وإقبال جند المسلمين عليه ، وحبهم له واستماتتهم بين يديه في كل مواقف القتال : في العراق والشام ، وشجاعته التي أرهبت القلوب فخاف أن يدعوه ذلك إلى شق عصا الطاعة • وقد أظهر لخالد ذلك حينما استدعاه الى المدينة وقال له : ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بالناس • وقد يكون عمر على حق فيما رأى . والنفس البشرية نزاعة إلى الرئاسة والسيادة • وقد قال الله تعالى : « **إن الانسان ليطغى إن رآه استغنى** » لم يثن ما فعله عمر بن الخطاب عزم خالد عن العمل وخوض ميدان الحروب كجندي للدفاع عن الدين الحنيف فهو رجل ملأ الايمان قلبه ، وامتزجت روح الاسلام بلحمه ودمه واستنارت روحه بنور النبوة وهديها • فهو منذ أمن بالله ورسوله شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله فكان جنديا من جنود الاسلام أبت عليه طبيعة الجندية ، أن يكون سببا لوقف تياره المندفع بالفتوحات التي كان قطب رحاها وقائد قواها وبطل أبطالها •

ومات خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، في خلافة عمر بن الخطاب • ولما بلغ عمر موت خالد قال : « قد ثلم في الاسلام ثلمة لا ترتق ، وليته بقي ما بقي في الحمى حجر • كان سداد النحور للعدو ميمون النقيبة » ولما حضرت خالدا الوفاة قال : « لقد شاهدت مائة زحف وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء • ولقد طلبت الموت في القتال فلم يقدر لي إلا أن أموت على الفراش وما من عمل أرجى عندي ، بعد لا إله

لا إله إلا الله ، من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين بتها وأنا متترس والسماء تنهل علي ، وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفار فعليكم بالجهاد » .

بهذه الكلمات الذهبية خلد التاريخ لخالد أحسن الذكريات فقد برهن حقا على أنه الرجل الذى استهان فى سبيل مجد دينه وعقيدته وأمته بالحياة ، حتى عز عليه أن يموت على فراش الدعة والسكون ، وأن لا يأتيه الموت في ميدان القتال . فما أكرمها من نفس عاشت للحق ولنصرته : فكان جزاؤها الخلود في سير العظماء الفاتحين ، والمثل الأعلى ليقتدى به رجال الاسلام والمسلمين .

أبو عبيدة عامر بن الجراح مثل أعلى في الرأي والدهاء والاخلاص

حدثناكم في دروسنا السابقة على أبي بكر الصديق ، الذى اتخذ صفات الرسول واستخدمها فى منافع المسلمين ، وعن الفاروق عمر بن الخطاب الأسد الاسلامى ، وعن صفاته المجيدة وشمائله الحميدة . وفى هذا الدرس سأحدثكم عن عبيدة عامر بن الجراح الذى سماه النبى صلى الله عليه وسلم أمين هذه الأمة لعلمه بصدق إيمانه وإخلاصه لدينه في سره وعلانيته . وكأن رضى الله عنه مستشارا فى قومه معروفا بالرأى والدهاء حتى قيل : داهيتا قريش أبو بكر وأبوعبيده . وكان من السابقين للاسلام ، مخلصا فى دينه ، صادقا فى إسلامه : متعمقا فى حب رسول الله حتى أن أباه فى غزوة بدر الكبرى جعل يتصداه ليقتله لخروجه عن دين آبائه وأجداده . وجعل أبو عبيدة يحيد عنه يمين الجيش وشماله . ولما أكثر أبوه من التصدى له ، وخاف أبو عبيدة أن يباغته فيقضى عليه ، قصده وقتله . فانزل الله قوله : « **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه** » .

وكان أبو عبيده دائما له المواقف المشهودة مع الرسول صلى

الله عليه وسلم في غزواته • وكان يثق به ثقة غير محدودة • فقد روى عن أنس بن مالك قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل أمة أمين وإن أمين هذه الأمة هو أبو عبيدة بن الجراح • لذلك كان كثير من الصحابة يغبطونه على هذه المنزلة السامية والدرجة الرفيعة التي لم ينلها غيره من الصحابة • وقد سمعتهم في درسنا السابق ما قاله عمر بن الخطاب في شأنه . عندما طلب من الصحابة أن يتمنوا فتمنى كل واحد منهم أمنيته ، فقال عمر أما أنا فأتمنى بيتا مملوءا رجالا مثل أبي عبيدة • وقال أبو بكر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي عبيدة ثلاث كلمات لان يكون قالهن لى أحب الى من حمر النعم « يعنى أحب الى من المال الذى يغنى » • قالوا وما هن ؟ قال :

اولا : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتحدث فسكتنا فظن أننا كنا نتحدث في شيء كرهنا أن يسمعه ثم قال : ما من أصحابي إلا لو شئت أخذت عليه في خلقه إلا أبا عبيدة •

ثانيا . قدم علينا وفد نجران ، فقالوا : يا محمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويعطينا إياه • فقال : والذى بعثنى بالحق لأرسلن معكم القوى الأمين • قال أبو بكر : فرفعت رأسي لاريه نفسي « وما تعرضت للامارة غيرها » فقال رسول الله : قم يا أبا عبيدة فبعثه معهم •

ثالثا . كنا جلوسا عند رسول الله . فطعن في خاصرة أبي عبيدة وقال : إن ها هنا خويصرة مؤمنة « ولقد قال عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما : ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها ، وأحسنهم أخلاقا وأثبتهم جنانا « قلبا » إن حدثوك لم يكذبوك وإن حدثتهم لم يكذبوك : أبو بكر وأبو عبيدة وعثمان بن عفان وكان أبو عبيدة ملازما للرسول صلى الله عليه وسلم في الاقامة والترحال . شديد التمسك بأوامره ، حريصا على رضاه : فهاجر معه « حضر بدرا • وكان من الذين ثبتوا معه في غزوة أحد

وشهدت بعد ذلك مع الرسول الخندق والحديبية . وفتح مكة وغيرها من المشاهد • كان أبو عبيدة ينكر ذاته ولا يحتفل بها في سبيل الواجب العام : من ذلك أن عمرو بن العاص طلب مددا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه مددا من المهاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر وجعل أبا عبيدة أميرا عليهم • فلما قدموا على عمرو بن العاص قال لهم : أنا أميركم • فقال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين فقال عمرو أنتم مدد أتيتم لاعانتي • فما كان لأبي عبيدة إلا أن سلم الامارة لعمرو بن العاص منعا للخلاف • فهذا مثل من أمثلة نكران الذات في سبيل المصلحة العامة • وهاكم مثلا آخر في يوم السقيفة قال عمر لأبي عبيدة : هلم أبايعك بالخلافة فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنك أمين هذه الأمة » • فقال أبو عبيدة : كيف أتقدم على رجل أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنا حين قبض ؟ يعني أبا بكر وتلك منقبة ثانية • وهكذا كانت حياته كلها سلسلة قد اتصلت حلقاتها التي صيغت من الخلق والنبل والشجاعة والاكبار والاجلال •

فذاك خلق من الفردوس طينته
الله أودع فيها ما ينقيها
لا الكبر يسكنها لا الظلم يصحبها
لا الحقد يعرفها لا الحرص يغويها

ولما آلت الخلافة الى أبي بكر ، رضي الله عنه ، جهز الجيوش ووجهها إلى الشام ، وجعل القيادة العامة لأبي عبيدة بن الجراح وانطلق أبو عبيدة الى الشام كالسهم النافذ . وأخذ ينتصر نصرا يعقبه آخر والخليفة يمده بالامدادات المتلاحقة • ولما نفد ما عنده من الرجال دعا خالد بن الوليد من العراق . وكان منتصرا هناك . فزحف الى الشام وتولى القيادة العامة وتنازل له عنها أبو عبيدة عن طيب خاطر • وما زال الجيش يعمل متساندا يهدف

إلى النصر في تلك البلاد . وما زالوا ينتقلون من نصر الى نصر ·

وبينما الحرب قائمة على قدم وساق ، إذا بأبي بكر قد التحق بربه · وانتهى أمر الخلافة إلى عمر بن الخطاب فأصدر أمره بعزل خالد بن الوليد من القيادة وإسنادها إلى أبي عبيدة · وأرسل رسالة بذلك إلى أبي عبيدة مع رسول فوصلته الرسالة وواقعة اليرموك في أشد ما يكون ، ولكن حكمة أبي عبيدة أبت أن يسلم هذه الرسالة الى خالد والمعركة حامية · ولما انتهى أمر المعركة وكتب الله النصر للمسلمين أخبره بالأمر فتقبله خالد بالرضا والقبول ، وعاد يعمل جنديا تحت راية أبي عبيدة ثم جمع الجند وقال لهم : بعث عليكم الخليفة عمر بن الخطاب أمين هذه الامة · سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله · فقال أبو عبيدة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خالد بن الوليد سيف من سيوف الله · وكان أبو عبيدة من أعرف الناس بخالد وأعظمهم تقديرا لعبقريته وفضل عقله وشجاعته · كما كان خالد يعظم أبا عبيدة ويعرف له فضله وسابقته ورفعة مكانه في الاسلام ·

وفي أيام حكم أبي عبيدة على الشام ، استقر النظام واستتب الآمن . وشعرت البلاد بجمال العدالة وحسن السياسة ، حتى بات سلطان المسلمين أحب إليهم من سلطان الروم : فكانوا عونا للمؤمنين على الفتح ونصرا لهم على الأعداء واستمر واليا على الشام في خلافة عمر بن الخطاب · وكان ، رضي الله عنه ، لا يرغب في الامارة ولكنه قبلها خدمة للاسلام والمسلمين ، وطلبا للثواب من رب العالمين · وما زال يعامل البلاد بالكياسة حتى انتشر مرض الطاعون في البلاد ، واقترب منه ذلك المرض حتى التحق بالرفيق الأعلى سنة ثمان عشر هجرية ، وعمره ثمان وخمسون سنة · ولم يترك ذرية من بعده · رحمة الله رحمة واسعة . وجزاه عن المسلمين خيرا ·

تلك لمحة خاطفة عن مثل من المثل العالية التي تربت في

أحضان الاسلام ، وتخلقت بأخلاقه • وقد ورد أنه عند دنو أجله قال لمن حوله : اقرئوا أمير المؤمنين السلام وإني موصيكم بوصية إن قبلتموها تزالوا بخير ؛ أقيموا الصلاة وتصدقوا وتواصوا وانصحوا لأمرائكم ولا تلهكم الدنيا ، فان امرءا لو عمر ألف سنة ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعي هذا الذى ترونه . فالله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون ، وأكيسهم أطوعهم له وأعملهم ليوم ميعاده • ثم صاح : يا معاذ ابن جبل صل بالناس • واختفى ذلك النور الذى ملأ الدنيا ضياء ، فقام معاذ وقال : أيها المسلمون ، فجعتم برجل ما أزعم أني رأيته أبر صدرا ولا أشد حبا للعامة ، ولا أنصح لهم منه ، فترحموا عليه • ورحمه الله رحمة واسعة •

هذى مناقبه في عهد دولته
للشاهدين وللأعقاب أحكيها

سعد بن أبي وقاص مثل أعلى في الثبات والبطولة

هو خال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله الله عليه وسلم وهو عنهم راض . بلغته دعوة الرسول صلوات الله وسلامه عليه فبادر بتقبولها مبادرة الضمآن للماء البارد . ولقد قال عن نفسه : رأيت في المنام ، قبل أن أسلم بثلاث ليال ، كأني في ظلمة لا أبصر شيئا إذ أضاء لي قمر فاتبعته وأخذت أنظر الى من سبقني الى ذلك القمر فنظرت زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب ، وأبا بكر . فسألتهم : متى انتهيتم الى ها هنا فقالوا : الساعة . فلما استيقظت من النوم بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام مستخفيا فلقيته في شعب مكة فاسلمت . وكانت سني حينذاك سبع عشرة سنة .

ولقد امتحن سعد بعد إسلامه امتحانا قاسيا رهيبا : فقد كان له قلب رقيق رحيم على والدته . وهي ما تزال مشركة متمسكة بدينها . فلما أسلم هالها الأمر فقالت له : ما هذا الدين الذي اتخذت يا سعد ؟ لتتركنه أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي . فقال لها : لا تفعلي يا أماه فاني لا أدع ديني فمكثت يوما

وليلة لا تأكل ولا تشرب • فأصبحت وقد جهدت فقال لها : والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني • فان شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي • فأكلت وشربت فأنزل الله تعالى : « **وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا** » •

سرت العقيدة في جوارح سعد فحماها واعتز بها ، فجاهد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم جهادا يشهد له بعظيم حبه وهاجر معه إلى المدينة وشهد الغزوات كلها مع الرسول فشهد بدرا • وكان من الذين ثبتوا مع الرسول يوم أحد وقد خالف المسلمون ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاقوا جزاء وفاقا لخلافهم نبيهم حتى بلغ من ذعر المسلمين واضطرابهم يومذاك أن أرجف فيهم بموت محمد صلى الله عليه وسلم •

في ذلك الهول الأكبر كان سعد يصوب سهامه في صفوف المشركين ويدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبات ورباطة جأش ادهشت محمدا عليه السلام فقال له : ارم فداك أبي وأمي ••• ارم أيها الغلام القوى •

وكان له في عهد عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وقائع وفتوحات كان فيها البطل المغوار • واستشار عمر الناس فيمن يوليه حرب الفرس فأشاروا عليه بسعد وقالوا عنه : إنه الأسد فتولى سعد إمارة الجيش ثم أوصاه عمر فقال : يا سعد بن وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيئة بالحسنة • إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته • فالناس شريفهم ووضيعهم عند الله سواء ـ وهم عباده يتفاضلون بالتقوى هذه عظتي لك إن تركتها كنت من الخاسرين . وإن عملت بها كنت من الناجين •

وسارت الجيوش بقيادته ولها فوق أسلحتها سلاحان من عقيدة

وخلق اجتمعا في موعظة عمر • فليس يبالي الجندي المسلم بالموت على أي جنب كان في الله مصرعه • وفتح الله على يديه بلاد فارس كلها فثل عرشها • وركز رماح الاسلام في سهلها وجبلها وكان لسعد يوم القادسية قروح لم يستطع الركوب معها فبقي على سطح القصر مكبا على وجهه وتحت صدره وسادة ليشرف على الناس • وكان صف الجنود في أصل الحائط فعابه بعض الناس على ذلك وذكره في شعره فقال :

نقاتل حتى أنزل الله نصره وسعد بقصر القادسية معصم
فأبنا وقد أمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيم

فبلغت أبياته سعدا فنزل الى الناس وأراهم ما به من القروح فعذروه وعلموا حاله •

ولقد كتب عمر بن الخطاب الى سعد وهو بالقادسية بعد فتحها ان وزع ما زاد من أموال الغنائم على حملة القرآن • فامتثل سعد ما أمره به عمر ، وأخذ يوزع الأموال عليهم • ولما وصل الى عمرو بن معد يكرب قال له : ما معك من كتاب الله تعالى : قال : إني أسلمت باليمين ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن • فقال له سعد : ليس لك في هذا المال نصيب • وأتاه بشر بن ربيعة فقال : ما معك من كتاب الله تعالى ؟ فقال : بسم الله الرحمن الرحيم وسكت فضحك القوم منه ، ولم يعطه شيئا فاشتاط عمرو وبشير غيظا وقال عمرو في ذلك •

إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد قالت قريش ألا تلك المقادير
نعطى السوية من طعن له نفذ ولا سوية إذ نعطى الدنانير

أما بشر فقال :

أنخت بباب القادسية ناقتي وسعد بن وقاص علي أمير
وعند أمير المؤمنين نوافل وعند المثنى فضة وحرير

تذكر هداك الله وقع سيوفنا دلفنا لأخرى كالجبال تسير
عشية ود القوم لو أن بعضهم يعار جناحي طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قراع كتيبة بباب قريش والمكر عسير

فكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر فأمره أن يعطيهما على بلائهما فأعطى كل واحد منهما ألفي درهم •

وكان من حب النبي صلى الله عليه وسلم لسعد أن دعا الله له أن يسدد رميته ويجيب دعوته ؛ فكان مجاب الدعوة حتى لقد كان كبار الصحابة يغبطونه على ذلك ويخشون دعوته • فمن ذلك ما رواه الطبري ؛ أن رجلا سب عليا وطلحة والزبير ، فنهاه سعد فلم ينته ، فدعا عليه • فقال الرجل : تهددني يا سعد كأنك نبي ولم ينته بعد • ولما هم بالرجوع الى داره ، لقيه بعير فضربه برجله فمات من حينه •

ومن مأثورات سعد وقد انتشرت الفتنة بعد موت عثمان بن عفان أنه قال : ما بكيت في الدهر إلا ثلاثة أيام ، يوم توفي رسول الله ، ويوم قتل عثمان ، واليوم أبكي على الحق فعلى الحق السلام •

على أن سعدا كان حقيقا بالخلافة لأنه أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد إليهم عمر وكان له عصبية كبيرة تحاول أن يقبل الخلافة فكان يأباها • ولقد طلب منه ابنه عامر أن يدعو بالخلافة بنفسه فقال له : أي بني أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسا لا والله حتى أعطى سيفا إذا ضربت به مسلما نبا عنه وإن ضربت به كافرا قتلته • وقال له هاشم ابن أخيه : إن ها هنا مائة ألف سيف يرون أنك أحق الناس بالخلافة • فقال : أريد من هذه المائة ألف سيف سيفا واحدا ، إذا ضربت به المؤمن لا يصنع شيئا وإذا ضربت الكافر قطع •

فكان سعد يرى أن المتقاتلين جميعا مسلمون وظاهر حالهم

الاسلام ولا يعلم ما فى السرائر حتى يقاتل الباغى بسيفه فاذا قتله لا يأثم ولا يلام على قتله .

وبعد أن انتهت الفتنمة ، وأصبح الامر المعاوية ، دخل عليه مرة فقال له معاوية : ما منعك من القتال معنا ؟ فقال له سعد : إنك لتأمرني أن أقاتل رجلا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لانبى بعدى فسكت معاوية .

وتوفى سعد فى السنة الخامسة والخمسين بالعقيق ، فى خارج المدينة ، وحمل على أعناق الرجال الى السدينة وكفن فى ثوب خلق طلب قبل وفاته أن يكفنوه فيه ، لانه كان قد لقى المشركين فيه يوم بدر . وصلى عليه مروان بن الحكم والى المدينة ، ودفن بالبقيع وعمره ثمانون سنة وهو آخر العشرة المبشرين بالجنة وآخر المهاجرين وفاة .

ألا بارك الله فى تلك النفس الطيبة الكريمة التى أبت إلا أن تكون سباقة إلى الاهتداء بنور الدين المحمدى ، حريصة أن تلقى الله كما أحب الله أن يراها مكفنة فى أعلام التقوى والشرف والجهاد .

عبد الله بن أبي مسعود
أعلم الصحابة بكتاب الله عز وجل

هو احد الصحابة السابقين الأولين في الاسلام وأول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وهو أعلم الصحابة بكتاب الله عز وجل ، ومن المهاجرين الذين قال الله تعالى في شأنهم : « **والسابقون الألون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم رضوا عنه وأعدلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار** » . كان رضي الله عنه من اجلاء الصحابة وساداتهم وفقهائهم ، وأعلمهم بالقرآن والفقه . وكان زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة على جانب عظيم من العفة والصبر .

أما سبب إسلامه فهو أنه رأى معجزة النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : علمني هذا . فقال له النبي : إنك غلام معلم . فأسلم ولزم الرسول صلى الله عليه وسلم وأكثر من خدمته والدخول عليه ، حتى قال أبو موسى الأشعري كما رواه البخاري :

قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وامتزج الايمان بلحمه ودمه حتى شهد له الرسول بذلك حينما أنزل الله تعالى : « **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما إتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم إتقوا**

وآمنوا ثم اتقوا واحسنوا والله يحب المحسنين » فقال له صلى الله عليه وسلم : « أنت منهم » رواه مسلم .

جهر عبد الله بالقرآن في قريش

ليس من العجب مبادرة عبد الله إلى الاسلام ، بعد أن استبان له طريق الرشد . فدفعه صفاء وجدانه الى التملص من حبائل الوثنية ، وإنما العجب من هذا الدين الذى ما دخل قلبا إلا تمكن منه تمكن الروح من الجسم . وهكذا كان شأنه مع المسلمين الأولين الذين استمدت قلوبهم من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الحياة والقوة . وتغلغل فيها الايمان القوى ، حتى حل منها فى الصميم . فأصبحوا . بها يهتنون ، ولها يعملون وفى سبيلها يجاهدون . فان واجههم العذاب فى سبيلها ، فهو العذاب الفرات وإن أجبروا على تركها ثبتوا حتى الممات وإليكم البيان :

اجتمع عبد الله بن مسعود مع بعض إخوانه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به ، فمن رجل منكم يسمعهم ؟ قال عبد الله : أنا أسمعهم . فقال له إخوانه : نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه . فقال : دعونى فان الله يمنعني . فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، فرفع صوته بسورة الرحمن يقرؤها . فتأملته قريش وسألت عما يقرأ ؟ فقال بعضهم : إنه يتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا اليه فجعلوا يضربونه فى وجهه وهو يقرأ ولا يسكت حتى بلغ منها ما شاء . ثم عاد الى أصحابه ، وقد أثر الضرب فى وجهه . فقالو له : هذا الذى خفناه عليك . قال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن . ولئن شئتم لأجينهم بمثلها غدا . قالوا : لا ، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون . وهكذا استمد هذا الصحابى الجليل قوته من إيمانه فتحدى عظماء قريش ، وهو فى أنديتهم يسمعهم ما يكرهون .

هجــرتــه ومشــاهــده

هاجر عبد الله الى الحبشة ثم الى المدينة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشهد معه بــدرا وغزوة أحــد والخنــدق وبيعة الرضوان ، وسائر المشاهد • وهو الذى أجهز على أبى جهل فرعون هذه الأمة الاسلامية يوم بدر •

منزلته عند الرسول صلى الله عليه وسلم

كان ابن مسعود يحب الرسول صلوات الله وسلامه عليه حبا جما ، ولذا وقف نفسه على خدمته فأحبه الرسول واختصه بما لم يأذن فيه لغيره من كبار الصحابة ، من الاطلاع على سره دون غيره • وروى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله : أذنتك أن تسمع سرى • ولهــذا كان يقال لعبــد الله : صاحب السر • وروى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله : اقرأ على القرآن • فقال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى • فقرأ عليه أول سورة النساء الى قوله تعالى : « **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا** » • فبكى الرسول صلى الله عليــه وسلم وقال : حسبك « يعنى كفى » •

وروى الامام أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر ابن مسعود أن يصعد شجرة يجنى منها عودا من أراك • فنظر أصحابه الى ساقى عبد الله بن مسعود حيــن صعد الشجــرة فضحكوا مــن دقتهما وهزا لهما • فقال الرسول : ممم تضحكون ؟ قالوا : من دقة ساقيه • قال : والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أحــد •

وروى الحاكم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » « يعنى عبد الله بن مسعود » •

وروى البخاري ومسلم بسندهما الى عبد الله بن مسعود قال : والذي لا إله غيره ، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، وما نزلت من كتاب الله آية إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو كنت أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تعالى تبلغه الابل لركبت اليه ٠

أما منزلته عند الأصحاب فكان خير مثال للزهد والعفة والورع حتي فاق فيها أقرانه ٠ وكان على حالة يغبطه عليها كبار الصحابة والتابعين ٠ من ذلك ما أخرجه البغوى عن تميم قال : جالست اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت أحدا ازهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أحب الى أن أكون مثله في صلاحه من ابن مسعود ٠ وعن يسار بن أبي وائل ، أن ابن مسعود رأى رجلا قد أسبل إزاره فقال له : ارفع إزارك ٠ فقال وأنت يا ابن مسعود فارفع إزارك ٠ فقال : لست مثلك إن بساقي دقة وأنا آدم اللون « يعني أسمر » فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فضرب الرجل وقال له : أترد على ابن مسعود كلامه ؟ ٠

ألا ترون أيها الاخوان ، أن عمر قد استعظم رد الرجل على ابن مسعود لكونه من أفاضل علماء الصحابة وهو أدرى بما يقوله ٠

وفاة عبد الله بن مسعود

في السنة الثانية والثلاثين من الهجرة ، مرض عبد الله المرض الأخير في المدينة ٠ فعاده عثمان بن عفان في خلافته فقال له ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ٠ قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي قال ألا آمر لك بطبيب ٠ قال : الطبيب أمرضني ٠ قال : آمر لك بعطائك ، وكان قد تركه سنين ٠ قال : لا حاجة لي به قال : يكون لبناتك من بعدك ٠ قال : أتخشى الفقر على بناتي ؟ إني

أمرت بناتي أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا • ثم توفي ودفن رضي الله عنه بالبقيع بعد أن صلى عليه عثمان • فرضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مسكنه ومأواه •

زيد بن حارثة حب رسول الله
واول من أسلم من الموالي

هو الصحابي ابن الصحابي حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو حبه زيد بن حارثة . نشأ بين أحضان والديه حتى بلغ الثامنة من عمره ، فخرجت به أمه سعدى لتزور قومها بني معن ، فأغارت خيل ابن القين بن حسر على بيوت بني معن ، فأخذوا زيدا مع من أسر وهو غلام يعقل وعرضوه للبيع في سوق عكاظ بمكة . فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم . ثم وهبته للنبي وهو بمكة قبل الرسالة فأعتقه وتبناه . فكان أهل مكة يدعونه زيد بن محمد ، حتى جاء بعد ذلك الاسلام ، فكان زيد أول من أسلم من الموالي . واستمر متبنى للنبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل قول الله تعالى : « **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم** » . فدعى لأبيه حارثة منذ ذلك الوقت ، كما رواه الامام البخاري .

حزن أبيه حارثة على فقده

رجعت سعدى والدة زيد الى والده وأخبرته خبر إغارة بني القين ابن جسر على بيوت بني معن . وأن زيدا قدا أسر مع من أسروهم . فحزن عليه كثيرا وجزع لفقده شديدا وقال :

بكيـت علـى زيـد ولـم أدر مـا فعـل
أحـي فيرجي أم أتـي دونـه الأجـل
فوالله مـا أدرى وإن كنـت سائـلا
أغالـك سهـل الأرض أم غالـك الجبـل
تـذكـر نيـه الشمس عنـد طلوعهـا
ويعـرض ذكـراه إذا قـارب الطفـل
وإن هبـت الأرواح هيمـن ذكـره
فيا طـول مـا حزنـي عليـه ويا وجـل
فياليت شعرى هـل لك الدهـر رجعـة
فحسبـي من الدنيـا رجوعك لـي علـل

فلما كان موسم الحج ، رأى زيد أناسا من بني كلب يحجون فعرفهم وعرفوه . وأخبروه بجزع أسرته عليه ، فكتـب اليهم الأبيات الآتية وأرسلها معهم ليبلغوها الى أهله الذين أصبحوا في جزع عليه شديد وحزن لفقده عميق :

أحـن الى قـومـي وان كنـت نـائيـا
فانـي قطيـن البيـت عنـد المشاعـر
فكفـوا عن الوجد الـذى قد شجاكـم
ولا تعملوا في الأرض فعل الأباعـر
فانـي بحمـد اللـه فـي خير أسـرة
كـرام معـد كـابـرا عـن كـابر

فبعد حجهم بلغوها أباه ، ووصفوا له موضعه ، فقدم مكـة لفدائه . ولما دخل على النبى صلى الله عليه وسلم قال : يا ابن عبد المطلب ! يا ابن هاشم ! يا ابن سيد قومه ! جئتك في ابنى عندك فامن علي وأحسن الى في فدائه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من هو ابنك ؟ قال : زيد بن حارثة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فهلا خير ذلك؟ادعه فخيره ، فان اختارك فهو لك بغير فداء . وان اختارني فوالله ما أنا بالذى اختار على من اختارني أحدا . ثم دعا رسول الله زيدا فقال له : هل تعرف

هذا ؟ قال : نعم ، هذا أبى • قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فأنا من قد عرفت ، ورأيت صحبتي لك . فاخترني أو اختره » فقال زيد : ما أريده وما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت من مكان الاب والعم • فقال والده : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية ؟ أتختاره على أبيك وأهل بيتك ؟ قال : نعم ما أختار عليه أحدا • فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك منه أخرجه الى الحجر بمكة وقال : اشهدوا أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه • فلما رأى أبوه ذلك طابت نفسه وانصرف • فدعى زيد بن محمد • ولما جاء الاسلام ونزلت الآية « **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** » • دعى من حين ذلك لابيه حارثة فقيل : زيد بن حارثة •

منزلته في الاسلام

كان زيد من أسبق الناس الى الاسلام • فهو أول من أسلم من الموالى • ولم يصرح القرآن باسم أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا باسم زيد . وفي هذا من الشرف ما فيه ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يرسله في غزوة الا جعله أميرا عليها • فلقد روى الامام أحمد عن عائشة . رضى الله عنها . قالت : ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة . في جيش ، إلا أمره عليه • ولو بقى بعده لا ستخلفه وروى البخارى . عن سلمة بن الأكوع ، قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات . ومع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم • وروى البخارى . عن سلمة بن الأكوع . قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات . ومع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم • وروى البخارى أيضا عن ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأيم الله إنه كان لخليقا بالامارة (يعني زيد بن حارثة) وإنه كان لمن أحب الناس إلى » •

وروى الامام أحمد ، عن محمد بن أسامة عن أبيه قال : « اجتمع جعفر وعلي وزيد بن حارثة رضي الله عنهم فقال جعفر أنا أحبكم الى رسول الله وقال علي كلا أنا أحبكم اليه وقال زيد : « كلا أنا أحبكم إليه » • فقالوا : « انطلقوا بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نسأله قال : فجاؤوا ودخلوا عليه وقالوا : من أحب إليك ؟ قال : فاطمة • قالوا : نسألك عن الرجال قال : أما أنت يا جعفر فأشبه خلقك خلقي • وأما أنت يا علي فزوج ابنتي وأنا منك وأنت مني • وأما أنت يا زيد فمني والى أحب • وعن ابن عمر قال : « فرض عمر لأسامة أكثر مما فرض ى ، يعني في الغنائم ، فسألته فقال : إنه كان احب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك وإن اباه كان أحب الى رسول الله من أبيك •

زوجته واولاده

تبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا وزوجه أم أيمن الحبشية ، فولدت له أسامة • ثم أراد أن يزوجه زينب بنت جحش ، وهي ابنة عمته اميمة بنت عبد المطلب القريشية . فأبت وقالت : يا رسول الله أنا خير منه نسبا ، وهو من الموالى فكيف أرضاه لنفسي ؟ ووافقها على ذلك أخوها عبد الله • فأنزل الله تعالى : « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** » • فلما نزلت هذه الآية رجعت زينب وأخوها عبد الله ورضيا فأنفذ الرسول أمر الزواج • ولما دخل بها كانت لا تزال تفخر عليه بنسبتها وحسبها ، وكثيرا ما كان يسمع منها ما لا يحب أن يسمعه • ولم يكن يتمكن منها من غير أن تمتنع عليه ، فجاء زيد يوما الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له : إني أريد أن أفارق صاحبتي • فقال له صلى الله عليه وسلم : هل رابك منها شيء ؟ قال : كلا والله ولكنها تتعظم علي لشرفها وتؤذيني بلسانها • فقال له الرسول صلى

الله عليه وسلم : « أمسك عليك زوجك ولا تطلقها ، واتق الله تعالى فى معاشرتها وفيما تقوله فيها » ·

ولما علم أنه لا فائدة في البقاء معها طلقها . وتزوجها النبى صلى الله عليه وسلم بعد زيد ، للتشريع ولبيان إباحة زواج زوجة الابن بالتبني · قال الله تعالى : «**فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها** » أى بعد أن طلقها زيد وانقضت عدتها منه « **لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعياهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا** » ·

فان العرب كانوا يعتقدون أن المتبنى كابن الصلب يحرم على من تبناه أن يتزوج حليلته لذلك كانوا يقولون بعد زواج النبى صلى الله عليه وسلم زينب : تزوج محمد حليلة ابنه · فأنزل الله تعالى ردا عليهم : « **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما** » ·

ثم إن زيدا تزوج بعدها أم كلثوم بنت عقبة ، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب فولدت له زيدا ورقية · ثم تزوج بعدها درة بنت أبى لهب بن عبد المطلب ·

إمارته للجيوش الاسلامية واستشهاده

هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة وهاجر على إثره زيد بن حارثة وحضر بدرا · وكان هو البشير الى المدينة بنصر المؤمنين يومها ومن الرماة فيها · ثم شهد أحدا والخندق والحديبية وخيبرا · ثم كان أميرا على الجيوش في السرايا ثم أرسله النبى صلى الله عليه وسلم فى السنة الثامنة أميرا على جيش عدده ثلاثة آلاف إلى مؤته وهى مدينة معروفة بالشام بينها وبين بيت المقدس مرحلتان لمحاربة الروم بها · فقتل فيها طعنا بالرماح · فحزن عليه النبى صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا · رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مسكنه ومأواه ·

والسلام عليكم ورحمة الله

الفهرس

تم طبع هذا الكتاب بالشركة
التونسية لفنون الرسم

توضيح ودراسات لما اشتمل عليه الإسلام من الأصول العامة لتنظيم العالم والرقي بالبشرية واقرار الأمن والسلام في هذا العالم المضطرب .

الشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج – تونس